عباس الجراري
شاعرا

بسم الله الرحمن الرحيم

عباس الجراري شاعرا

إعداد وتنسيق وتقديم
محمد احميدة

منشورات النادي الجراري رقم 79

عباس الجراري شاعرا

إعداد وتنسيق وتقديم : محمد احميدة

لوحة الغلاف : من أعمال الفنان البولوني إيغور مورسكي (IGOR MORSKI)

الإيداع القانوني: 2018MO4938

ردمـــك: 978-9920-9738-0-9

الطبعة: 2018

منشورات النادي الجراري رقم : 79

الطباعة والإخراج الفني

دار أبي رقراق للطباعة والنشر

10 شارع العلويين رقم *3*، حسان – الرباط

الهاتف : *05 37 20 75 83* - الفاكس : *05 37 20 75 89*

E-mail : editionsbouregreg2015@gmail.com

© جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

عباس الجراري شاعرا

قراءات في " من ديوان عباس الجراري"
لقاء علمي من تنظيم

ماستر مكونات الأدب العربي بالمغرب الحديث والمعاصر

كلية الآداب بالقنيطرة

مختبر "أرخبيل للدراسات والأبحاث الأدبية"

كلية الآداب، القنيطرة

بشراكة مع النادي الجراري
بالرباط

إعداد وتنسيق وتقديم

محمد احميدة

2018

تـقـديــم

محمد احميدة(*)

صدر «من ديوان عباس الجراري» سنة 2017 في جزأين [2]. وبصدوره كشف عميد الأدب المغربي عن جانب من اهتماماته الأدبية، كان مغيَّباً، أو لنقل: إن مجال تداوله كان محصوراً في دائرة ضيقة، بل لم يكن لهذه الدائرة أن تتعرف إلا على نزر يسير من هذه الكتابة الشعرية العباسية.

وحينما بدا للشاعر عباس الجراري إخراج أشعاره إلى دائرة التلقي الواسع، ليضعها بين أيدي المهتمين بدراسة الأدب العربي بشكل عام، والباحثين في أدبنا المغربي بشكل خاص، لم يجنح إلى نشر كل ما جادت به قريحته في هذا الباب، بل ارتأى تقديم منتخبات [3] من دواوينه «أشواق»، «مع حبِّي ورضاي»، «إخوانيات ومساجلات».

لقي هذا الإصدار اهتماماً ملحوظاً في وسائل الإعلام المختلفة، وفي بعض المواقع الإلكترونية وصفحات الفيسبوك؛ وربما يعود هذا الاهتمام إلى طبيعة هذا المصنّف، حيث أَلِف المثقفون والمهتمون بأدبنا المغربي، أن يقرؤوا لعباس الجراري أبحاثاً فكرية ودراسات أدبية أكاديمية، أما أن يطلع علينا بكتابته الشعرية، فذاك أمر بدا مفاجئاً. وقد سمعتُ من

(*) أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، تقاعد سنة 2013.

(2) صدر الجزء الأول في شهر ماي 2017، ثم صدر الجزء الثاني في شهر دجنبر من نفس السنة، وهما معاً، من إعداد وتقديم محمد احميدة.

(3) ما ضمّه «من ديوان عباس الجراري» من نصوص في جزأيه، من اختيار الشاعر نفسه، وبهذا التوضيح أقدم جوابا عن تساؤل ورد في دراسة الأستاذ محمد اليملاحي طيَّ هذا السِّفر، حيث يقول: «ولا يدري القاريء من قام بعملية الاقتطاف، هل هو الأستاذ احميدة ؟ أو الأستاذ الجراري أو هما معا ؟»
أُنظر «قضية الشعر لدى الأستاذ عباس الجراري، من التصور إلى الإنجاز » محمد اليملاحي، ص 160.

أحد الأساتذة الجامعيين، وهو يتحدث في ندوة علمية بمدينة فاس، أنه فوجيء بهذا الجانب من اهتمامات الأستاذ عباس الجراري، وما خطر ببَالِه أن هذا المفكر المغربي يقرض شعراً.

ولما كان الأدب العربي في المغرب، يحظى باهتمام العديد من مختبرات البحث في مختلف كليات الآداب بالجامعة المغربية، وفُتحت عدة تكوينات للحصول على شهادة الماستر في هذا التخصص، فقد كان طبيعياً أن نجد بعض هيئات التدريس في هذه المسالك التي تعنى بإنتاج مفكرينا وأدبائنا في مختلف المجالات الفكرية والإبداعية، تلتفت إلى هذه التجربة التي ضمها هذا الإصدار الذي حمل عنوان « من ديوان عباس الجراري».

وجاءت الالتفاتة من كلية الآداب بجامعة ابن طفيل، التي تضم داخل شعبة اللغة العربية وآدابها، تخصصاً للحصول على شهادة الماستر في الأدب المغربي، مؤسَّس على البحث في «مكونات الأدب العربي بالمغرب الحديث والمعاصر»؛ فسعت هيئة التدريس في هذا الماستر، إلى جانب مختبر «أرخبيل للدراسات والأبحاث الأدبية»، وبشراكة مع «النادي الجراري»، إلى تنظيم جلسة علمية، لتقديم قراءات في التجربة الشعرية لعميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري.

نظم هذا اللقاء العلمي يوم الثلاثاء 20 مارس 2018، بمدرج الندوات في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، وهو اللقاء الذي تم بحضور الشاعر نفسه، ودار في جلستين: خصصت الأولى التي ترأستها الدكتورة ربيعة بنويس منسقة الماستر، لكلمات ترحيبية من طرف رئيس جامعة ابن طفيل، الدكتور عز الدين الميداوي، وعميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدكتور محمد زَرُّو، ورئيس شعبة اللغة العربية وآدابها، الدكتور محمد شباضة، ورئيس مختبر «أرخبيل» الدكتور عبد العزيز المطاد، ثم كلمة اللجنة المنظمة التي ألقاها الدكتور عبد الله بن عتو. أما الجلسة الثانية فخصصت لتقديم القراءات من طرف نخبة من الأساتذة الجامعيين، بعضهم ينتمي إلى كلية الآداب بالقنيطرة، وبعضهم الآخر ينتمي إلى مؤسسات جامعية أخرى، شاركوا في هذه الجلسة باعتبارهم أعضاء في

« النادي الجراري»، الطرف الثاني المساهم في هذا اللقاء العلمي. وقد ترأست هذه الجلسة العلمية، الدكتورة نورة لغزاري، أستاذة الأدب المقارن، وعضوة هيئة التدريس بشعبة اللغة العربية بكلية آداب القنيطرة، أدارتها بما عُرف عنها من تمكّن ورزانة ولباقة وضبط.

جاءت العروض، كما سطرت في البرنامج كالآتي:

1- مدخل نقدي لقراءة أشعار «من ديوان عباس الجراري» للدكتور محمد البوري.

2- صورة العشق ووهج الصبابة في غزل العباس بالحليلة المهابة، للدكتورة بديعة لفضايلي.

3- مفهوم الشعر عند عباس الجراري من خلال إنجازه الشعري، للدكتور مصطفى الطوبي.

4- التجربة الشعرية عند الدكتور عباس الجراري، للدكتورة ربيعة بنويس.

وشارك في هذه الجلسة الشاعر أنس أمين، الذي جاءت مساهمته من خلال قصيدته الشعرية التي أنشأها وانشدها بهذه المناسبة، ووسمها بـ «إلماعُ الماس من فواضل العباس».

سيلحظ القارىء أن هذا السِّفر، قد ضم مساهمتين أخريين في نفس الموضوع، لم تكونا مدرجتين في برنامج الجلسة العلمية بالكلية، وقد عملنا على ضمهما إلى تلك العروض، بعدما أبدى الأستاذان محمد اليملاحي وسي محمد أملح رغبتهما في المشاركة، وتقديم قراءتهما لذلك المتن الشعري الجراري؛ وشفعنا كل ذلك بإضافة نصين وضعتُهما تقديماً صدَّرت بهما الجزء الأول والجزء الثاني لأشعار «من ديوان عباس الجراري»، تعميماً للفائدة.

عكست قراءات النص الشعري الجراري التي ساهم بها الأساتذة الباحثون، والتي ضمّها هذا الكتاب، مستويات متعددة في التحليل، بمحدِّدات متباينة، وخلفيات قرائية

متنوعة، مستحضرة انتظارات المتلقي المتعدد. فكان الحديث عن مفهوم الشعر عند عباس الجراري كما تمظهر من خلال منجزه، ومن ثم الانصراف إلى تفكيك البناء الفني للنص الشعري في مستوياته المتعددة، وانبرت كتابة أخرى تنظر في مدى تطابق التصور النظري لمفهوم الشعر عند الجراري مع المنجز الذي تحقق بين دفتي «من ديوان عباس الجراري». وأصَّلت قراءة ثانية منطلقها باقتراح مدخل نقدي لمحاورة تلك الأشعار، مؤسَّس على مفاهيم سيكولوجية ومرجعيات أدبية أسلوبية، يتأتَّى من خلالها الكشف عن طبيعة التجربة الوجدانية التي عاشها الشاعر الجراري، وتتعمق هذه النظرة أكثر حينما تتعزز بوقفة استبطانية، تفضي إلى رصد عمق مشاعر الشاعر وصدقها.

وارتأت كتابة ثالثة النظر إلى هذا المتن الشعري من زاوية اختارت التركيز على التجربة الوجدانية للشاعر، من خلال أشعاره في زوجته «حميدة»، التي صاغها في «أشواق»؛ وتأسيساً على ذلك صُنّف العباس ضمن خانة شعراء الغزل العفيف، ودُعِّم التصنيف بإشارات تحمل مقارنات مع شعراء العربية الذين عرفوا بهذا اللون الغزلي، من عصور قديمة وحديثة، من المشرق والمغرب.

وقُدمت نظرة أخرى إلى هذا المتن الشعري، من زاوية تتبعت الموضوعات التي طرقها الجراري، مع التفات إلى أدوات التعبير التي توسل بها الشاعر، وهو العنصر الذي لمسته كل القراءات، وإن بمستويات ودرجات متباينة.

وإذا كانت جل هذه القراءات قد حاورت تلك النصوص الشعرية. بنظرة شمولية، فإن إحداها، مالت إلى اختيار موضوعة محددة، اتخذتها أُسّاً رئيساً للمقاربة، تمثلت في «المكان»، باعتباره موضوعة مهيمنة داخل المتن الشعري الجراري، ارتأى الباحث محاورتها في ارتباطها بالغربة والألفة، مستثمراً ما قدمته هذه الموضوعة من تعدد وتنوع.

ويضم هذا السِّفر إلى جانب هذه القراءات، نصين آخرين، جاء أحدهما تقديماً للجزء الأول من أشعار الجراري، بسطتُ القول فيه حول حيثيات نشر هذه الأشعار في هذه المرحلة من حياة العباس الفكرية، مدوناً في نفس الآن، بعض الإشارات الراسمة لتاريخ هذه التجربة الشعرية؛ وشفعت الأول بآخر، وضعتُه تقديماً للجزء الثاني، خصصته للحديث عن المساجلات، ودرجة ومستويات اشتغال هذا الفن الشعري خلل التجربة الجرارية.

وأنا أكتب تقديماً لهذا الكتاب، لا يفوتني أن أجدد شكري للهيئة الإدارية لجامعة ابن طفيل، والهيئة الإدارية والتربوية لكلية الآداب بها، على احتضانهم لهذا اللقاء العلمي؛ والتنويه يرفع إلى الأساتذة المشرفين على ماستر الأدب المغربي وإلى أعضاء مختبر «أرخبيل»، على جهودهم التنظيمية ومشاركتهم الفاعلة.

أما الأساتذة المشاركون بأبحاثهم، سواء الذين ينتمون إلى كلية الآداب بجامعة ابن طفيل، أم الذين ينتسبون إلى النادي الجراري، والشاعر أنس أمين المشارك في اللقاء بقصيدة جميلة، فقد لا تسعفني الكلمات للتعبير لهم عن خالص الشكر وعميق التقدير، لاستجابتهم، فبفضل ما أنجزوه - وقد صرفوا فيه جهداً وزمناً غير يسيرين - تأتَّى تنظيم ذلك اللقاء العلمي في فضاء أكاديمي سمح بتواصل معرفي أوسع، مع باحثين ومهتمين، من أساتذة وطلبة جامعيين، حقق تجاوباً كبيراً وعميقاً، بدا بشكل أكبر حينما تحدث الشاعر عباس الجراري في ختام الجلسة، فكان لحديثه - الذي استغرق زمناً غير يسير- وقع كبير في نفوس الحاضرين، عكسه التجاوب الواسع في المدرج الذي احتضن اللقاء.

وبعد، هذه قراءات من متلقين، تمت في حيز زمني معيّن، وبأعراف ثقافية وأدبية متنوعة، لكن يبدو أن النص الشعري الجراري حمّال أوجه؛ تَعَدُّد أشكاله التعبيرية وتنوع

حمولته الوجدانية والفكرية، تسمح بقراءات مغايرة، تعيد تركيب النص بتغيير موقع القراءة...

ما تزال هناك شِفَار مغلقة..... !

* * *

الرباط 10 محرم 1440 هـ

20 شتنبـــر 2018م

عباس الجراري شاعراً[1]

د. محمد احميدة(*)

عباس الجراري شاعراً ! هذا جانب لا يعرفه الكثيرون ممن يتتبعون الإنتاج الفكري والأدبي لعميد الأدب المغربي.

يعرفونه صاحب أبحاث أكاديمية في حقل الدراسات الأدبية المغربية، ودارساً باحثاً في الأدب العربي والفكر الإسلامي، عاشقاً لأدب الملحون. لكن الجراري الشاعر، بقي في الظل، لا يعرفه إلا القلة ممن جالسوه في ناديه الأدبي، أو أتيحت لهم فرصة الاستماع إلى قصيده، حينما يتوسل بالشعر في بعض المناسبات، مساجلاً أو مغازلاً أو راثياً عزيزاً....

هل يعتبر الأمر غريبا أن يلج عباس الجراري بيت الشعراء ؟

كيف يكون كذلك، والمتتبعون للحركة الثقافية في المغرب، والباحثون في أدبنا المغربي داخل جامعاتنا، يعرفون مصاحبة الأستاذ الجراري الطويلة، للشعر العربي في المشرق والمغرب، قديمه وحديثه، معربه وملحونه، قارئاً ودارساً ومشرفاً مؤطراً للعديد من الرسائل والأطاريح الجامعية، التي اتخذت من الشعر العربي، حقلا للدراسة والبحث.

هذا الاهتمام بالشعر، سيشكل في حقيقة الأمر، أرضية ملائمة، تسعف الجراري على نظم القريض. وما كان لتسعفه العبارة الشعرية، لولا وجود ذلك الاستعداد الفطري الذي يسمح بانبثاق الرغبة في التعبير شعراً عما لا يستطيع المنثور من الكلام استيعابه.

---

(1) نشر هذا النص تقديما للجزء الأول لأشعار الدكتور عباس الجراري التي صدرت بعنوان «من ديوان عباس الجراري» وظهرت طبعته الأولى سنة 2017.

(*) أستاذ جامعي بكلية الآداب، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، تقاعد سنة 2013.

قد يقول قائل: إننا نتابع أبحاث وكتابات عباس الجراري منذ ما يقرب من نصف قرن، فما عرفناه شاعراً ؟ قد يكون الأمر طارئاً، ولم تتفتق شاعريته إلا في مرحلة متأخرة ؟

ليس الأمر كذلك، فبالعودة إلى سنوات الستين من القرن العشرين، سنجد أن عباس الجراري قد نشر قصيدة في مجلة «دعوة الحق» بعنوان «أصحيح مات حبّي ؟»[1].

قد يعترض معترض بالقول: وماذا بعد قصيدة «أصحيح مات حبّي ؟» لا يعرف المتتبع أي كتابة شعرية للجراري بعد هذا التاريخ !

لم يكن الأستاذ عباس الجراري يرغب في الاصطفاف مع الشعراء وكفأ، تواضعاً، مُنْبَرياً بالأساس إلى البحث الأكاديمي في المجالات المشار إليها سابقاً. هذا الانكفاء نجد الإشارة إليه في إحدى قصائده مساجلا الشاعر مصطفى الشليح حيث قال[2]:

وَأَنْتَ يَا شَاعِرَ السَّلْوَانِ هَلْ تَدْرِي ... بِأَنَّ صَوْغَكَ لِلإِبْدَاعِ لِي يُغْرِي

قَدْ حَرَّكَ الشَّجْو إِذْ جَاشَتْ خَوَاطِرُهُ ... جَرْياً عَلَى عَادَتِي بِٱلهَمْسِ أَوْ جَهْرِ

يَأْتِينِي طَوْعاً فَلاَ أَعْنُو لَهُ نَصَباً ... بِالرِّفْقِ مُنْتَظِماً يَسْمُو بِلاَ فَخْرِ

وَلَمْ أَكُنْ أَبَداً بِالشِّعْرِ مُحْتَفِلاً ... وَلاَ قَصَدْتُ بِهِ لِخَمْرٍ أَوْ بِكْرِ

وَلاَ سَعَيْتُ بِهِ أَرْجُو ٱلوُصُولَ وَلاَ ... أَحْتَاجُهُ إِذْ أَرَى قَدْ حَظَّنِي قَدَرِي

لم يكن الشاعر الجراري محتفلا بالقول الشعري، ولم يتخذه مطية لتحقيق مآرب، ولكن في نفس الآن لا يخفي أن الدفق الشعري «يأتيه طوعاً» و«لا يعنو له نصَبا». إذاً،

(1) كان لهذه القصيدة، بعد نشرها، صدى في الساحة الأدبية المغربية، حيث كتب الشاعر المغربي أحمد بن مسعود الهدري – وهو صديق للجراري من مدينة الصويرة – قصيدة بنفس عنوان القصيدة الجرارية « أصحيح مات حيٌّ»، نشرت في مجلة «دعوة الحق»، ع، يناير 1963، ومهد لها بكلمة، مما جاء فيها: « صديقي الأستاذ عباس الجراري، لقد بعثت في نفسي، كلماتك الساحرة، أحلام ماض جميل، مازلت أتمثله رغم طول المدى وبعد المزار..... فإليك صديقي تحية كريمة، من حليف شوق في الصويرة، إلى حليف هوى عنيف في القاهرة ».

(2) انظر المساجلة كاملة في كتاب « من تاريخ الأندية الأدبية في المغرب: النادي الجراري بالرباط لمؤسسه العلامة عبد الله الجراري»، محمد احميدة، صص، 192 -198، منشورات النادي الجراري رقم 28، ط، 1، 2004.

إذا كان النظم طوع يمينه، فالراجح أن كتابته على مدى عقود، تشكل ديواناً كبيراً. من يعرف للأستاذ عباس الجراري ديواناً شعرياً ؟

لنقم بإطلالة على موقعه الإلكتروني www.AbbesJirari.com، هنا نجد صفحة دونت فيها كتابات الأستاذ عباس الجراري التي ما تزال مخطوطة، ومن بينها: ديوان «مع حبّي ورضاي» ويضم الأشعار التي وجهها لأولاده، وعنوان آخر هو «أشواق» ويضم رسائل الكاتب وأشعاره إلى زوجته. وإلى جانب هذه الأشعار هناك قصائد ومقطعات أخرى – لا تتم الإشارة إليها - تشكل بدورها ديواناً مستقلا، يتمثل في نصوص إخوانية وأخرى ساجل من خلالها بعض أصدقائه، وهذه الأشعار تمثل قدراً غير يسير من إنتاج الشاعر.

يبدو الآن واضحاً، أن غياب الإنتاج الشعري لعميد الأدب المغربي، ناتج عن عدم قيام الشاعر الجراري بنشر دواوينه.

وفي هذا السياق لابد من الإشارة إلى انه في العديد من المناسبات التي كان الجراري ينشد فيها أشعاره، وبعضها كان يتم في مجالسه الأدبية التي تنعقد كل يوم جمعة، كان بعض جلاسه من الأدباء، يحثه على نشر هذه الأشعار، غير أن الأمر لم يتحقق.

وتأتي سنة 2016 وبالضبط في شهر يونيو، ليخبرني أستاذي عباس الجراري بعزمه على نشر أشعاره. كيف تم اتخاذ هذا القرار ؟ وما الذي جد ليتحفز الشاعر لإظهار إنتاجه الشعري وطبعه ليضعه بين أيدي الدارسين والباحثين المهتمين بالشعر المغربي.

في جلسة خاصة مع أستاذنا، علمت أن الأستاذة حميدة الصايغ الجراري، حرم الدكتور عباس، كانت وراء هذا القرار. فطالما ألحت على إخراج بعض كتابات العميد التي كانت مؤجلة، منها الكلمات التقديمية التي كتبها للعديد من الرسائل والأطاريح الجامعية وبعض الدراسات والدواوين، حيث انبرت الأستاذة حميدة الصايغ إلى جمع بعضها في

كتاب حمل عنوان «كلمات تقديم»[1] صدرت منه خمسة أجزاء، ووضعت لكل جزء تقديما. وبنفس الحرص سبق للأستاذة حميدة أن عملت على جمع الدروس الحسنية مع وضع تقديم لها[2].

امتد هذا الحرص إلى أشعار عباس الجراري، خاصة وأن رفيقة دربه على اطلاع كامل بما كان يكتبه الشاعر، فكان إلحاحها يزداد مع مرور الزمن لإخراج هذا الإنتاج الشعري من منطقة الظل، ليوضع بين أيدي الباحثين والمهتمين بأدبنا المغربي، وللكشف عن جانب من اهتمامات الجراري الأدبية، ظل مغمورا.

ولما كنت مهتماً بالتأريخ للنادي الجراري[3]، ومن الذين واظبوا على حضور مجالسه الأدبية على امتداد ثلاثة وثلاثين عاما، فقد أتاحت مجالسة عميد الأدب المغربي، التعرف عن بعض إنتاجه الشعري، مما كان ينشده في هذا المجلس الأدبي، بين الحين والآخر، إلى جانب ما ألقاه في بعض المناسبات خارجه، بالإضافة إلى ما مدّني به أستاذي - مشكورا - حينما كنت بصدد إنجاز كتابي « شعراء النادي الجراري: الشاعر والنص»؛ حتى إذا بادر المركز الأكاديمي للثقافة والدراسات المغاربية والشرق أوسطية والخليجية (كرسي الأدب المغربي)، بكلية الآداب، ظهر المهراز، فاس، إلى إعداد كتاب علمي تكريمي احتفاء بمناسبة الذكرى الثمانين لميلاد عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري[4]، بدا لي أن المناسبة

(1) صدر ضمن منشورات النادي الجراري، حمل الجزء الأول رقم 34، ونشر سنة 2006 وحمل الجزء الخامس رقم 70 ونشر سنة 2016، وضم هذا الجزء إلى جانب تقديم الأستاذة حميدة الصايغ، تصديراً للأستاذ محمد اليملاحي، عبارة عن دراسة تحليلية للتقديمات.

(2) دروس حسنية، عباس الجراري، جمع وتقديم حميدة الصايغ الجراري، منشورات النادي الجراري، رقم 64، ط، 1، 2015.

(3) كتبت عن النادي الجراري ثلاثة مصنفات: من تاريخ الأندية الأدبية في المغرب: النادي الجراري لمؤسسه عبد الله الجراري، صدر ضمن منشورات النادي الجراري تحت عدد 28، طبع سنة 2004، وحركية النادي الجراري خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، صدر ضمن نفس المنشورات تحت عدد 41، طبع سنة 2008، ثم كتاب « شعراء النادي الجراري: الشاعر والنص» صدر ضمن منشورات النادي الجراري تحت عدد 66، طبع سنة 2015.

(4) صدر هذا الكتاب تحت عنوان «جهود الأستاذ الدكتور عباس الجراري في إثراء التنمية الثقافية المستديمة»، تنسيق الدكتور عبد الله بنصر العلوي، 2017.

سانحة للالتفات إلى هذا الجانب من الكتابة الجرارية، نلقي عليها بعض الضوء، ونكشف عن جانب لا يعرفه الكثيرون عن مفكر وأكاديمي أصيل، أغنت دراساته وأعماله الفكرية الساحة المغربية والعربية الإسلامية، ثم ارتأيت أن يكون تقديماً لهذه المقتطفات»[1].

للكتابة في هذا الموضوع، لابد من توفر المادة الشعرية التي تشكل المتن الذي سيتم الاشتغال به. أطلعت الأستاذ عباس الجراري على رغبتي في الكتابة في هذا المجال، رحَّب ووعدني بمدِّي بالمطلوب، لكن طموحي ازداد بعد هذا التجاوب، لتمتد هذه الرغبة إلى إخراج ديوان عباس الجراري[2]، وكنت أسعى من وراء ذلك إلى تحقيق أمنية الأستاذة حميدة الصايغ الجراري، حرم العميد التي طالما عبرت عنها وألحت في طلب تحقيقها، ثم إخراج هذا الديوان ليوضع بين أيدي الباحثين والدارسين المهتمين، ذلك أن تناول شعر الجراري - حينما يصدر ضمن ديوان - يسمح بإلقاء الضوء على جانب مغمور، تسعف دراسته في استكمال ملامح الشخصية الأدبية والفكرية لعميد الأدب المغربي؛ خاصة وأن شعره يتيح للدارس مداخل متعددة لتناوله وبمناهج متباينة.

بين يدي الآن مجموع شعري للأستاذ عباس الجراري، يقترح له صاحبه أحد العنوانين:

الأول: «مقتطفات من ديوان شعر عباس الجراري».

الثاني: شعر عباس الجراري: مقتطفات من دواوينه:

وفي الأخير ارتأى الشاعر أن يخرج شعره مُنجَّماً، يضم الجزء الأول مقتطفات من أشعاره التي قالها في زوجته «حميدة » وضعها تحت عنوان «أشواق»، ثم مقتطفات من أشعاره إلى أولاده وسم أضمومتها بـ«مع حُبّي ورضاي» ليختم هذا الجزء بمقتطفات من إخوانياته، ويفرد بعد ذلك جزءاً ثانياً خصصه للمساجلات التي دارت بينه وبين بعض الشعراء.

(1) نشرت هذه الكتابة ضمن الكتاب التكريمي تحت عنوان « عباس الجراري شاعراً » بتعديل طفيف.

(2) اختار الشاعر عباس الجراري عنوان «من ديوان عباس الجراري» مما يفيد انه لا يمثل سوى جزء مما قصَّدَه.

وأول ملاحظة يمكن تسجيلها على هذا المجموع الشعري الذي نضعه بين أيدي الباحثين والمهتمين، هي أنه لا يشكل سوى جزء من أشعار الجراري، وليست أعماله الشعرية برمتها، وبالتالي فإن ما يمكن أن يخلص إليه الباحث من نتائج لن تكون سوى استنتاجات جزئية وأولية.

ورغم أن هذا المجموع لا يضم كل أشعار الجراري، فإنه يدل على أن الكتابة الشعرية لم تكن غائبة عن اهتمامات عميد الأدب المغربي منذ البدايات وأنه كان يفسح لأحاسيسه وعواطفه ليأخذ التعبير عنها قالبا شعريا، كما أن النظر إلى المدى الزمني الذي تتحرك فيه أشعار الشاعر، تدل على أن عباس الجراري قد تفتقت قريحته الشعرية منذ زمن بعيد، فما بأيدينا يسجل نشاطاً شعرياً يمتد على مدى نصف قرن ونيف. وهنا يطرح سؤال: هل كانت قصيدة «أصحيح مات حبّي» التي نشرها الشاعر في مجلة دعوة الحق في دجنبر 1962 هي أول ما قصَّده ؟

لا أعتقد أن الأمر كذلك، بل يبدو أن الجراري تمرس بالكتابة الشعرية قبل هذا التاريخ، وأن النص المنشور يشكل مرحلة متقدمة في الممارسة الشعرية، خاصة وأنّ هذه القصيدة، كتبت خارج النمط الخليلي المألوف[1].

وسيتأكد هذا الأمر حينما أخبرني الشاعر - في جلسة خاصة - أنه كتب محاولاته الشعرية الأولى، وهو ما يزال تلميذاً في ثانوية مولاي يوسف بمدينة الرباط، وكان والده العلامة عبد الله الجراري رحمه الله، يتعهد تجربة التلميذ ويراجعها، وهي كما وصفها الشاعر «كتابة ذات طابع مدرسي»، من ثم فإنه لا يعدها إنتاجاً شعرياً يستحق النشر.

وأطلعني الأستاذ عباس الجراري على أمر آخر، يثبت ممارسته لكتابة الشعر قبل سنوات الستين، ففي منتصف سنوات الخمسين، رحل إلى مصر لاستكمال دراسته، وكان ذلك صيف سنة 1956، وصادف وصوله إلى بلاد الكنانة، العدوان الثلاثي على مصر. كان لهذا الحدث وقعه في نفس الشاعر، وخاصة ما حدث في «بور سعيد»، ليتجلى تفاعله

(1) يمكن الاطلاع على هذا النص في مجلة دعوة الحق، في العدد المشار إليه، وفي كتاب «شعراء النادي الجراري: الشاعر والنص»، ص، 118.

مع هذه الأحداث في أشعار دون من خلالها هذه التجربة. وحينما سألت الشاعر: أين هذه الأشعار ؟ جاء جوابه حاسماً: « لقد تعمدت حجبها» !

لماذا تحجب أشعار تسجل تجاوب شاعر مغربي مع دولة عربية شقيقة، تعرضت لعدوان غاشم، ولم يمر على ثورتها سوى أربع سنوات؟ أشعار تجسد ما تغنى به الشاعر العربي قائلا[1]:

بـلاد العُـرب أوطـاني مـن الشـام لبغـدان
ومـن نجـد إلى يَمَـنٍ إلـى مـصـر فتطـوان

يتضح مما سبق أن تاريخ كتابة الشعر عند الجراري يعود إلى فترة سابقة بكثير على تاريخ نشر قصيدته «أصحيح مات حبّي»، بل إن المجموع الشعري الذي بين أيدينا يتضمن بدوره ما كتب قبل 1962 تاريخ نشر القصيدة المشار إليها، وبتحديد أدق فإن أقدم نص ضمن هذا المجموع هو قصيدة « هجران» التي كُتبت في القاهرة بتاريخ 19 أكتوبر 1960 وتمثل – مع نصوص أخرى- نماذج للمرحلة المبكرة في الممارسة الشعرية، والجراري عهدئذ، ما يزال طالباً في كلية الآداب بجامعة القاهرة، لم يتجاوز عمره الثالثة والعشرين. وجاءت قصيدة «هجران محملة بمشاعر الحب تجاه حميدة»[2] التي كانت يومئذ هي الأخرى طالبة بجامعة القاهرة، فخاطبها الشاعر بقوله[3]:

دَعِيني حَمِيدَتِي مِن ذا الضيـاءْ ضِيَـاءٍ أَنَـارَ بِأَمسِـي البَسـيمْ
دعيـني فَنَفْسِـي بِهَـا ظُلْمَةٌ وَقَلْبِي وَرُوحِي أَحبا الظَّلاَمْ

***

(1) هذا النشيد للشاعر السوري فخري البارودي، (ت 1966).

(2) حرم الدكتور عباس الجراري.

(3) «أشواق»، عباس الجراري، نسخة مخطوطة، الخزانة العباسية، الرباط.

دَعِيـنِي فَـفِي رَأْسِـنَا ذِكْرَيَاتٌ عـن الحُـبِّ في الرَّجْع مثل الأَنِينْ
لَعَـــــــــلَّ تَذَكُّرَهَـا خَلْـوَةً يُنَفِّـسُ عَمَّـا بِقَلْـبِي دَفِـينْ

***

إلى أن يقول:

أَهَـذَا إِذَنْ حُبُّنَـا، خَـبِّرِي أَهَـذَا ٱلذِي فَاقَ حَـرَّ اللَّهِيبْ
أَهَـذَا الـذي قَـدْ لَغَـوْنَا بِـهِ أَهَـذَا الـذي دَكَّ أُفْقـاً رَهِيـبْ
أَهَـذَا الـذي قَـدْ مَـدَدْتُ لَهُ يَـدَيَّ وَوَطَّـدْتُ فِيـهِ غَـدِي
أَهَـذَا الـذي قَـدْ نَـثَرْتُ لَهُ زُهُـوراً بِقَلْـبِي وَقُلْـتُ: ٱشْهَدِي

أما أحدث نص في المجموع المشار إليه فقد كتب بتاريخ 16 أبريل 2016، ويمثل نموذجاً من شعر المساجلات، وقد أنشأه الشاعر مساجلاً مصطفى طوبي[1] الذي أهداه ديوانه الموسوم بـ«مسافات لبلوغ الفجر»[2]، تضمن قصيدة ميمية موجهة للجراري بعنوان «معلقة القدس»، مطلعها:

الشِّـعْرُ فَاضَ عَلَى ٱلوِجْدَانِ مُحْتَشِـمَا وَٱلبَدْرُ هَلَّ عَلَى الأَشْرَافِ مُبْتَسِـمَا

ويبدو جلياً، أن مصاحبة عباس الجراري للقريض إبداعاً، امتدت على مدى زمني غير قصير. لكن تأمل المجموع الشعري الذي حصلنا عليه، يستدعي الملاحظة التالية:

إن الفترة الزمنية التي تمتد ما بين سنوات الستين من القرن العشرين والعقدين الأولين من القرن الحادي والعشرين، والتي تؤطر الإنتاج الشعري الذي وقفنا عليه، لا

(1) أستاذ جامعي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أگادير، والنص المشار إليه مدرج في قسم المساجلات.

(2) طبع سنة 2015.

تشكل سلسلة متماسكة من البداية إلى النهاية، تسهم في رسم خط واضح للتطور الشعري عند عباس الجراري. فعبر هذا الامتداد الزمني، هناك فراغات وثغرات تمتد أحياناً لتغطي سنوات عديدة. فهل يمكن القول إن الشاعر الجراري لم يكن مواظباً على كتابة الشعر، وأن هذه الكتابة كانت تدخل بين الحين والآخر مرحلة كمون؟

يصعب الجزم بهذا الأمر، مع غياب المتن الكامل لشعر الشاعر. وأميل إلى القول أن ما مدّني به الأستاذ عباس الجراري من أشعاره، لا يعدو أن يكون بعض ما كتبه، يدفعني إلى هذا الترجيح دليل مادي يفصح عنه العنوان الذي يقترحه لديوانه وهو من ديوان عباس الجراري، مقتطفات من «أشواق»، «مع حبي ورضاي»، و«الإخوانيات والمساجلات» حيث كلمتا «من ديوان» و«مقتطفات» توحيان بالتبعيض والانتقاء، ودليل آخر يتمثل في تلك الفراغات التي تستوقف قارىء هذا المجموع الشعري، وهي ثغرات تتخلل مسيرة الشاعر، وتتسع في الزمان لتغطي عقدين من الزمن، رسمت بياضاً فسيحاً في مساحة التجربة الشعرية الجرارية. فهل يمكن الاستناد إلى غياب نصوص عبر فترة زمنية، للقطع بتوقف الشاعر عن كتابة القريض ؟

يخامرني شك كبير في هذا الأمر، والراجح عندي أنه قد تم حجب بعض أشعار الجراري عن مجال التداول، لأسباب لا تسعف المعطيات المتوفرة لدي في التعرف عليها. وبعد جلسة خاصة مع الشاعر حول هذا الموضوع، أخبرني خلالها بتوقفه عن كتابة الشعر في فترة معينة. وحينما سألته: متى كان ذلك ؟ قال: لقد كان انكبابي على البحث الجامعي وإعدادي رسالة الماجستير وأطروحة الدكتوراه قد أخذ مني الكثير، وتركز كل اهتمامي على البحث، ومن ثم الانصراف عن الشعر، ثم استمر هذا التوقف حينما أسندت إلى الشاعر عدة مهام سامية تتطلب التفرغ لها بشكل كامل.

لذا سيكون حديثي عن عباس الجراري الشاعر، مستنداً إلى ما توافر من أشعاره، بل ستكون هذه الكتابة، تقريباً لهذا المتن إلى القاريء، وهي إلى الوصف أقرب منها إلى الدراسة.

وارتكازاً على أن ما بيدي من شعر الجراري هو مقتطفات من دواوينه الثلاثة: «أشواق» و«مع حبّي ورضاي» وديوان «الإخوانيات والمساجلات»، يمكن بسط ملامح من التجربة الشعرية لعباس الجراري ليس غير، وهي تجربة تضيء جانباً آخر من اهتمامات هذا المفكر الأصيل.

فديوان «أشواق» خصصه الشاعر الجراري برمته لزوجته «حميدة»، فما قصَّد في سواها، مما يدل على عمق العلاقة العاطفية التي جمعت بين الشاعر وزوجته، فقد محضها الحب كله، ولها وحدها وهذا الوفاء الكبير نجد التعبير عنه طي بعض قصائده على غرار ما نقرأ في قصيدته الرائية[1]:

إِنِّي خَصَصْتُهَا بِالهَوَى وَمَحَضْتُهُ صِرْفاً لَهَا وَحَدِيثُ الحُبِّ أَخْبَارُ
إِنِّي أَرَاهُ كَحُرْمَةٍ مَحْفُوظَةٍ وَمَصُونَةٍ، لاَ قَاطِعٌ غَدَّارُ

ويلفت النظر في «أشواق» استمرارية التعبير الشعري عن هذه العلاقة الحميمية على مدى عقود من الزمن، وكأن هذا الحب الذي جمع بين عباس وحميدة، يتجدد أواره مع مرور الزمن، قال يخاطب «حميدة» في ذكرى زواجهما[2]:

ذِكْرَى ٱلْقِرَانِ قِرَانِ يَسْتَجِدُّ بِهِ عِشْقُ الصَّبَابَةِ جَذْوَاتٌ تُغَذِّيهِ
عَهْدٌ عَلَى مُدَدِ الزَّمَانِ مُوثَّقٌ وَاللهُ يَشْهَدُ أَنَّا لاَ نُجَافِيهِ

ومع مر تلك العقود على هذه الرابطة النبيلة، قد يخيم الشك حينا على استمرارية هذا الحب بنفس الدرجة والحرارة، فتسأل «حميدة»، ويجيب العباس الشاعر[3]:

(1) «أشواق»، مخطوط في الخزانة العباسية.
(2) نفسه.
(3) نفسه.

فَأَجَبْتُهَـا وَٱلْبِـشْرُ يَخْفِـقُ بَاسِماً: لاَ تَجْزَعِي هُو فِي الشَّـغَافِ وَلَمْ يَزُلْ
بَـلْ هُـو عِنْـدَكِ قَـدْ أَقَـامَ وَإِنَّـهُ فِي ٱلْقَلْـبِ مِنَّـا لاَ يُغَـادِرُهُ ٱلأَمَـلْ
لاَ تَعْجَبِي مِنْ ذِي السِّـنِينَ يَعِيشُهَا وَالسَّـعْدُ يَمْلأُهَـا تُغَذِّيـهِ الشُّـعَلْ
فِي جَـذْوَةٍ لاَ تَنْطَـفِي وَلَهِيبُهَـا أَبَـداً يَزِيـدُ بِـلاَ كَلاَلٍ أَوْ مَلَـلْ

ولم يقتصر التعبير عن العلاقة العاطفية النبيلة التي تجمع الشاعر بزوجته «حميدة»، على القول وفق النمط الخليلي في التعبير الشعري، بل انزاح إلى إظهار مشاعره تجاه «حميدة» على إيقاع الشعر التفعيلي كما دون ذلك في قصيده الذي حمل عنوان «حميدتي» قال[1]:

وَجَاءَ العِيدُ. .. عِيدُكِ. .. عِيدُ مِيلاَدِ حُبّنا الكَبِير
وَمَعه حلَّ عِيدٌ آخَر. .. تَوَّجَ الشَّهْرَ الأَبَرَك
طَرَقَ البابَ هَذا العِيدُ وَذَاك
فَلَم يُجِب غَيْر دَمْع مُزْمِن حَزِين
لَقَدْ غَامَتِ السَّماء. .. وَلَمْ تُشْرِق الشَّمْس
وَبَدَا وَجْهُ الحَيَاةِ شَاحِباً لاَ نَضْرَةَ فِيه وَلاَ بَهَاء
وغَدا المِنْظَارُ لاَ يَكْشِفُ غَيْرَ القَتَامَةِ والكَآبةِ والظُّلْمَة
مَاءُ ٱلْعَيْنِ لاَ يَجِف وَلَهِيبُ الصَّدْرِ يَحْرِق
مَا أَحَرَّ الشَّوْقَ إِلى نَبْعِ ٱلْحُبِّ الصَّافِي يَسْقِي سُلاَفَ ٱلْحَيَاة
لَتَنْبَعِثَ الرُّوح
وَيَبْسِمَ ٱلْكَوْن

(1) نفسه.

وَيُشْرِقَ ٱلنُّور

وَيَسْعَدَ القَلْبَان

فِي ظِلّ حُبّك

وَفَيْءِ أَمْنِك

وَسَعَةِ صَدْرِك

وَصَدْحِ لَحْنِك

وَرَوْضِهِ ذِكْرَيَاتِك

وَشُعَاعِ ٱلأُفْقِ البَعِيدِ. .. أَسِيرُ نَحْوَهُ مَعَك.

هذا التنويع في أساليب التعبير، تجسيد لعمق مشاعر الجراري، وإظهار لحبّه الراسخ لزوجته «حميدة»؛ من ثم راح يغني هذا الحب، بنمط تعبيري يحتل في وجدانه مكانة لا تسامى، فصاغ مشاعره في قالب زجلي رفيع، حين بدا له أن الملحون من القول، يكون أحياناً أبلغ في الإبانة، مما لا يستطيع المُعْرب منه إليها سبيلا؛ خاصة وأننا نعلم شفوف الشاعر في هذا المجال، وتذوقه الرفيع لشعر الملحون، دون أن ننسى أن رفيقة دربه «حميدة» عاشقة بدورها لهذا الفن من القول، وقد يتسلل إلى وجدانها «لَكْلامْ»[1] العباسي بيسر أكبر وبتأثير أقوى، فخصها الشاعر بهذا البوح وقال[2]:

انـتِ حُبي وحْياتي وثْرِيَّةْ دَارِي

وضيْ عِيـني وكْال زينْ لَبْهـا الْوَاري

واللّي افْنِيت فيها عمْري ابْعَشْـقِي وَاشْعَاري

(1) «لَكْلامْ»، من المصطلحات التي تطلق على فن الزجل. انظر كتاب الزجل في المغرب: القصيدة، عباس الجراري، ص،58.

(2) «أشواق».

لُوصَافَـكْ رانِي مَملُـوك اوْكَادْيَا اجْماري

واحْمَـدت ربّي افْكُل حِين فَـذْكارِي

بَاللّي اكْرمْني ابْدُرَّةْ لَبْكارْ دارةْ لَقْمَارِ

لِكْ نَتمنَّى عيدْ اسْعيد ابعْزَف اوْتاري

اوْ مـا غَنَّتْ عَـلْ لَـدْواحْ سَـايَر لَطْيَارِ

نَدْعِي لِكْ بـالصحَّا واوْزَالْ لَكْـدارِ

وِيـدُوم حُبْنـا زَاهِي يـانَـعْ لَزْهـارِ

هكذا يقدم «أشواق» للشاعر عباس الجراري نموذجاً لتجربة وجدانية متميزة، خصص لها ديواناً كاملاً، فكانت أشعار «أشواق» برمتها متعلقة بامرأة واحدة ووحيدة هي «حميدة» زوجة الشاعر، وقليل أولئك الشعراء الذين نحوا هذا المنحى في الكتابة عن زوجاتهم شعراً، مع استمرارية هذا الحضور الشعري وامتداد التجربة إلى عقود من الزمن.

وإلى جانب هذه الأشواق التي صاغها الجراري شعراً لزوجته «حميدة»، نجد كتابته الشعرية تمتد إلى مجال آخر يرتبط بأبنائه، وهو الأمر الذي تمثله أشعاره التي جمعها ضمن ديوان «مع حبّي ورضاي» وهو كسابقه، ما يزال مخطوطاً في الخزانة العباسية.

ويبدو أن ما أمدني به الشاعر من نصوص، لا يمثل سوى جزء من الديوان الكامل، ويظهر هذا الأمر من خلال العنوان الذي يشير إلى أن هذه النصوص التي بين أيدينا، لا تعدو أن تكون سوى مقتطفات من ديوان «مع حبّي ورضاي».

ويلاحظ، أن «ألوف» كبرى بناته، قد حظيت بالعدد الأوفر من هذا الشعر. فقد كانت الأولى ممن غادر الوطن من أبنائه لإكمال الدراسة[1].

لقد كان سفر الأبناء لاستكمال دراستهم، حافزاً للشاعر لمخاطبتهم قصيداً، وهو قصيد جاء محملا بمشاعر الأبوة الصادقة، مشاعر الألم من فراق الأبناء وبُعدهم عن الديار، والرغبة في فسح المجال لهم للتزود بالمعرفة والارتقاء إلى الدرجات العلمية العليا. وللتغلب على ألم البعد والفراق، توسل الأب بالكلمة الشعرية لنسج روابط التواصل مع أبنائه، فكان يغتنم بعض المناسبات ليخط مشاعره قريضاً، ويغبُر المسافات عبر بحور الشعر، كأن تكون المناسبة إخباراً بنجاح، أو ذكرى ميلاد، إلى غير ذلك، على غرار ما نجده في قصيدته الدالية التي خاطب من خلالها ابنته «أَلوف»، وهي تحتفل بذكرى عيد ميلادها بديار الغربة، قال[2]:

هـل سُـلُوٌّ وَفِي جُفُـونِيَ سُهْـدُ ... ولَهِيـبُ ٱلْغِيَابِ فِي ٱلْقَلْبِ وَقْدُ

خمسـة[3] قَـدْ مَضَـتْ وَفِي كُلِّ عَامٍ ... مِـرْ بِعَـادِ ٱلْحَبِيـبِ هَـوْلٌ أَشَـدُّ

إِنَّ ذِكْـرَاكِ يَا أَلُـوفُ أَضَاءَتْ ... مِثْـلَ شَمْسِ الضُّحَى إِذَا هِيَ تَبْدُو

بَلْ هِيَ الشَّمْسُ أَنْتِ فِيهَا شُعَاعٌ ... دَائِـمٌ وَالسِّـنُون تَمشِـي وتَغْـدُو

زَهْـرَةٌ أَنْـتِ لِلْحَيَـاةِ وعِطْـرٌ ... دُونَـهُ الطَّيِّبَـانِ نَـدٌّ وَوَرْدُ

(1) كان ذلك في الولايات المتحدة الأمريكية، بجامعة بنسلڤانيا. والتحقت «عُلا» بجامعة «لافال» بكندا، وكانت بصدد تهييء الدكتوراه في مجال التجارة والتسيير، قبل أن يختارها الله إلى جواره يوم 24 يناير 1993 وهي في ديار الغربة، ونقل جثمانها إلى المغرب ليوارى بمقبرة الشهداء بالرباط يوم 27 يناير 1993. تغمدها الله بواسع رحمته. أما محمد ابن الشاعر فقد تابع دراسته بجامعة «إدينبورو» بولاية «بنسلفانيا»، ثم في جامعة «لامار» بولاية «تكساس»، فجامعة «كِنت» بولاية «أوهايو». وفي أواخر سنوات التسعين التحقت «ريم» بجامعة «بوسطن» لمتابعة الدراسة في مجال «التواصل».

(2) «مع حبِّي ورضاي»، عباس الجراري، مخطوط بالخزانة العباسية.

(3) إشارة إلى أن غياب «ألوف» عن المغرب للدراسة في الولايات المتحدة دام خمس سنوات.

حُلْمُنَا أَنْتِ فِي هَنَاءٍ وقُرْبٍ هَلْ لِهَذَا ٱلْغِيَابِ وَقْفٌ وحَدُّ ؟
مَطْلَبُ ٱلْعِلْمِ أَنْتِ فيه مِثَالٌ وَكَذَا ٱلْحَزْمُ والتُّقَى ثُمَّ جِدُّ
إِنْ تَكُنْ غُرْبَةُ ٱلتَّعلُّمِ طَالَتْ مُرُّهَا فِي ٱلْقَرِيبِ حُلْوٌ وشَهْدُ

وبنفس الإحساس خاطب ابنته «عُلا». ذلك ما تنطق به تلك الأبيات التي وجهها إليها، حينما كانت تتابع دراستها في المعهد العالي للتجارة وإدارة المقاولات ISCAE بالدار البيضاء. ورغم أن المسافة الجغرافية بين الشاعر وابنته لم تكن كبيرة، إلاَّ أنها من الناحية النفسية، تقاس بالأميال العديدة. هذا الغياب والبعد عن الدار، يضغط على أحاسيس الأب الشاعر، ليجد لها متنفساً في القول الشعري، فيخاطب «عُلا» بمقطوعة عنوانها «عُلا ابنتي» قال[1]:

عُلاَيَ مِنْ ٱلدُّنْيَا وَمَا طَلَعَتْ بِهِ وَمَا زَانَ كُلَّ ٱلْعَالَمِينَ هِيَ ٱلأَبْهَى
وَمِنْ كُلِّ شَمْسٍ قَدْ تَبَدَّى جَمَالها وَمِنْ كُلِّ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ هِيَ ٱلأَعْلَى
وَمِنْ كُلِّ مَا رَأَتِ ٱلْعُيُونُ وَمَا ٱنْجَلَى وَمَا هُو خَافٍ قَدْ يُرَادُ هِيَ ٱلأَغْلَى
فَمِنْ حُسْنِهَا قَدْ فُرِّقَ ٱلْحُسْنُ فِي ٱلْوَرَى وَفِي مَوْكِبِ ٱلإِشْرَاقِ دَوْماً هِيَ ٱلأَسْنَى
أَنِسْتُ بِهَا فِي ٱلْقُرْبِ تَرْتَعُ ثَارَةً وَأُخْرَى عَلَى كُثْبِ ٱلْمَعَارِفِ لاَ تَسْلَى
فَكَيْفَ أُرَى أَسْلُو عُلاَيَ وَقَدْ نَأَتْ وَفِي «الإِسْكَأُو»[2] أَضْحَى لَهَا هَدَفٌ أَسْمَى
يُطَاوِعُهَا قَلْبِي وَيَكْتُمُ حُبَّهُ عَسَى عَوْدَةٌ بِٱلنُّجْحِ تُوتِي ٱلَّذِي أَحْلَى
فَتَعْلُو عَلَى ٱلْعَلْيَا وَكُلِّ عَلِيَّةٍ وَأَعْلُو بِهَا زَهْواً عَلَى ٱلذِّرْوَةِ العُلْيَا

ولما رحلت «ريم» صغرى بناته إلى الولايات المتحدة الأمريكية لمتابعة دراستها في

(1) «مع حُبِّي ورضاي».

(2) الإسْكَأُو، ISCAE، المعهد العالي للتجارة وإدارة المقاولات، الدار البيضاء (المغرب).

جامعة بوسطن، واجه لوعة الفراق بالكلمة الشعرية، واتخذ من القصيد أداة لإفراغ الضغط النفسي الناتج عن هذا الفراق، فقال مخاطباً «ريم»[1]:

قَالُوا الفراقُ شِفَاءه يَتَأَكَّدُ وَالصَّبُّ يَنْسى وَالجراحُ تُضَمَّدُ
فَأَجَبتُهُمْ هَذِي مَقَالَةُ مَن سَلاَ مَن لم يُجَرِّبْ حَالَهُ تتجدَّدُ
سَلْني أُنَبِّئْكَ الحقيقةَ واثقاً أَنَّ ٱلهَوَى فِي ٱلقَلْبِ دَوْماً سَيِّدُ
يا ريمُ حُبُّكِ في الحَشَا لاَ يَنْطَفِي والشَّوقُ بادٍ في الجَوى يَتَوَقَّدُ

هكذا يغدو التواصل الشعري بين الجراري وأبنائه وسيلة لاستمرارية العلاقة الأبوية المحملة بمشاعر الحنان والرعاية والتوجيه، مما يخلق ذلك التوازن النفسي المطلوب للأبناء في غربتهم، خاصة عندما تكون النشأة الأولى داخل الأسرة مؤسسة على الرعاية الدقيقة والاحتضان الكامل، القائم على المتابعة اللصيقة بالطفل في مراحل نموه المختلفة. ومن ثم يتولد هذا الضغط النفسي الذي أشار إليه الشاعر، حينما يبتعد عنه أحد أبنائه لإتمام دراسته، فتتولد لدى الأب الشاعر جملة من التساؤلات كما صيغت في قوله: «فكيف أُرى أسلو عُلاي وقد نأت» بعد أن أشعرنا بطبيعة العلاقة التي جمعته بابنته حين قال:

أَنِسْتُ بِهَا فِي ٱلْقُرْبِ تَرْتَعُ تَارَةً وَأُخْرَى عَلَى كُتْبِ ٱلْمَعَارِفِ لاَ تَسْلَى

ولا يختلف تعبير الأب الشاعر حين يخاطب بناته أو عندما يلتفت إلى «محمد»، الابن الوحيد بين البنات الثلاث. وكيف يمكن أن يكون اختلاف في التعبير وقد ثبتت محبتهم جميعاً في أعماقه، «كما ثبتت في الراحتين الأصابع».

ويبقى الحافز دائماً – حسب النصوص التي نتوفر عليها - لتواصل الشاعر مع ابنه «محمد» عبر القصيد، الرحلة العلمية لاستكمال الدراسة. فقد تابع محمد بن عباس الجراري دراسته العليا بدوره، في الولايات المتحدة الأمريكية، فكان الشاعر عباس يغتنم بعض

(1) «مع حبِّي ورضاي».

المناسبات لتحقيق هذا التواصل، كما نجد في مخاطبته لابنه وهو في ديار الغربة حينما حلت ذكرى ميلاده، فكتب إليه يقول[1]:

هُنِّئْتَ بِالْعِيدِ ٱلْجَدِيدِ مُحَمَّدُ ... وَالنُّجْحُ حِلْفُكَ وَالسَّدَادُ ٱلأَحْمَدُ

فِي سَادِسِ التِّشرِينِ الأَوَّلِ جِئْتَنَا ... وَالبِشْرُ حَوْلَكَ وَالزَّمَانُ ٱلأَرْغَدُ

ورَحَلْتَ تَخْطُبُ لِلْمَعَارِفِ أَوْجَها ... بُورِكْتَ والأُختَانِ[2]، أَنْتَ مُعَضَّدُ

هَا حَلَّ عِيدُكَ - فِلْذَتِي - أَنَّى لَنَا ... فِي ٱلْعِيدِ أَنْ نَحْظَى وَأَنْتَ الأَبْعَدُ

أَمَلِي وأُمِّكَ أَنْ تَكُونَ بِصِحَّةٍ ... وَمُوَفَّقاً فِي الدَّرْسِ، وَهْوَ الأَفْيَدُ

وَتَعُودَ لِلْوَطَنِ ٱلْحَبِيبِ مُكَلَّلاً ... بِالغُنْمِ يَحفَظُكَ ٱلإِلاَهُ الأَوْحَدُ

والحق أن أشعار الجراري في هذا الباب لم تقتصر على أبنائه، رغم أن عنوان الديوان يحدد ذلك، بل نجده يبسط أحاسيسه عبر قوافيه لتمتد إلى الأحفاد، على غرار ما نقف عليه في مقطوعته «قبلة تهنئة لـ«نور»[3]، والتي كتبها مهنئاً، بمناسبة الذكرى الأولى لهذه الحفيدة، ومطلعها[4]:

اَلْعِيدُ أَقْبَلَ بِٱلْبَشِيرِ يَنُورُ ... والسَّعدُ بادٍ تَزْدَهِي بِهِ «نُورُ»

إن أشعار عباس الجراري الموجهة لأبنائه، تمثل جانباً من تجربته الشعرية، وإذا كانت المناسبة لا تسمح بتحليل هذه التجربة في أبعادها المتعددة، فإن هناك بعض الملاحظات التي يمكن لقاريء «مع حبي ورضاي» أن يسجلها، وهي كالآتي:

(1) ديوان «مع حُبِّي ورضاي».

(2) الإشارة إلى «ألوف» و«عُلا».

(3) «نور» ابنة «ألوف» وحفيدة الشاعر.

(4) «مع حبِّي ورضاي».

1- إن المادة الشعرية التي بين أيدينا والتي وجهها عباس الجراري إلى أبنائه، تعتبر ضئيلة إذا قيست بما وقفنا عليه في «أشواق» وقسم المساجلات.

2- يبدو لي أن هذه الكتابة الشعرية تمثل نوعاً من استمرارية الاحتضان والتأطير والرعاية التي خصصتها الأسرة الجرارية لأبنائها.

3- تملأ هذه الأشعار بعض الفراغ النفسي الذي يحس به الفرد حين انفصاله عن أسرته وبالتالي يغدو القصيد أداة لإحداث التوازن النفسي المطلوب في مثل هذه الحالات.

4- كما أن هذا النمط من الكتابة الشعرية يستحيل إلى أداة تحافظ على الوشائج العائلية وتقويها، وتغدو دعماً نفسياً، خاصة في مرحلة استكمال الدراسة.

5-تنوع أشكال التعبير الذي تراوح بين القصيدة التقليدية والشعر التفعيلي الحر.

6- نوّع الشاعر في مخاطبة أبنائه بين القصيدة والمقطوعة، وغابت النتفة الشعرية التي رصدناها في «أشواق».

وهناك نمط آخر من الكتابة الشعرية مارسه الشاعر الجراري على نطاق واسع، ويتمثل في تلك المساجلات والإخوانيات التي دارت مع بعض الكتاب والشعراء ممن جمعتهم بالشاعر صداقة أو منتديات أدبية أو لقاءات علمية وندوات فكرية.

ومن خلال المجموع الشعري الذي نتوفر عليه، يتضح أن هذا اللون الشعري يشكل القسم الأكبر من هذه الأشعار، مما يدفع الدارس إلى التساؤل عما إذا كانت الإخوانيات والمساجلات أهم ما انصرف إليه اهتمام الجراري في مسيرته الشعرية ؟

ما يمكن قوله بناء على المتن المحصور، من إنتاج الشاعر، أن الإخوانيات والمساجلات، يعتبر أكبر كم شعري جراري وقفت عليه.

وإذا كانت المقتطفات من ديوان «أشواق» تقدم جانباً من التجربة العاطفية التي عاشها الشاعر الجراري مع زوجته «حميدة»، وأبرزت قصائد «مع حبي ورضاي»، جانباً

آخر لصورة الشاعر الأب ورب الأسرة من خلال مشاعر إنسانية نبيلة تجاه أبنائه، فإن الإخوانيات والمساجلات، ترسم وجهاً مكملاً لشخصية الشاعر، في علاقاته الاجتماعية مع شرائح مجتمعية مختلفة.

غير أن هذه الأشعار التي تحمل عنوان «الإخوانيات والمساجلات»، تتضمن بعض النصوص التي لها طابع خاص، من حيث طبيعة المخاطَب.

فالمطلع على هذا القصيد سيجد عباس الجراري يتوسل بالشعر للتعبير عن مشاعر نبيلة تجاه الملك الراحل الحسن الثاني، وجلالة الملك محمد السادس حفظه الله. كان الحافز لمخاطبة الحسن الثاني، انتهاء السنة الدراسية للمدرسة المولوية لموسم 1993 -1994، حيث قدّم عباس الجراري لجلالته طيب الله ثراه، بعض كتبه، شفعها بقصيدة مطلعها[1]:

جرُؤتُ فَجَرَّتُ الكِتَابَ إلَيكُمُ يَقِيناً بِأَنِّي فِي ضَمَانِ حِمَاكُمُ

وله قصيدة أخرى يخاطب من خلالها الملك الراحل، وكانت المناسبة الداعية إلى هذا التقصيد، ما أُغدق على الجراري من تنويه ملكي بعد إلقائه درساً رمضانياً يوم الأربعاء 11 رمضان 1419 = 30 دجنبر 1998، والذي أداره المحاضر حول «ثقافة الحوار كما أسسها القرآن الكريم»[2]، فكان لهذا التقدير أثره في نفس الشاعر فصاغ مشاعره حول هذه الالتفاتة المولوية في نونية تقول[3]:

يَا سَيِّدِي وَهُتَافُ ٱلْحُبِّ نَادَانِي وَقَادَنِي حَامِلاً شِعْرِي وَأَلْحَانِي

عَلِّي إِذَا مَا لَثَمْتُ ٱلكَفَّ مُنْتَشِياً أَهْدَيْتُ لِلْحَسَنِ الثَّانِي رَيَاحِينِي

(1) من «ديوان الإخوانيات والمساجلات».

(2) يمكن الاطلاع على هذا الدرس في كتاب «دروس حسنية»، عباس الجراري جمع وتقديم: حميدة الصايغ الجراري، ص، 223.

(3) من «ديوان الإخوانيات والمساجلات».

فَالشِّعْرُ أنتَ لهُ رَاعٍ وَتَقْرِضُهُ وَمُبْدعَاتُكَ فِيهِ دُرُّ تِيجَانِ

تَغْرِيدةٌ عَذْبةٌ قَلْبِي تَعَشَّقها فَوقَّعَتْ لَحْنَهَا أَوْتَارُ عِيدَانِي

.....

وتوسل عباس الجراري بالشعر مرة أخرى لمخاطبة جلالة الملك محمد السادس. فقد أجريت للشاعر عملية جراحية في مدينة الرباط برعاية ملكية سامية، شفعها جلالته بهدية وبطاقة كتب عليها بخط يده «كشف الله عنكم الضر، ومنحكم الشفاء والصّبر، وعجل لكم العافية. محمد»[1].

فجاء جواب الجراري شعراً من خلال مقطوعة قدم لها بعبارات الثناء والإجلال، قال[2]:

وَافَتْ هَدِيَّةُ سَيِّدِي تُزْجِي الشِّفَاءْ تُلْقِي «رِدَاءَ» السَّعْدِ بِشْراً والهَنَاءْ

«عُوداً» تَضوَّعَ عِطرُهُ أَرَجاً وَفَاحْ و«بِطَاقَةً» ضَمَّتْ حُروفاً مِن ضِيَاءْ

قد صَاغَهَا قَلَمُ المليكِ مُشرِّفاً لِخَدِيمِه السَّاعِي إلى كَسْبِ الرِّضَاءْ

أما المساجلات التي تبادلها مع الغير، فقد تميزت بتنوعها على مستويات متعددة. فقد ساجل الجراري، الفقيهَ والدبلوماسي والوزير، والأستاذ الجامعي الشاعر، إلى غير ذلك[3]، ولم تنحصر مساجلاته في شعراء المغرب، بل امتدت لتشمل بعض الشعراء من

(1) توجد النسخة الأصل لهذه البطاقة في الخزانة العباسية.

(2) من «ديوان الإخوانيات والمساجلات»، وللجراري أشعار أخرى في التعبير عن مشاعر التقدير لجلالة الملك محمد السادس، أُنظرها في ديوان «المحمديات»، إعداد وتصدير عبد الحق المريني، تقديم الدكتور عباس الجراري، منشورات القصر الملكي، المطبعة الملكية، الرباط، ط، 1، 2016.

(3) من الشعراء الذين ساجلهم الجراري: الفقيه محمد حكم، والأديب عبد اللطيف خالص والشاعر مصطفى الشليح، والدكتور عبد الحميد الهرامة من ليبيا، وسفير اليمن بالقاهرة الدكتور عبد المولى الشميري، والشاعر السلوي أحمد السوسي التناني، والشاعر مولاي الحسن الحسيني من «منتدى الأدب لمبدعي الجنوب» بتارودانت، وبعض الشعراء الموريتانيين والسوريين.

المشرق على غرار ما دار بينه وبين الشاعر الإماراتي مانع سعيد العتيبة الذي كتب مخاطباً الشاعر الجراري، قال[1]:

جَـاءَنِي قَـوْلٌ عَجِيـبْ مِـنْ مَغَارِبْنَـا ٱلْحَبِيـبْ
فِيـهِ رَيْحَانَـةٌ وَوَرْدٌ صِرْفُـهُ يَنْفَـحُ طِيـبْ
مَرْحَبـاً بِـٱلْوَفْـدِ هَـذَا فِي ٱلامَـارَاتِ قَرِيـبْ
وَلَهُـم طَـابَ مُقَـامٌ بَـيْنَ أَهْـلٍ وَنَسِـيبْ
أَنْـتَ يَا عَبَّـاسُ فَٱسْـلَمْ إِنَّـكَ ٱلْفَـذُّ ٱلأَدِيـبْ

فجاء جواب الجراري من خلال قصيدة قال فيها[2]:

قِفْ يَا زَمَانُ وَحُـطَّ رَحْلَكَ هَاهُنَا وَٱهْتِفْ بِـأَنْ نِلْـتَ ٱلْمُرَادَ مَعَ ٱلْمُنَى
هَذِي ٱلإِمَارَاتُ ٱلْمُنِيرَةُ أَشْرَقَـتْ يَسْـبِي ٱلْعُقُـولَ جَمَالُهَـا وَيَشُـدُّنَا
هَـذِي مَرَابِـعُ إِخْـوَتِي أَكْـرِمْ بِهِمْ قَـدْ طَالَ شَـوْقِي نَحْـوَهُمْ حَتَّى العَنَا
وَٱبْنُ السَّـعِيدِ يرى ٱلْوُفُـودَ مُرَحِّبـاً مُـتَهَلِّـلاً بَـادِي ٱلْمَسَـرَّة وَالهَنَا
كَلِفاً بِمَا سَـاقَتْ إِلَيهِ مِنَ ٱلْهَوَى وَبِمَـا تَسَـاقَى مِـنْ أَفَانِينِ الثَّنَا
اَلشَّـاعِرُ ٱلْخِنْذِيـذُ قَـدْ عَلِمَـتْ بِـهِ وَبِشِـعْرِهِ ثَمِلَـتْ تُرَدِّدُهُ الـدُّنَا
اَلشَّهْـمُ إِذْ عَـزَّتْ شَهَامَـةُ أُمَّـتِي فَـاقَ ٱلْقَصِيَّ بِنُبْلِهِ أَوْ مَـنْ دَنَـا
اَلْحُبُّ قَدْ سَكَنَ ٱلْقُلُوبَ وإِنْ تَشَا فَٱسْأَلْ عُيُونَ ٱلْحَاضِرِينَ وقُلْ لَنَا ؟
سَـتَقُولُ: حُـبِّي لِلْعُتَيْبَـةِ دَائِمٌ إِذْ هُـو مَانِـعُ أَنْ يُفَـرَّقَ شَمْلُنَـا

(1) من «ديوان الإخوانيات والمساجلات»، عباس الجراري، مخطوط بالخزانة العباسية.

(2) من «ديوان الإخوانيات والمساجلات».

وكما تنوعت اهتمامات المساجلين للشاعر الجراري، تباينت أجيالهم. فكانت له إخوانيات مع بعض الشعراء الذين ينتمون إلى جيل سابق عليه، من أولئك الذين ينتسبون إلى جيل والده العلامة عبد الله الجراري، ومنهم الشاعر محمد بن الراضي[1] الذي خاطبه العباس بمقطوعة شعرية أسماها «نجم الموسم»[2]، افتتحها بقوله[3]:

قُومُـوا آهْتِفُـوا حَيُّـوا آلأَدِيـبَ مُحَمَّدَا نَجْـلَ الـرَّضِي لَمَّـا أَفَـادَ وَأَنْشَـدَا

بِـالشِّـعْرِ بِـالنَّـثْرِ آلْجَمِيـلِ يَصُوغُـهُ أَحْيَـا النَّـدِيَّ مُحَـرِّكاً وَمُجَـدِّدَا

ومن الشعراء الذين ينتمون إلى جيل الجراري، وتبادل معهم الشاعر بعض المساجلات الشعرية، نجد الشاعر المغربي الكبير علي الصقلي صاحب النشيد الوطني، والذي أعلنه عميد الأدب المغربي «أميراً للشعراء» من خلال قصيدة تؤرخ لهذا الحدث[4]. فحينما قدم عباس الجراري مجموعة من الكتب إلى الشاعر علي الصقلي، كتب هذا الأخير قصيدة شاكراً ومنوهاً بهذه الالتفاتة، فقال[5]:

---

(1) الأستاذ محمد بن الراضي (1921 -2013) من شعراء المغرب المخضرمين. عاش فترة من حياته زمن الحماية وأخرى في مرحلة الاستقلال. وهو أحد رجالات الحركة الوطنية، وصاحب نشيد «يا صاحب الصولة والصولجان» الذي وضعه في الفترة التي كانت تعد فيها وثيقة المطالبة بالاستقلال، وقد لحنه وأدّاه الأستاذ أحمد البيضاوي.

(2) المقصود بـ«الموسم» موسم النشاط الأدبي للنادي الجراري، الذي يبتدئ أول شهر شتنبر من كل عام، وينتهي آخر شهر يوليوز. وقد كانت مشاركة الأستاذ محمد بن الراضي - وهو أحد شعراء النادي الجراري- متميزة خلال موسم 1991 -1992، فاعتبره عميد الأدب المغربي، رئيس النادي، «نجم الموسم»، ودوّن الحدث شعراً.

(3) من «ديوان الإخوانيات والمساجلات».

(4) بالإضافة إلى النص الشعري الذي أعلن، من خلاله، عميد الأدب المغربي د. عباس الجراري علي الصقلي أميراً للشعراء، والذي كتبه بتاريخ 29 دجنبر 2011، أقام النادي الجراري في 17 ماي 2013 جلسة تكريمية للصقلي أنشد الجراري خلالها قصيدته التي تحمل عنوان «أمير الشعراء»، ولتأكيد هذه الإمارة على أساس أكاديمي، نظم النادي الجراري، بتعاون مع جمعية رباط الفتح، ندوة علمية تناولت شعر أمير الشعراء، بتاريخ 10 أبريل 2014، شارك فيها مجموعة من الباحثين الجامعيين وبعض الشعراء، وصدرت أعمال هذه الندوة في كتاب بعنوان «علي الصقلي أمير الشعراء»، ضمن منشورات النادي الجراري تحت رقم 69، سنة 2016.

(5) ديـوان الإخوانيـات والمسـاجلات. وانظـر هـذه القصيـدة في كتـاب «شـعراء النـادي الجـراري: الشاعر والنص»، ص،59.

أَغْرَقْتَنِي، يَا لَيْتَ كُلَّ غَرِيقِ ... مِثْلِي، وَفِي بَحْرٍ لِخَيْرِ صَدِيقِ
بَحْرِ ٱللآلِئِ يصْطَفِي أَعْلاَقَهَا ... فِكرٌ عَشِيقُ الصَّيدِ، يَا لَعَشِيقِ!
فِكر غَنِيٌّ، عَبقَرِيٌّ، نَابِهٌ ... يَرْوِي... وَمَا يَرْوِي بِغَيْرِ رَحِيقِ
إِنْ قِيلَ عَنْهُ، مُشارِكٌ فَبِوَصْفِهِ ... هَذا، وَأَيْمُ اللهِ، جِدُّ خَلِيقِ

فجاء جواب الشاعر الجراري في مقطوعة شعرية حملت اسم «أمير الشعراء»، قال[1]:

بَلْ أَنْتَ مَنْ أَغْرَقْتَنِي بِثُمَالَةٍ ... فِي بَحْرِ شِعْرٍ رَائِقٍ وَأَنِيقِ
بِٱلْحُبِّ يَسْمُو مَوْجُهُ مُتَرَاقِصاً ... زَهْواً بِمَا أَهْدَيتَنِيهِ رَشِيقِ
أَهْدَيْتَنِي مَا فَاقَ كُلَّ هَدِيَّةٍ ... بِالتِّبْرِ أَوْ بِالدُّرِّ أَوْ بِعَقِيقِ
أَنَّى لِمِثْلِي أَنْ يُسَاجِلَ قِمَّةً ... فِي الشِّعْرِ تَعْلُو ذِرْوَ كُلِّ شَهِيقِ
قَدْ حُزْتَ فِي سَبْقِ ٱلقَوَافِي مِشْعَلاً ... فَغَدَوْتَ فِي ٱلإِبْدَاعِ فَوْحَ عَبِيقِ
وَالفَارِسَ المِغْوَارَ دُونَ مُنَازِعٍ ... فِي سُوحِ هَذَا الشِّعْرِ جِدّ خَلِيقِ
فَٱهْنَأْ بِمَا قَدْ نِلْتَهُ وَٱفْخَرْ بِهِ ... وَٱسْعَدْ فَأَنْتَ أَمِيرُهُ بِحَقِيقِ

وفي إطار ما دار بين الصقلي والجراري من مساجلات وإخوانيات، كتب العباس قصيدة رائية يشيد من خلالها بالشاعر الصقلي وعُلُوّ شاعريته مؤكداً أحقيته بإمارة الشعر العربي، قال[2]:

(1) ديوان الإخوانيات والمساجلات.

(2) من «ديوان الإخوانيات والمساجلات»، وانظر القصيدة في كتاب «شعراء النادي الجراري»، صص، 49-51.

اَلْيَـوْمَ مَجْلِسُـنَا بَهِيٌّ نَـيِّرُ وَالنَّـادِي فِي حَفْـلٍ يَتِيـهُ وَيَفْخَـرُ
يَهْـتَزُّ مِـنْ طَـرَبٍ وَقَـدْ أَشْرَكْتَـهُ إِبْـدَاعَ ضَـادٍ بِـالرَّوَائِـعِ يُنْـثَرُ
فَالنَّـثْرُ عِنْـدَكَ مَائِـدٌ فِي طِرْسِـهِ وَالشِّـعْرُ يَزْهُـو فِي حِمَـاكَ وَيُزْهِـرُ

.....

أَحْيَيْـتَ لِلإِبْـدَاعِ رَوْنَقَـهُ ٱلَّـذِي قَـدْ كَادَ يُنْسَـى أَوْ بِقَصْـدٍ يُقْبَـرُ

.....

إِذْ أَنْتَ فِي شُـعَرَاءِ عَصْرِكَ قَائِدٌ وَزَعِيمُهُـمْ وَعَمِيـدُهُمْ وَأُكَـرِّرُ
لَوْ يَحْضُرُونَ ٱلْيَـوْمَ سَـاقُوا بَيْعَةً لَـكَ يَا أَخِي بِإِمَـارَةٍ قَـدْ تُذْكَـرُ
لأَتَـوْا جَمِيعـاً رَافِعِينَ لِـوَاءَهُمْ يَدْعُونَ أَنَّكَ يَا عَلِيُّ ٱلأَجْـدَرُ
هِيَ بَيْعَـةٌ قَـدْ كُنْـتُ قَبْـلُ كَتَبْتُهَـا وَدَعَـوْتُ فِي دَرْسِي لَهَـا وَأُبَرِّرُ
وَٱلْيَـوْمَ فَالنَّـادِي ٱلْجَـرَارِي بِحَفْلِهِ وَالسَّـعْدُ يَغْمُـرُهُ يُنَـادِي يُظْهِـرُ
أَنَّ الصقِـلِّي شَـاعِرٌ فَـرْدٌ لَهُ قِـدْحٌ مُعـلَّى بِـالبَدَائِـعِ يَسْـحَرُ
فِي ٱلْمَغْـرِبِ ٱلأَقْصَى وَيَعْرُبَ كُلِّهِمْ فِـي سَـائِـرِ ٱلأَوْطَـانِ رَسْـمُكَ يُنْشَـرُ

فأبى الشاعر الصقلي إلا أن يقتسم الإمارة الأدبية مع الجراري، فكتب قصيدة معلناً عميد الأدب المغربي أميراً للبيان، وقال[1]:

أَمِـيرَ ٱلْبَيَـانِ بِـأَعْـلَى سَرِيرْ وَهَـلْ لِلْبَيَـانِ سِـوَاكَ أَمِـيرْ ؟
تَصُـوغُ الـزَّوَاهِي وَلَـوْ مِـنْ حَدِيد فَيَغْـدُو ٱلَّـذِي صُغْتَـهُ مِنْ حَـرِيرْ

(1) من «ديوان الإخوانيات والمساجلات».

وَإِنْ ضَاعَ نَفْحُ عَبِيرٍ بَيَاناً فَلَيْسَ سِوَى لَكَ نَفْحُ عَبِيرْ
فَهَذَا نَظِيمٌ بِأَعْلَى الذُّرَى وَذَاكَ بِجَنْبِ الدَّرَارِي نَثِيرْ

***

حَبِيبِي عَبَّاسُ، يَا هَرَماً بِأَعْلَى الأَعَالِي بَدَا للكثيرْ
لِمِثْلِكَ أَنْتَ وَمِثْلِي أنَا وَلاَ فَخَرَ، بالمكْرُمَاتِ جَدِيرْ
أَمِيرَانِ نَحْنُ، ومَا بينَنَا وَنَحنُ سَوِيَّانِ، أيٌّ كَبِيرْ !
وَلَسْتُ أُغَرُّ بِهِ لَقَباً وَمَا إِنْ بِهِ كُنْتَ يَوْماً غَرِيرْ

ولم تقتصر مساجلات الشاعر عباس الجراري على شعراء من جيل سابق عليه أو من جيله، بل نجده تبادل هذه الأشعار مع بعض طلابه الشعراء الذين لهم مساهمات أغنت الساحة الشعرية المغربية المعاصرة. من هؤلاء الشاعر مصطفى الشليح[1]، أحد شعراء النادي الجراري، وله مع عميد الأدب المغربي عدة مساجلات، منها ما دار بينهما في مجالس الجراري الأدبية التي تنعقد أيام الجمع، وكان ذلك ربيع سنة 1996 حيث خاطب الشاعر السلوي الجراري، قال[2]:

إِنِّي سَأَلْتُ ٱلْقَوَافِي وَهْيَ حَائِرَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَمَّا كَانَ مِنْ أَمْرِ
عَنْ رَبَّةِ الشِّعْرِ وَالأَنْسَامُ مَائِسَةٌ بِمَا لَدَيْهَا مِنَ ٱلأَنْغَامِ والشِّعْرِ

***

(1) الأستاذ الدكتور مصطفى الشليح من الجامعيين الشعراء، أصدر عدة دراسات نقدية تتناول الأدب المغربي، وله عدة دواوين منها: «عابر المرايا» و«ماء العراق يشربه القصف»، «كأن النهر امرأة... لا تنام»، «في ألف رباعية... ورباعية»، «هو... العابر الرائي».

(2) أُنظر النص الكامل في كتاب «من تاريخ الأندية الأدبية في المغرب... »، ص، 194 -195.

يَا رَائِقَ الشِّعْرِ عِنْدِي ٱلْيَوْمَ مَسْأَلَةٌ قَدْ جِئْتُ أَعْرِضُهَا مِنْ دُونمَا سِتْرِ
مَا ٱلْقَوْلُ أَمَّا عُيُونُ القَافِيَاتِ رَأَتْ بِأَنَّهَا لِرِبَاطِ ٱلْفَتْحِ لَنْ تَسْرِي ؟

فجاء جواب الشاعر الجراري بقصيدة رائية تبسط بعض ما أشار إليه الشاعر السلوي، قال[1]:

مَهْلاً أَيَا مُصْطَفَى تُلْقِي مُسَاءَلَةً لِرَبَّةِ الشِّعْرِ عَنْ إِبْدَاعِهَا الدُّرِّي
هَلْ نَبْعُهُ فِي رِبَاطِ ٱلْفَتْحِ أَمْ بِسَلاَ ؟ وَهَلْ بِرَوْضِهِمَا مِنْ أَنْجُمٍ زُهْرِ ؟
إِنِّي - عَلَى ٱلْعِلْمِ - لاَ أَبْغِي مُفَاضَلَةً وَلاَ ٱسْتِبَاقاً إِلَى ٱلْمَيْدَانِ إِذْ أَدْرِي
أَنَّ الشُّعُورَ بِمَا يُوحِيهِ دَافِقُهُ فِي الضِّفَّتَيْنِ غَدَا رَقْرَاقُهُ يَسْرِي

***

وَٱلْيَوْمَ مَاذَا ٱلَّذِي تَبْغِي أَخَا فَنَنٍ وَأَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ الشِّعْرَ فِي دَحْرِ
فَمُنْذُ قِيلَ بِأَنَّ القَارِضِينَ لَهُ فِي العُرْبِ أَرْبَعَةٌ مَنْ مِنْهُم يَجْرِي ؟
أَيُقْنِعُكَ أَنَّ الشِّعْرَ ٱلْيَوْمَ غَالِبُهُ إِلَى الشَّعِيرِ ٱنْتَمَى أَوْ قُلْ إِلَى ٱلْعُهْرِ

ومن هؤلاء الشعراء الجامعيين الذين تلمذوا للأستاذ الجراري في الجامعة المغربية، وساجلوه، نجد الشاعر مصطفى الزباخ[2]. فقد دارت بينه والشاعر الجراري عدة مساجلات شعرية، ربما كان أطولها وأكثرها امتداداً في الزمن، تلك التي أُطلق عليها «المساجلة الأَنجولاَصِية»[3]. وهي مساجلة شعرية اشترك فيها ثلاثة شعراء: عباس الجراري،

(1) «من تاريخ الأندية الأدبية في المغرب... »، ص، 197.

(2) الدكتور مصطفى الزباخ، أستاذ جامعي بكلية علوم التربية، التحق بمنظمة الإيسيسكو حيث شغل منصب مدير لعدة مديريات في هذه المنظمة. أصدر الشاعر الزباخ ديوانين: «أصنام الشر» سنة 1972، و«أشواق الموج الظامئ» سنة 2013.

(3) أُنظر المساجلة كاملة في قسم المساجلات.

عبد العزيز التويجري[1]، مصطفى الزباخ، وشارك في موضوعها الأديب أحمد العمارتي، وكانت مشاركته من خلال نصوص نثرية صيغت في قالب مقامي[2].

كان انطلاق هذه المساجلة بعد أن أقام الدكتور مصطفى الزباخ مأدبة عشاء على شرف بعض الأساتذة الذين شاركوا في ندوة حول حوار الحضارات، بمدينة شفشاون تحت إشراف منظمة الإيسيسكو. وكان مما قدمه لضيوفه نوع من السمك يسمى «الأنجولاس»، Las angolas وهو باهض الثمن، لكن شكله الذي يشبه الدود، لم يشجع الضيوف على الإقبال عليه، ولم يثر شهيتهم. فكتب الشاعر الجراري مخاطباً مصطفى الزباخ[3]:

أَقَامَ لَنَا الزباخُ مَأْدُبَةَ العَشَا ... لإِكْرَامِنَا فِي شَاوِنٍ «بكَسَا حَسَنْ»[4]

هُنَالِكَ حَيْثُ ٱلْمُلْتَقَى مُتَجَمِّعٌ ... لِبَحْثِ حِوَارٍ لِلْحَضَارَةِ قَدْ غُبِنْ

أَبُو حَسَنٍ الرَّيْسُونِي يُزْهَى تَبَاهِياً ... كَذَاكَ ٱلْوَزِيرُ السَّعْدُ مَعْ عَامِلِ الهُدَنْ

تَوَالَتْ بِهَا ٱلأَطْبَاقُ مِنْهُ تَفَضُّلاً ... وَأَفْضَلُهَا كَالدُّودِ يَقْوَى بِهِ البَدَنْ

كَذَا قَالَ يُغْرِينَا جَمِيعاً بِأَكْلِهِ ... وَزَادَ بِأَنَّ السِّعْرَ يَغْلُو لَهُ الثَّمَنْ

وَأَنَّ ٱسْمَهُ لِلأَنْجُولاَصِ ٱنْتِسَابُهُ ... وَأَنِّي لَنَا أَنْ نَطْمَئِنَّ لِذِي المِنَنْ

فَمَا زَادَنَا إلاَّ ٱبْتِعَاداً وَنَفْرَةً ... عَلَى أَنَّنَا كُنَّا نُعَانِي مِنَ ٱلْوَهَنْ

أَلاَ فَٱعْجَبُوا كَيْفَ الزَّباخُ يُضِيفُنَا ... وَيُكْرِمُنَا بالدُّودِ يَا لَهُ مِنْ زَمَنْ

.....

(1) الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري هو المدير العام لمنظمة الإيسيسكو.

(2) جمع الأديب أحمد حسن العمارتي نصوص المقامات التي شارك بها في هذه الواقعة، ونشرها ضمن كتاب أسماه «التماس المنى والقلائد مما في المقامات العمارتية من أدب وفوائد»، سنة 2011.

(3) من ديوان «الإخوانيات والمساجلات».

(4) Casa Hassan (دار حسن) اسم مطعم بمدينة شفشاون.

وتتابع الانتقاد لهذه المأدبة من خلال قصائد ومقطوعات شعرية من طرف الشاعرين عباس الجراري وعبد العزيز التويجري، فانبرى الشاعر الزباخ إلى الدفاع عن نفسه فكتب مجيباً مدافعاً وقال[1]:

بَادٍ رِضَاكَ وَإِنْ زَلَّتْ خُطَى السَّفَرِ ... فِي جُودِ عَيْنَيْكَ عِقْدُ السَّمْحِ مُنْتَظِمُ
مَا كُنْتُ أُوثِرُ أَنْ يَمْتَدَّ بِي زَمَنِي ... حَتَّى يُعَيِّرَنِي ٱلأَحْبَابُ وَٱلْقَلَمُ
قَالُوا ٱلْحَبِيبُ طَهَا لِضَيْفِهِ عَجَباً ... إِنَّ السَّمَاحَ لأَهْلِ العَثْرِ مُعْتَصَمُ
يَا لاَئِمِي فِي ٱلْهَوَى وَالإِكْرَامِ مَعْذِرَةً ... شَفْشَاوُنُ يَكْفِي مِنْهَا أَنَّهَا كَرَمُ
شَفْشَاون فِي حُسْنِهَا فِي حُبِّ سَاكِنِهَا ... يَكْفِيكُمُ أَنَّهَا فِي تِرْحَابِهَا هَرَمُ
لاَ تَعْجَبُوا سَادَتِي مِنْ حُوتِ أَنْهُرِهَا ... فِي السَّهْلِ يُزْهِرُ مَا لَمْ تَعْرِفِ ٱلْقِمَمُ
أَسْمَاكُنَا دُرَرٌ فِي النَّهْرِ مَوْلِدُهَا ... يَشْتَاقُ لَذَّتَهَا ٱلأَسْيَادُ وَالهِمَمُ

.....

عَبَّاسُ مَالِي أُدَانُ فِي قَصَائِدِكُمْ ... وَأَنْتَ مَنْ كُنْتَ لِلْجَانِينَ مُعْتَصَمُ
عَبَّاسُ هَلْ تَرْضَى فِي حُكْمِكُمْ زَلَلٌ ... وَهَلْ تُرَى يَسْتَوِي فِيكَ ٱلْخَصْمُ وَٱلْحَكَمُ
إِنْ كَانَ يُرْضِيكُمْ مَا قَالَ عَاذِلُنَا ... كَيْفَ الرَّجَاءُ إِذَا صَدَّقْتُمُ ٱلْوَجَمَ

والمطلع على إخوانيات ومساجلات الشاعر عباس الجراري، يجد أنها تنفتح كذلك على شعراء شباب، حيث لا يشكل عنصر السن حاجزاً، بل لا يتأخر عميد الأدب المغربي في محاورة شاعر شاب، حينما يكون الدافع إلى ذلك فكرياً أو فنياً، على غرار ما نلمسه في مساجلته مع الشاعر مصطفى الطوبي[2] الذي كتب قصيدة بعنوان

(1) من ديوان «الإخوانيات والمساجلات».

(2) الدكتور مصطفى الطوبي أستاذ جامعي بكلية الآداب، جامعة ابن زهر، أكادير، مهتم بعلم المخطوطات والترجمة. له ديوان «نافذة لعويل الريح»، نشر سنة 2002، بالإضافة إلى ديوانه «مسافات لبلوغ الفجر». ط، 2015.

«معلقة القدس» مع عنوان فرعي هو: « تقرير مرفوع إلى عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري». قال[1]:

اَلشِّـعْرُ فَاضَ عَلَى ٱلْوِجْدَانِ مُحْتَشِـمَا وَٱلْبَدْرُ هَلَّ عَلَى ٱلأَشْرَافِ مُبْتَسِـمَا
قَدْ كَانَ لِي وَهَـجٌ فِي ٱلقَوْلِ يُطْرِبُنِي ثُمَّ ٱنْزَوَيْـتُ فَصَارَ الصَّمْتُ مُقْتَحِمَا
وَصِرْتُ عِبئـاً عَـلَى ٱلآدَابِ أَعْبُرُهَا أُجَـرِّبُ القَـوْلَ أَوْزَاناً وَمُنْعَدِمَـا

.....

عَبَّـاسُ يَا عُمْـدَةَ ٱلآدَابِ أَجْمَعِهَـا يَا بَلْـسَمَ ٱلْجُـرْحِ هَيَّـا أَفْتِنَـا حِكَمَـا
اَلْقُـدْسُ فِي غَفْـلَةِ التَّـارِيخِ نَائِحَةٌ قَـدْ صَـارَ فِيهَـا صَـلاَحُ الـدِّينِ مُنْهَزِمَا
وَصَـارَ للنَّـاسِ فِي أَحْوَالِهِـمْ غِـيَرٌ كُلٌّ يُغـنِّي عَـلَى لَيْـلاَهُ مُبْتَسِـمَا
عَبَّـاسُ يَا أَيُّهَـا الشَّـادِي بِصَوْلَتِهِ مَـاذَا أَقُـولُ وَقَـدْ أَرْبَكْتَـنِي قَسَـمَا
مَـاذَا أَقُـولُ وَهَـا التقـريرُ أَنْسُـجُهُ رَقْشـاً يُجَـارِي زُلاَلَ ٱلْمَـاءِ مُلْتَطِمَـا
وَلِّى الزَّمانُ ٱلَّذِي كُنَّـا نُبَجِّـلُهُ شِـعْراً وَنَـثْراً لَدَى الطُّلاَّبِ مُنْتَظِمَا
هَـذَا يَحُـوكُ مِـنَ ٱلأَشْـعَارِ أَجْزَلَهَا وَذَا يُصَـرِّفُ فِي أَقْـوَالِهِ ٱلْحِكَمَا
وَشُـعبةُ الضَّـاد لِـلآدَابِ قِبْلَتُنَـا طَـودٌ مِنَ ٱلْمَجْدِ أَضْحَى سَهـلُهُ أَكَمَا
وَالآنَ يَا أَسَـفِي أَنْعَى لَكمْ زَمَنِي هَذَا ٱلَّذِي صَارَ فِي التَّـارِيخِ مُنْعَدِمَا

.....

ولما كان الخطاب موجهاً بشكل مباشر إلى الأستاذ عباس الجراري، ويحمل في طيه شكوى من مواقف وقضايا معينة، لم يتردد الشاعر الجراري في التجاوب مع هذا النص الشعري وصاحبه. فمعلقة القدس تحكي مأساة فلسطين وتشكو ما آل إليه الشعر العربي

(1) معلقة القدس، قصيدة للشاعر مصطفى الطوبي، من ديوانه «مسافات لبلوغ الفجر»، ط، 2015.

على يد بعض من يدعون الاصطفاف في صف الشعراء، بل يرى صاحب المعلقة أن «شيخ البلادة أضحى شاعراً هَرَما»[1]، وكل ذلك، من القضايا التي شغلت عميد الأدب المغربي وله فيها أبحاث ومواقف. من ثم جاء جوابه على ميمية الشاعر مصطفى الطوبي يقول[2]:

اَلشِّعْرُ فَاضَ بِصِدْقٍ فَلْتَدَعْ سَأَمَا ... وَهَاجَ وَجْدُكَ حَقاً لَيْسَ ذَا حُلُمَا

أَبْدَعْتَ رَائِعَةً أَحْيَتْ مَشَاعِرَنَا ... وَأَطْرَبَتْ أَنْفُساً تَاقَتْ لِمَا نُغِّمَا

وَأَخْرَسَتْ أَلْسُناً دَعْوَى ٱلْجَدِيدِ لَهَا ... هَدْمُ ٱلأَصِيلِ وَمَا يَبْدُو لَهَا سَقِمَا

رَاحَ ٱلظَّلاَمُ ٱلَّذِي قَدْ كُنْتَ تَحْسِبُهُ ... عَلَى ٱلْوِهَادِ بِكُلِّ ٱلأُفْقِ قَدْ جَثَمَا

أَبْدِعْ كَمَا شِئْتَ لاَ تَحْفِلْ بِذِي حَسَدٍ ... وَلاَ يَرُعْكَ ٱلَّذِي بِٱلْقَلْبِ قَدْ نَقَمَا

فَٱلشِّعْرُ عِنْدَكَ أَنْغَامٌ مُرَتَّلَةٌ ... بِهِ سَمَوْتَ وَكُنْتَ ٱلنَّجْمَ وَٱلْعَلَمَا

إن ديوان «الإخوانيات والمساجلات»، يسهم في الكشف عن جانب آخر من شخصية الشاعر عباس الجراري، بل تحمل هذه النصوص أحياناً مواقف وآراء حول بعض القضايا، كما تبين ذلك بعض النماذج التي قدمناها في هذه الكتابة كالحديث عن وضعية الشعر العربي في المغرب، أو بعض الإشارات السياسية والدينية وغير ذلك مما لا يسمح المقام بالتفصيل فيه.

هذه بعض الملامح التي يمكن تشكيلها لصورة عباس الجراري الشاعر، ولاشك أنها صورة غير مكتملة، ما دام أن المتن الشعري المعتمد في هذا التقديم، لا يشكل سوى مقتطفات من الدواوين الثلاثة، التي جمع الجراري أشعاره ضمنها.

غير أن ما استطعنا الحصول عليه، يسمح بتقديم صورة أولى للجراري الشاعر، الذي ظل هذا الجانب من كتاباته الأدبية غائباً. وقد بدا أن عميد الأدب المغربي، قد

(1) البيت المشار إليه هنا هو: تكحَّلَ الخَلقُ بالآداب كلِّهِم ... شيخ البلادة أضحى شاعراً هَرَمَا
من قصيدة «معلقة القدس».

(2) من ديوان «الإخوانيات والمساجلات»..

بدأ ممارسة الكتابة الشعرية في مرحلة شبابه، وظهر اسمه في الساحة الشعرية المغربية في سنوات الخمسين من القرن العشرين، ولولا إحجامه عن متابعة نشر أشعاره، لكان واحداً من أبرز شعراء المغرب في تلك المرحلة، خاصة وأن تجربته الشعرية تميزت بكتابة القصيد العمودي، والنص المتمرد على نظام الخليل، بل تميزت هذه التجربة بكتابة النص الزجلي الراقي الذي يمتح من شعر الملحون، وهو معين نهل منه الشاعر العباس الكثير، بل امتدت مصاحبته لهذا النمط من الإبداع الشعري المغربي الأصيل، على مدى عقود من الزمن، دراسة وتدريسا وإبداعاً، دون أن ننسى التذكير بعمله الأكاديمي المؤسِّس «الزجل في المغرب: القصيدة»، ثم إشرافه على موسوعة الملحون التي تصدرها أكاديمية المملكة المغربية، مقدِّما لدواوينها بدراسات علمية أصيلة.

وقد رصدنا من خلال المجموع الشعري الذي بين أيدينا، المجالات التي تحركت داخلها القصيدة العباسية، بدءاً بالتجربة العاطفية إلى المجال المرتبط بقضايا مجتمعية متعددة سيقت طي مساجلاته؛ ومع ذلك يخامرني إحساس شفيف، بأن الفضاء الذي اقتحمه الجراري شعراً، أوسع بكثير مما تشير إليه النصوص المتوفرة لدينا، وقد يسعف الزمن في الوصول إلى الخبيء الكامن.

وسيلحظ القارئ لهذا التقديم، أننا بسطنا القول في المجالات التي قال فيها الشاعر الجراري، غير أن السؤال: كيف قال ؟ بقي في دائرة الغياب؛ فلم يكن هدف هذا التقديم طرق هذا الجانب، فمداخله متعددة، وتسعف المناهج المتعددة لإعمال النظر فيه بمستويات متباينة، بما يسمح بالكشف عن خصائص المتن الجراري، مُؤَسَّساً نقدياً، ومُسيَّجاً بسياقه التاريخي؛ وذلك ما نرغب في الإلتفات إليه استقبالاً، إن أسعف الزمن في ذلك، أو ينبري إليه غيرنا بروح الباحث المتجرد، الساعي إلى المساهمة في ترميم تاريخ الشعر العربي بالمغرب في مرحلتيه الحديثة والمعاصرة.

***

رباط الفتح، 25 أكتوبر 2016

ويسألونك عن المساجلة....[1]

د. محمد احميدة[*]

هناك من ينظر إلى المساجلات الشعرية نظرة إقصائية، فيطرح هذه الكتابة خارج دائرة الشعر، فهي عند البعض لا تتجاوز عتبة النظم، هي صبّ للكلمات في قالب تفعيلي، استعير من إيقاع الخليل، يبغيه بعضهم طويلا، وآخرون وافراً أو خفيفاً، وتمده طائفة ثالثة مدّاً، وتركب أخرى صابراً ذُكر في كتاب الله يحمل أسفاراً.

قال صاحبي: متى كانت المساجلات شعراً ؟ وأين ماء الشعر فيما سطر في هذا الباب؟ وأضاف: الشعر هو ما لا تستطيع أن تقوله نثراً! الشعر غامض كالماس! الشعر تخييل!

واسترسل في سرد تعاريف مستقاة من ديار شرقية وغربية، ومتلقفة من أفواه حداثيين مبدعين ونقاداً.

قلت: إذا كان الأمر كذلك، كيف نفسِّر استمرار هذا النمط من الكتابة في أدبنا عبر فترة زمنية تمتد قروناً ومارسها كبار شعراء العربية ؟

إن المساجلات الشعرية تضرب إلى الأعماق في التاريخ الشعري العربي، عرفناها عند شعراء من العصور الأدبية الأولى، وما تزال مستمرة في تاريخنا الإبداعي إلى اليوم.

---

(1) نشر هذا النص تقديما للجزء الثاني «من ديوان عباس الجراري»، وقد خصصه الشاعر للمساجلات، وصدرت طبعته الأولى سنة 2017.

(*) أستاذ بكلية الآداب، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، تقاعد سنة 2013.

لو لم يكن هذا النمط من الكتابة يحمل في طيّه ما يضمن هذه الاستمرارية، لانقرض منذ قرون ؟ إننا إذا حاولنا جمع ما قيل في باب المساجلات الشعرية من خلال مصادرها، لوجدنا أنفسنا أمام تراث شعري ضخم تتباين مستوياته الفنية، إنه يشكل خزّاناً لجزء من تاريخ أمتنا العربية الإسلامية، من زوايا متعددة، سياسية، اجتماعية، اقتصادية، ثقافية، لغوية إلى جانب كونه يمثل تنويعاً للكتابة الشعرية العربية.

وبهذا تكتسب المساجلة الشعرية شرعية الوجود، ولو حصرنا مبرر هذه الشرعية فيما أشرنا إليه.

أبسط هذا الكلام كفرش لما أبغي الحديث عنه في هذا التقديم الذي يرتبط أساساً بمساجلات الشاعر عباس الجراري، الذي خصص الجزء الثاني من ديوانه لهذا النمط من القول الشعري.

ما كتبه الشاعر الجراري في باب المساجلات، لم يكن سوى استمرار لتقليد شعري حافظ عليه شعراء العربية منذ القديم، ولم يكن المغاربة بعيدين عنه، فجاءت دواوين شعرائهم ومجاميعهم الشعرية مليئة به، واستمر الأمر كذلك مع المعاصرين منهم. وقد سجل ديوان العرب اهتمام الشعراء بالمساجلة، عبر العصور المختلفة، وسنجد خلال هذا التاريخ، بعض الخلفاء والساسة، ممن توفرت لديهم القريحة الأدبية، فشاركوا بمساجلاتهم الشعرية، وانخرطوا في محاورة بعض شعراء عصرهم. يكفي أن نشير في هذا الصدد إلى ما كتب عن الخليفة العباسي هارون الرشيد، - الذي قورن بلاطه ببلاط لويس الرابع عشر - وضم نخبة من الساسة إلى جانب نخبة من الأدباء والشعراء وعلماء اللغة، حيث وثّقت بعض الدراسات الجامعية اهتمام هذا الخليفة بالمساجلات الشعرية، التي كان يشارك بنفسه في إذكاء روحها بين الشعراء، داخل مجالسه الأدبية[1]. أما إذا انتقلنا إلى المرحلة الحديثة، فتكفي الإشارة إلى ملك آخر كان له ولع بالمساجلات الشعرية، حيث يسجل تاريخ الأدب

(1) أُنظر كتاب «الحركة الأدبية في مجالس هارون الرشيد»، 170-190هـ للدكتور محمود بن سعود بن عبد العزيز الحليبي، ط، 1، 2008.

العربي ذلك الشغف بهذا النمط من الكتابة، الذي عرف به الملك الأردني عبد الله الأول بن الحسين، مؤسس الدولة الأردنية الهاشمية[1]؛ دون أن ننسى ما تحظى به المساجلات من اهتمام في الأندية الأدبية في المشرق العربي، وديوانيات بلدان الخليج، مما يتردد صداه اليوم في الحياة الأدبية لهذه الأقطار.

أما في المغرب فالمساجلات الشعرية تقليد أصيل، حافظ عليه الشعراء المغاربة، ونظموا فيه منذ القديم. وإذا قصرنا الكلام على المرحلة الحديثة، فإن شعراء أمثال: أحمد بن المامون البلغيثي، محمد بوجندار، عبد الله القباج، محمد البيضاوي الشنقيطي، عبد الله الجراري، أبو بكر بناني، محمد الجزولي، عبد الرحمان ججي، محمد بن إبراهيم (شاعر الحمراء)، علال الفاسي، الحسن البونعماني، شكلت المساجلة جزءاً من إنتاجهم الشعري.

واستمرت المساجلات الشعرية ممارسة من طرف الشعراء المغاربة المعاصرين، وربما كان الشاعر علي الصقلي، من أبرز هؤلاء الشعراء المغاربة الذين لهم باع طويل في هذا الباب، وسنجده في الآونة الأخيرة يعمل على جمع أضمومة من تلك المساجلات التي جرت بينه وبين الشاعر محمد الحلوي، ضمّنها مصنّفا حمل عنوان «بين صديقين: محمد الحلوي وعلي الصقلي»[2]. وتجدر الإشارة إلى أن المجالس الأدبية، كانت فضاء يشجع على هذا الحوار بين الشعراء الذين تجمعهم تلك المجالس، ويقدم لنا «كتاب المجالس الأدبية»[3] لعبد الله الجراري، صورة لما تبادله بعض الشعراء فيما بينهم من مساجلات، حيث سجل مؤلف هذا الكتاب مجموعة من هذه الأشعار التي تناولت موضوعات مختلفة.

---

(1) يمكن الإطلاع على نماذج من مساجلاته ضمن كتاب «المساجلات الشعرية للملك عبد الله الأول بن الحسين» للباحث خلف نوافله، وكذا في كتاب شعر عبد المنعم الرفاعي جمع وتحقيق د.إبراهيم الكوفحي.

(2) صدر سنة 2014.

(3) كتاب «المجالس الأدبية لعبد الله بن العباس الجراري» كان موضوع رسالة جامعية لنيل دبلوم الدراسات العليا تحت إشراف الدكتور عباس الجراري، تحقيق ودراسة من إنجاز الباحثة عائشة نوايز، ونوقشت بكلية الآداب، جامعة محمد الخامس بالرباط خلال الموسم الجامعي 1989 -1990. (مرقونة)

والمجموع الشعري لعباس الجراري الذي وقفنا عليه، احتلت فيه المساجلة قسماً غير يسير، لدرجة أن الشاعر خصص هذا الجزء الثاني برمته لهذا النمط من القول الشعري. وإذا بحثنا عن العوامل التي دفعت الجراري إلى الدخول في حوار شعري مع العديد من الشعراء، نجدها متعددة، منها ما يكون بمناسبات دينية، أو اجتماعية، أو في لقاءات علمية وندوات فكرية، تجمعه مع بعض الشعراء أو المشتغلين بقضايا الفكر بشكل عام.

ولما كانت علاقات الشاعر الجراري متعددة ومتنوعة، ومتسعة في الزمان والمكان، فقد جاءت مساجلاته بدورها كذلك. ساجل شعراء من المغرب، ومن دول عربية متعددة، كالإمارات العربية المتحدة، والبحرين، واليمن، وليبيا، وسوريا، والمملكة العربية السعودية. هذا التعدد سمح للجراري أن تطرق مساجلاته مواضيع وقضايا متنوعة.

وتأملنا لمساجلات الجراري يضعنا أمام نصوص لا تقتصر على تبادل العواطف والمجاملات التي يقتضيها هذا النوع من القصيد، بل نجد أنفسنا معه، شاعراً يطرح من خلال مساجلته بعض القضايا التي تشعبت لتلمس الديني والسياسي والأدبي....

المساجلة عند الجراري لها، أحياناً، ظاهر وباطن. قد لا يوحي موضوعها في البداية إلا بالمألوف الذي تُدار حوله المساجلة، بنفس إخواني مجامل، ثم لا تلبث أن تُواجَه بانعطاف للعبارة الشعرية لتدخلك عالماً آخر، وتضعك أمام موقف وقضية.

لننظر في مساجلته مع الشاعر الموريتاني محمد عبد الله التمين، التي دارت حول كأس شاي دُعي الشاعر الجراري إلى شربه مشاركة مع ثلة من العلماء والأدباء.

قال الشاعر الموريتاني صاحب الدعوة[1]:

شَرِبْنَا كُؤُوسَ الشَّـاي وَهْوَ لنا عَذْبُ ... لَدُنْ شَرَّفَ الإخوانُ والأهلُ والصَّحْبُ

مَع الشَّيخ عباس وَشَـوقي وَشَـيْخِنا ... عَليّ وأَحْمَدْنا ومَجلسـنَا الرَّحبُ

(1) من ديوان عباس الجراري، الجزء الثاني، ص، 75.

فجاء جواب الشاعر الجراري قائلا[1]:

هو الشـاي هل أنبيكَ عن حسناته وعمَّا له في النَّفس إذ يعذبـ الشُّرْبُ

وستكون هناك دعوة ثانية من طرف الشاعر الموريتاني فلبَّى الجراري الدعوة وقال[2]:

وكرَّر يدعوني إلى شـايه الأغلى أجبتُ على أنَّ المكرَّر هـو الأحلى
وفي جلسـة بـالصَّفْـوِ لـذَّ شرابُـهُ يُزيِّنها «شـوقي»[2] برُفقته المثْلَى
وعبد الإله السـمح بـالصُّنع ينتشي يُقلِّبُ كاسـاتِ الأتـاي بمـا يُمْلاَ
ولولا حديثُ الحربِ تبّاً لـ« بُوشِها» لكانت لَذا ذاتُ الشَّراب بِهَـا أَعْلَى

المساجلة في الظاهر حول جلسة شاي، يتهيّأ المتلقي لخطاب « حُلو»، فالشاعر يرسم جلسة « لذَّ شرابها»، وزيّنها جلاّس تحلو معهم المجالسة، خاصة وأنها تتم بحضور الأستاذ أحمد شوقي بنبين الذي لا يخلو مجلسه من علم وأدب ومُلح وظَرف.

لكن هذا التأثيث الذي يشيع البَهَج، يُسقط توقع القارئ، بانعطاف في البيت الأخير، يدخل المتلقي إلى دائرة مختلفة، وتقلل الصياغة الشعرية من «لذاذة الشراب» ومتعة الجلسة التي كان بالإمكان أن تكون أعلى.

حضر « بوش» في النص، إلى جانب «أبي لهب» المختفي في «التبّ»، فتناسلت في ذهن المتلقي صور مأساة العراق، وما آل إليه وجه حضاري عربي من تشويه وخراب على يد الولايات المتحدة الأمريكية ورئيسها « بوش». وتغدو بؤرة المساجلة قضية عربية منتزعة من صميم الواقع العربي الأليم، وهو واقع يحوِّل لذاذة الشاي إلى قهوة عربية مُرة:

ولولا حديث الحربـ تبّاً لِـ«بُوشها» لَكَانَـتْ لَذَاذَةُ الشَّرَابـِ بِهَا أَعْلَى

(1) أُنظر النص كاملا في الجزء الثاني من ديوان عباس الجراري، ص، 76.
(2) نفسه، ص، 78.

هكذا صدح الشاعر الجراري في جلسة شاي، كانت محور مساجلة.

هذا النفس السياسي الذي يتخلل المساجلة الجرارية، سنجده يتكرر في الحوار الذي دار بينه وبين الشاعر عبد العزيز التويجري. كان الفضاء الذي أوحى بتلك المساجلة، تخيم عليه أجواء فكرية في سياق ندوة علمية. وكُتبت قصيدة الجراري في إطار ما عرف فيما بعد بـ«المساجلة الانجولاسية»[1]. ورغم طابع الدُّعابة الذي غلّف هذه المساجلة في صياغتها العامة، فإن الشاعر الجراري لم يتردد في تخليلها بنقد سياسي موجه إلى دولة الأنجليز، وهو نقد جاء في سياق ما تعرضت له الأمة العربية من دسائس، تجلت هنا في المؤامرة التي حيكت لتخريب بلاد العراق، وكانت بريطانيا من أدواته، ومشاركة في رسمه تخطيطاً، وإنجازه تنفيذاً. تبدأ المساجلة بين الشاعرين بقول الجراري مخاطباً عبد العزيز[2]:

يَا سَـيِّدِي عَبْـد العَزِيـــــــــز يَا أَمِـير القَافِيـةْ

والقصيدة أصلا عتاب للأستاذ أحمد العمارتي[3] الذي لم يف بوعده لاستضافة مجموعة من أصدقائه، وشكا الجراري هذا التسويف، بل إنكار المعني لما وعد به، وسفره إلى بلاد الأنجليز، الذي اعتبره الجراري فراراً، فقال مخاطباً صديقه التويجري[4]:

لَمْ يَـكْـفِـهْ إِنْـــــكَارُهُ لِـــــــزَرْدَةٍ إِخْـــوَانِـــيَـــةْ

بَـلْ فَـرَّ مِـنْ حَـقٍّ لَنَـا إِلَى الأُلَى الزَّبَانِيَـةْ

أَعْـنِي بِـلاَدَ الأَنجَلِيـــــــــز وَ«بيلـيرَ» الطَّاغِيَـةْ

(1) أُنظرها في هذا الجزء الثاني من ديوان عباس الجراري، ص، 85.

(2) من ديوان عباس الجراري، الجزء الثاني، ص، 98.

(3) الإشارة إلى الأستاذ الأديب أحمد حسن العمارتي، أحد المشاركين في «المسألة الأنجولاسية»، وكانت مشاركته في شكل مقامات، جمعها وأصدرها في كتاب تحت عنوان « التماس المنى والقلائد مما في المقامات العمارتية من أدب وفوائد»، سنة 2011.

(4) من ديوان عباس الجراري، الجزء الثاني، ص، 99.

ينقلك هذا الانعطاف من جو الدعابة، إلى صميم واقعنا العربي في مرحلة عصيبة، وينسج الشاعر الجراري مَعْبراً إلى اللحظة المأساوية خَلَل «الفرار»؛ ولكن إلى أين؟ إلى بلاد الزبانية! كيف يفر عربي من بلاد عربية إلى بلاد الطاغية؟ لقد كانت لحظة أخرجت المتلقي من حالة إلى حالة، من حالة تفكّه تجللها ظلال المرح، إلى لحظة رُسمت بلون أقتم، أعادت الشاعر المسَاجِل والمتلقي، إلى زمن عربي رديء، صُنع بمساهمة انجليزية زمن «توني بلير Tony Blair». هذه مساجلة تُريك أن الشاعر الجراري لا ينفصل - وإن في سياق المداعبة - عن هموم أمته العربية الإسلامية. وتعكس العبارة الشعرية التي نسجها الجراري عمق الألم الذي يختزنه الوجدان العربي، بسبب ما حل ببلاد العراق، فاللحظة المدونة شعراً، ليست صدى لشعور فردي، بل تعبيراً عن وجدان جَمْعي عربي إسلامي، وتحدد لفظتا «الزبانية» و«الطاغية» مستوى الغضب الذي يتأجج في أعماق الشاعر.

وترافق الهموم العربية الشاعر الجراري في مساجلاته مع بعض الشعراء العرب، فحينما خاطبه الشاعر اليمني عبد الولي الشميري مهنئاً بشهر رمضان، وكان يومئذ سفيراً لبلاده في القاهرة، أجابه الجراري بقوله[1]:

تقـــــبَّـل عِبَـارَاتِـيَ الشَّـاكِرَةْ ... بِـأَدْعِـيَـــــةٍ نَرْتَجِي غَافِـرَةْ
وإنِّي لأَغْبِـطُ صَوْمَـكَ فِي ... رِحَـــابِ المُـعِـزِّيَـةِ ٱلـقَـاهِـرَةْ
تُرَى هَـلْ عَـلَى مَـا أَلِفْنـا بِهَـا ... تُقـامُ اللَّيَـالِي بِهَـا سَـاهِرَةْ؟
أَم أن الـدَّواهِي بِسَـاحَتِهَا ... تُـعـكِّـرُ أَجْـوَاءَهـا الـبَـاهِـرَةْ؟

للشاعر الجراري علاقة وجدانية عميقة بأرض الكنانة، وله في القاهرة ذكريات منذ أيام الطلب، وآثار المحروسة لها بصمات في بعض كتاباته، وتجمعه علاقات عديدة

(1) من ديوان عباس الجراري، الجزء الثاني، ص، 143.

مع شخصيات مصرية من أساتذة الجامعات وبعض المفكرين والساسة...، فحينما ساجله الشاعر اليمني الشميري من تلك الديار، حرك في أعماقه مشاعر الماضي الذي استقر في دواخله منذ أيام الدراسة الجامعية وما تلاها، فانبثق التساؤل من خلال المساجلة يقول[1]:

تُرَى هَـلْ عَـلَى مَـا أَلِفْنَـا بِهَـا تُقَـامُ اللَّيَـالِي بِهَـا سَـاهِرَةْ ؟

هذا التساؤل طفا على السطح في شهر غشت سنة 2011. كيف حال مصر يومئذ ؟ لماذا يرد طي المساجلة لفظ « الدَّواهي» ولفظ «التعكير» ؟ ولماذا التساؤل عن ليالي القاهرة الساهرة ؟ هل تحول الحال ؟

يبدو أن التساؤل انبعث من الأوضاع التي كانت مصر تعيشها في ذلك التاريخ الذي دارت فيه المساجلة. فرمضان عام 1432هـ، لم يكن عادياً. صادف حلوله أحداث ما سمي بالربيع العربي الذي لفح مصر، وكانت تداعياته على البلد أليمة. ولم تفت الشاعر الجراري هذه اللحظة، ليتساءل عن قاهرته التي أَلِفَها مجتمعاً ينبض بالحياة، وبؤرة للإشعاع الفكري والعلمي والفني. لياليها ساهرة، وجامعاتها عامرة، وحركيتها فاعلة، وهو الأمر الذي بدا للشاعر وكأنه بدأ يخبو، لتحل الدواهي محل الأيام الزاهية، ويتحول الربيع المأمول إلى خريف رمادي. هكذا ولّدت تهنئة من صديق شحنات عاطفية كامنة في دواخل الشاعر ومرتبطة بواقعه المعيش فصبّها في مساجلته؛ ومثل هذه الإشارات التي ترشح بها مساجلات الشاعر، تؤكد ذلك الارتباط العميق لهذا المفكر المغربي بقضايا أمته العربية الإسلامية، والذي نجد أسسه في العديد من أبحاثه العلمية الأكاديمية.

هذه اللمحات ذات الطابع السياسي أو الإشارات التي تتضمن مواقف من قضايا معينة، لم تنحصر تجلياتها في النصوص الجرارية، بل تبدت ملامحها كذلك في أشعار مساجليه؛ ذلك ما نلحظه في إحدى مساجلاته مع الشاعر عبد العزيز التويجري، جرت

(1) من ديوان عباس الجراري، الجزء الثاني، ص، 143.

على هامش ندوة فكرية حول حوار الحضارات، نظمتها منظمة الايسيسكو بمدينة شفشاون في شهر أكتوبر 2006. خاطب التويجري عباس الجراري قال[1]:

أَطَـالَ الْعَمَـرْتِي رَغْمَ أَنِّي نَصَحْتُهُ ... وَذَلِـكَ فِعْـلٌ قَـدْ أَرَادَ بِـهِ حَيْفَـا

وَزَاد أَخُـونَا بَعْـدَهُ مِـنْ جَـزَائِرٍ ... أَبُـو جَـرَّةٍ قَـوْلاً تَعَـدَّى بِنَـا خَيْفَا

وجَـاءَ مِـنَ الإِسْـبَانِ ثَمَّ مُفـوَّهٌ ... وَمِنْ فَارِس وَسْـنَى تترجمُهَا هَيْفَا

وَفَـرْخٌ مِنَ الرُّمَان لمَّـا تَهَـوَّدوا ... يُبِينُ لَنَـا لُطْفـاً وَيُخْفِي لَنَا سَـيْفَا

سياق هذه المساجلة، يشير إلى أن الأستاذ أحمد حسن العمارتي، كان مشاركاً في الندوة، وقد كان مُطيلا في عرضه، رغم تنبيه الأستاذ التويجري بان تكون كلمته من المختصر المفيد. ويبدو أن السيد العمارتي، لم يعر اهتماماً لنصيحة صاحبه.

وتحمل أبيات الشاعر عبد العزيز نوعاً من التضايق، بسبب إطالة بعض المتدخلين في هذه الندوة. لكن الذي يلفت النظر، هو تلك الإشارات التي حملتها المساجلة الشعرية. فهناك «أخونا أبو جرّة» من الجزائر، و«المفوّه الإسباني»، و«الوسنى» من بلاد فارس، و« فرخ من الرومان». هذا المعجم لا يخلو من إيحاءات، وتبدو غير بعيدة عن مشارب السياسة. وهل يمكن ألاَّ تستوقف المتلقي عبارة « فرخ من الرومان» والفرخ من الرجال هو الذليل ؟ وتأتي كلمة «تهوَّدوا»، وهي ذات محمول سياسي واضح في هذا السياق، خاصة وأن الكلام ينظم في أحضان ندوة «حوار الحضارات»، وينجلي ما قد يكون مبهماً، حين وصف الشاعر التويجري هذا «الفرخ الروماني»، بأنه من طينة أولئك الذين جاؤوا إلى «حوار الحضارات» وتحت ردائهم عمرو!

بهذا المعنى، تغدو المساجلة قالباً شعرياً يصب فيه الشاعر مشاعره بكل تموجاتها، وضمنها تفاعله مع ما ينبض به واقعه من أحداث سياسية.

(1) من ديوان عباس الجراري، الجزء الثاني، ص، 91.

والخبيء كذلك في ثنايا شعر المساجلات عند عباس الجراري، ما يقف عليه قارىء هذه النصوص، من إثارة بعض المسائل التي تتصل بمجال الحياة الدينية الإسلامية، وقد يساق ذلك في صياغة لا توحي بُداءة، بحضور مثل تلك القضايا داخل نص يتشح بروح مازحة. لننظر في تلك المساجلة التي دارت بين الجراري والتويجري، والتي انطلقت من ذلك التغيير الذي مس وجه الشاعر عبد العزيز، ورصده الشاعر الجراري خلال جلسة علمية جمعتهما، حيث استغرب الجراري ما رأى، وبعد أن عاد إلى بيته كتب قصيدة في الموضوع، وبعث بها إلى المعني بالأمر، وفيها يقول[1]:

وَجْـهَ ٱلتوَيْجِـــــرِي أَرَى فَمَـــــا لَهُ مُـــغَـــيَّرَا
بِلِحْيَـةٍ قَـــــدْ كَشَـفَتْ مَـشِـيـبَـهُ المُـسَـتَّرَا

جاءت صياغة هذا النص في قالب تجلّله روح دعابة، لكن لم يخل من جد. ذلك أن الشاعر الجراري - وهو المتشبع بالثقافة الإسلامية العميقة - يطرح ضمن النص، مسألة لها أهميتها في الفقه الإسلامي، ترتبط بموقف الدين الإسلامي من إعفاء اللحية.

فمع المداعبة الشعرية وُصفت لحية التويجري بأنَّ[2]:

زَغْـبَـاتُهَـا كـ(قَـرْشَـلٍ) أَوْ نَبْتَـةٍ فَـوْقَ الـثَّرَى
(كُـوَيْـدِمَـا) صَـغِـيرَة مَـعْ (شَـارِبٍ) غَـطَّى العَـرَا
قَـدْ غيَّبَـتْ مَلاَمِحاً كَانَـتْ تَفُـوقُ القَمَـرَا

وفي سياق ذلك يحض الجراري صاحبه على التخلص من هذه الحية، بداعٍ أنها أَخفت ملامحه التي أَلِفَها أحباؤه مليحة، ولكن في نفس الآن، نلمس من وراء هذا الإلحاح

(1) من ديوان عباس الجراري، الجزء الثاني، ص، 116.

(2) نفسه، ص، 116.

على إزالتها، موقفاً دينياً يميل إلى عدم إعفاء اللحية، فيؤكد الشاعر الجراري الإسراع بحلقها، قال[1]:

فَلْيُسْـــــــرِعَنْ لِحَلْقِهَـا وَلاَ يَكُـــــــــنْ مُحَـيَّرَا
بِـٱلْمُـــــــوسَى أَوْ بِـآلَةٍ وَلْيَفْعَلَـنْ كَمَـا يَرَى
إيَّاه أَنْ يُبْـــــقِيَهَـا حَـــــذَارِ أَنْ يُؤَخِّـرا

وهذا التحذير للشاعر التويجري، وإن بدا سياقه في إطار تفكُّهي، فإنه لا يخلو من خلفية تحيل على موقف علماء الإسلام من هذا الموضوع المرتبط بإعفاء اللحية أو حلقها، الذي تعددت حوله الآراء بين مختلف المذاهب. فنبَّه الشاعر الجراري[2]:

بِـأَنَّ دِيـــــنَنَـا أَتَى بِمَوْقِـــــــفٍ قَـدْ سُـطِّرَا
حَاشَـاهُ لَيْـــــــسَ مثـله بِمثـــــــل ذَا قَـدِ ٱنْـبَرَى
فَٱلأَمْـر لاَ يَعْـدُو بِـأَنْ يَكُـون عُرفـاً قَـدْ سَرَى
لِـــــكُلِّ عَـــــصْرٍ ذَوقُـــــهُ وَمَـــا يَرَى بِـــلاَ ٱمْـــتِرَا

وتتم تبرئه الشاعر التويجري، وإزالة أي تأويل ديني لتلك اللحية. والذين يعرفون الدكتور عبد العزيز التويجري، يعرفونه رجلا عميق الإيمان، منافحاً عن القيم الإسلامية مؤمناً بان المسلم الحق ليس بلحية سُدِلت أحياناً بهتاناً !

لقد بدا النص أُفقيا مداعبا، لكن حشوه قضية اختلف حولها علماء الإسلام وكتب فيها الكثير، وما تزال تشغل المسلمين إلى اليوم. وبذلك تكون المساجلة الجرارية حافزاً لخلق النقاش، فيندفع الطرف الآخر للرد والبيان والحجاج على غرار ما جاء

(1) من ديوان عباس الجراري، الجزء الثاني، ص، 117.
(2) نفسه، صص، 117-118.

في جواب الشاعر التويجري، الذي سارع إلى الإجابة مبينا أن لحيته بدون خلفية إيديولوجية، قال[1]:

عَبَّاس تِلْكَ لِحْيَةٌ جَدِيدَةٌ كَمَا تَرَى
وَمَا لَهَا عَلاَقَةٌ بِالدِّينِ حَاشَا الإِفْتِرَا
ولم أكن مُوَسوَساً وما قصدتُ مُنكرا
وَإِنَّمَا وَجَاهَةٌ بِالشَّيْبِ بَعْدَ مَا طَرَا
وَبعْدَ ذَاكَ رُبَّمَا أُزِيلُهَا بِلاَ مِرَا

وفي إطار هذه الإشارات الدينية نقف مع مساجلة جرارية أخرى، ضمنها صاحبها مسألة ترتبط بذبيحة العقيقة. كانت المناسبة حفل عقيقة حفيدة الأديب أحمد حسن العمارتي، دعي لها الشاعران الجراري والتويجري. جرت بينهما مساجلة استدعتها المناسبة، فكتب الثاني مساجلا الأول[2]:

دَعَانِي ٱلْعَمَارْتِي لِلْعَقِيقَةِ ضَاحِكاً فَسَارَةُ بِنْتُ ٱلاِبْنِ أَغْلَى مِنَ ٱلاِبْنِ

فجاء جواب الجراري[3]:

صَدَقْتَ أَيَا عَبْدَ العَزِيزِ مُعَاتِباً لأَحْمَدَ مِن بعد العَقِيقَةِ فِي حُزْنِ
عَقِيقَةُ بِنْتِ ٱلاِبْنِ يَحْلُو ٱحْتِفَاؤُهَا وَيَهْتَزُّ فِيهَا الجَدُّ بِالرَّقْصِ وَاللَّحْنِ
مَوَائِدُهَا مُدَّت بِمَا هُوَ مُشْتَهَى وَمَا لَمْ يِرِدْ فِي ٱلْفِكْرِ أَوْ يَلَكُ فِي الظنّ
وَخَيْمَتُهَا مِثْلُ ٱلقِبَابِ سَمَتْ عَلَى مَبَانِي ٱلْقُصُورِ الشَّاسِعَاتِ بِلاَ مَنّ

(1) من ديوان عباس الجراري، الجزء الثاني، ص، 119.

(2) أنظر النص الكامل في الجزء الثاني من ديوان عباس الجراري، ص، 121.

(3) نفسه، ص، 123.

كِبَـاشٌ كَأَفْيَـالٍ، سِمَانٌ تَعَدَّدَتْ عَلَى غَيْرِ مَا فِي مَذْهَبٍ وبلاَ سَنِّ

ويعلق صاحب النص في الهامش على الإشارة الواردة في البيت الأخير بقوله: «إشارة إلى المذهب المالكي وإلى السنة، ذلك أن عندنا في المذهب، يعق للذكر أو للأنثى بشاة، خلافاً لبعض المذاهب كالشافعي الذي جعل للذكر شاتين وللأنثى واحدة»[1].

فالنص المداعِب، لا يمنع أن يُشرب شحنة معرفية، ترتبط بإثارة قضية جدالية، هي في هذه المساجلة، ذات صبغة فقهية تمس حياة الإنسان المسلم، ويرشح منها جانب من ثقافة المتساجلين.

ولما كان الجراري من الذين لهم صولات وجولات في الساحة الثقافية المغربية، عبر عقود من الزمن، ومؤسساً للدرس الأدبي المغربي في الجامعة المغربية، وغدا بحق عميداً لهذا الأدب وصاحب مدرسة، فليس الأمر غريباً إن نحن وقفنا في مساجلاته على إثارة بعض القضايا الأدبية والنقدية، من خلال تلك الإشارات الواردة فيما تبادله من حوار شعري مع بعض الشعراء والجامعيين.

من تلك القضايا، وضعية الشعر العربي وما آل إليه من ضعف، حوّله من شعر إلى شعير! طرح هذه المسألة وهو يساجل الشاعر مصطفى الشليح، فقد خاطب شاعرُ الرقراق عباس الجرراي في رائية، قال[2]:

إنِّي سألتُ القَوَافِي وهي حائرةٌ بيني وبينكَ عمَّا كان من أَمْرِ
عن ربّة الشعر والأنسام مائسة بما لديها من الأنغَام والشِّعْرِ
أعند صدرك تغفو وهي طارحةٌ عنها مَجاسد صوت أم على صَدري ؟

(1) الهامش رقم 2، ص، 123.

(2) أُنظر النص الكامل لهذه الرائية، في الجزء الثاني من ديوان عباس الجراري، ص، 55.

كان هذا التساؤل حافزاً للشاعر الجراري، لإماطة اللثام عن واقع الشعر العربي في مرحلته المعاصرة، فقال سائلا ومجيباً[1]:

مَهْلاً أَيَا مُصْطَفَى تُلْقِي مُسَاءَلَةً ... لِرَبَّةِ الشِّعْرِ عَنْ إِبْدَاعِهَا الدُّرِّي

.....

وَٱليَوْم مَا ذا الَّذِي تَبْغِي أَخَا فَنَنٍ ... وأَنت تَعْرِفُ أن الشِّعْر فِي دَحْرِ

فَمُنْذُ قِيلَ بأنَّ القَارِضِينَ لَهُ ... فِي العُرْبِ أربعةٌ مَن مِنهمُ يَجْري ؟

أَيْقَنْتُ أنَّ الشِّعْرَ اليومَ غَالِبُهُ ... إلى الشَّعِير ٱنْتَمَى أو قُلْ إلى العُهْرِ

مَا عَاد نَاظِمُهُ يَسْبِي العُقُولَ ولاَ ... لِلْمُوحشِينَ أنيسَ ٱلمَهْمَهِ القَفْرِ

قَد كان لِلكَوْن والإنسانِ بَلْسَمَهُ ... مِرْآةَ عِشْقِ الَّذِي لَمْ يُفْضِ بِالسِّرِّ

المساجلة تدور بين شاعرين، كل منهما متابع للإنتاج الشعري العربي ليس في المغرب، وإنما يتسع الاهتمام، ليشمل أهم ما تنتجه الأسماء الفاعلة في الحقل الشعري في المشرق والمغرب، وقد يمتد الاهتمام إلى ما تموج به الحركات التجديدية على المستوى العالمي، ناهيك عن المتابعة من خلال الكتابة النقدية التي ساهم بها عميد الأدب المغربي، والباحث الدكتور مصطفى الشليح.

يتحرك عباس الجراري من خلال هذه المساجلة بإهابين: شاعراً وناقداً. وترشح المساجلة بموقف نقدي واضح، صادر عن خبرة ومتابعة ودراسة وتمحيص.

وفي إطار الحديث عن الوضعية التي آل إليها الشعر في المغرب، شكا الشاعر مصطفى الطوبي هذا الأمر إلى عميد الأدب المغربي، من خلال قصيدة ميمية، شكلت أسّ مساجلة دارت بين الشاعرين. الحوار هنا بين جيلين، ورغم أن الشاعر الطوبي ينتمي إلى

(1) من ديوان عباس الجراري، الجزء الثاني، ص، 57.

جيل الشباب، فإنه يرى أن ما آلت إليه الكتابة الشعرية المعاصرة في المغرب، لا تنبيء بخير، فحمل شكواه وراح يصبّها في ميمية تقول[1]:

اَلشِّعر فاضَ على الوِجْدَانِ مُحْتَشِمَا وَٱلبَدْرُ هَلَّ عَلى الأَشْرَافِ مُبْتَسِما

قَد كَان لِي وَهَجٌ فِي القَولِ يُطْرِبُني ثُمَّ انزويتُ فَصَارَ الصَّمْتُ مُقْتَحِمَا

خلال هذه القصيدة، تنساب نبرة حسرة على زمن كانت للشعر حُرمة، رآها الشاعر الطوبي انتهكت عُنوة، وَسَامها كل مفلس! قال[2]:

وَلَّى الزَّمانُ الَّذي كُنَّا نُبَجِّلُهُ شِعْراً ونَثْراً لَدَى الطُّلابِ مُنْتَظِمَا

هَـذا يَحُولُ مِنَ الأَشْعارِ أَجْزَلَهَا وَذَا يُصَرِّفُ فِي أَقوالِهِ الحِكَمَا

وَالآنَ يَا أَسَفِي أَنْعَى لَكُمُ زَمَنِي هَذا الَّذي صَارَ فِي التَّاريخ مُنْعَدِمَا

تَكَحَّلَ الخَلْقُ بِالآدَابِ كُلهم شَيْخُ البَلاَدَةِ أَضْحَى شَاعِراً هَرَمَا

إنها صرخة من شاعر شاب، ينتمي عُمْريا إلى الجيل الجديد من الشعراء، وفنيا، هو شاعر لا يسبح في بحور الخليل فحسب، بل مارس الكتابة الشعرية عمودياً ومتحرراً؛ وقد أشار إلى ذلك في قوله[3]:

وصرت عبئاً على الآداب أَعْبُرها أُجَرِّبُ القَوْلَ أَوْزَاناً ومُنْعَدِمَا

ويجيء جواب الشاعر الجراري مساندا لشاعر، يهوى الأصيل من الشعر، وجد نفسه محاصراً من فئة تصطف في طابور يدعي التحديث - دون امتلاك أدواته- والتمرد على كل

(1) من ديوان عباس الجراري، الجزء الثاني، ص، 197.

(2) نفسه، ص، 198-199.

(3) نفسه، ص، 197.

أصيل بعيداً عن تشربه وتأمله. جاءت المساندة من عميد الأدب المغربي لهذا الشاعر ليدفع عنه ما أحس به من ضيم وحيف؛ فخاطبه بقوله[1]:

اَلشِّـعْرُ فَاضَ بِصِدْقٍ فَلْتَدَعْ سَـأَمَا ... وَهَاجَ وَجْدُكَ حَقّاً ليسَ ذَا حُلُمَا

أَبْدَعْتَ رائعةً أَحْيَتْ مَشاعِرنَا ... وأَطْرَبَتْ أَنْفُساً تَاقَتْ لِمَا نُغِّمَا

وأَخْرسَتْ أَلسُناً دَعْوى الجَديدِ لها ... هَدْم الأَصيلِ وما يبدُو لهَا سَقِما

أَبْدِعْ كَما شِئتَ لا تَحفِلْ بذي حَسدٍ ... ولا يَرُعْكَ الذي بالقلبِ قَد نَقَما

مازالَ سَيْلُ قريضٍ منكَ يبعثُ مَنْ ... غدوتَ - ظنّاً - على تَرحالِهَا وَجِمَا

فَآهْنَأْ فأنتَ لِصَافِي الشِّعْرِ تَقرضُهُ ... كالعِقْد لُؤْلُؤُهُ بالتِّبر قد نُظِمَا

فالشِّعْر عندكَ أنغامٌ مُرتَّلة ... به سموتَ وكنتَ النَّجم والعَلَما

هذه المساجلة بين الشاعرين عباس الجراري ومصطفى الطوبي، تبسط جانبا من ذلك الصراع الذي تعرفه الساحة الأدبية في المغرب، بين شعراء يرغبون في حفظ القول الشعري من السقوط في الضحالة، وأولئك الذين يتخذون من الدعوة إلى التجديد مطية للاصطفاف إلى جانب الشعراء، دون أن تتوافر لما يكتبون، تلك المقومات الفنية التي تحفظ للنص شعريته؛ والساحة المغربية ملأى بـ «أبي نقطة»[2].

وأتاحت مساجلات الشاعر الجراري، طرح قضية أخرى لها نسب وقربى بالمجال النقدي، وتتمثل في المفاضلة بين الشعراء. هذه مسألة لها جذورها في تراثنا النقدي،

(1) من ديوان عباس الجراري، الجزء الثاني، ص، 200.

(2) « أبو نقطة»، عبارة كان بعض النقاد في المشرق العربي، يطلقونها على أولئك الذين يكتبون نصّاً يكون السطر فيه مكوناً من كلمة واحدة أو كلمتين، ثم يتبعها صاحب النص بنقط (....) سائراً على نفس المنوال إلى النهاية. والمقصود بفئة أبي نقطة من يسعى إلى حشر نفسه في صف الشعراء بدون حق، علماً أن هناك شعراء كتبوا القصيدة الحرة بشعرية عالية.

فالكتب التي استندت إلى «الموازنة» أو «المفاضلة» أو «الوساطة»، والانتصار لهذا الشاعر أو ذاك، عديدة.

ففي المساجلة التي دارت بين الشاعرين الجراري والشليح، طرحت هذه المسألة، التي رمت - من خلال إشارات - إلى المفاضلة بين شعراء العدوتين: الرباط وسلا، وهو أمر يذكرنا بما كان بين العدوتين التاريخيّتين: المغرب والأندلس، وما دار في هذا المجال كثير، ورسالة الشقندي ما يزال لها في الآذان رنين.

رائية الشاعر السلوي تقول[1]:

اَلعُـدْوَتَـان خِبَـاءٌ لِي يطـرِّزه ... فِتْيَـانُ قَافِيـةٍ بِـالأَنْجُـمِ الغُـرِّ
لكنَّـني قـد أَمُـدُّ الظلَّ مِن وَلَهٍ ... عَلى سَلاَ حيثُ يَرسُو مَركبُ الفَخْرِ
قَـد صِرت مِنْهـا جَمـالاً عـزَّ مطلباً ... وليسَ يُدركُهُ من عِزّه غَيْرِي
وَصَار متّي الذي مـا قَـال قَافيةً ... حَسْـناءَ إلاَّ وهَـامَ السِّـحْر بـالسِّـحْرِ
مُوشحـاً ومـنَ التـاريخِ غُرتـه ... وَمَـا سَـلا غَـيْرُ تَاريخٍ منَ الشِّـعْرِ

نعم ! لسلا تاريخها الشعري، لكن الشاعر الجراري لا يرغب في ولوج باب المفاضله، خاطب الشاعر السلوي فقال[2]:

مَهْلاً أَيَا مصطفى تُلقي مُسـاءلةً ... لِرَبَّةِ الشِّعْر عن إِبْدَاعها الدُّرّي
هـل نَبْعُه من رباط الفتحِ أم بسـلا ؟ ... وهـل بِرِوْضِهمـا مِن أَنْجـم زُهْـرِ ؟
إنِّي - عـلى العلم - لا أبغي مُفاضلةً ... ولا ٱسْتباقاً إلى الميدان إذ أدرِي
أَنَّ الشُّـعورَ بمَـا يُوحيـه دافقُـهُ ... في الضِّفتـين غَـدا رَقراقُه يَسْرِي

(1) من ديوان عباس الجراري، الجزء الثاني، صص، 55-56.

(2) نفسه، ص، 57.

الشاعر الجراري على علم بأن العدوتين (الرباط وسلا)، أنجبتا من الشعراء فحولهم على امتداد التاريخ الشعري لهذه الأصقاع، لكنه نَكَبَ عن سرد هذا التاريخ: وصَدع القولَ[1]:

لاَ أَبْتَغِي ذِكْر فُرسان لنَا رَحَلُوا بالعُدوتين عَدَوا فِي المَدِّ والجَزْرِ
يَنقادُ شِعْرهُمُ سَلْساً بلا كلفٍ تَرُدُّ أصداءَه آفاقُ ذَا البحْرِ

غير أن الشاعر الرباطي حينما مال عن المفاضلة، لم يغفل ذكر بعض أعلام الشعر في مدينة الرباط، وجاء التركيز على أسماء شعراء النادي الجراري، وهم من أجيال مختلفة، كان الشاعر السلوي مصطفى الشليح أحدهم[2].

ما دار بين الشاعرين، سمح للمتلقي بالتعرف على وجه آخر للشاعر الجراري، هو الشاعر /الناقد، من خلال ما صدع به من آراء - في هذا النص وفي مساجلات أُخر - حول مفهومه للشعر، وما طرحه من ملاحظات حول إنتاج عدد من الشعراء الذين محَّص الكثير من أشعارهم.

ورشحت مساجلات عباس الجراري بقضية أخرى، تشكل أهمية كبيرة بالنسبة للحركة الشعرية العربية المعاصرة. ففيما دار بين الشاعر الجراري والشاعر علي الصقلي من مساجلات، أعلن عميد الأدب المغربي الصقليَّ أميراً للشعراء.

مسألة إمارة الشعر من صميم الاهتمامات النقدية الأدبية، لا يعلن شاعر أميراً للشعراء، إلاَّ بعد أن يكون منجزه الشعري، قد سَما إلى درجة عُليا في الإبداع، ويكون هذا الإسم قد ساهم في إغناء التجربة الشعرية العربية وتطويرها، مما يخوله حق التربع على هذه الإمارة. هناك إذاً تمحيص وتنخيل وتقويم، والكل -عمليا- من صميم المسألة النقدية. وتحقق

(1) من ديوان عباس الجراري، الجزء الثاني، ص، 57.

(2) أُنظر أسماء شعراء النادي الجراري الذين أشار إليهم الشاعر، في قصيدته الرائية.

عميد الأدب المغربي من توافر كل المقومات التي تجعل الشاعر الصقلي يستبيئ إمارة الشعر العربي. صدع بذلك من خلال إحدى مساجلاته التي دارت بينهما. كان ذلك سنة 2011 حينما قدم الجراري إلى علي الصقلي، مجموعة من الكتب، فكتب الأخير شاكراً، وقال[1]:

أَغْرَقْتَنِي يا ليتَ كُلَّ غَرِيقٍ ... مِثْلِي، وَفِي بَحْرٍ لِخَيْرِ صَدِيقِ
بَحْرِ اللآلِيءِ يَصْطَفِي أَعْلاَقَها ... فِكْرٌ عشيقُ الصَّيْد، يَا لَعشيقِ !
فِكْرٌ غنيٌّ، عَبْقَرِيٌّ، نَابِهٌ ... يَرْوِي... وَمَا يَرْوِي بِغَيْرِ رَحِيقِ

فجاء جواب الشاعر الجراري يقول[2]:

بَلْ أنتَ من أَغْرَقْتَنِي بِثُمَالَةٍ ... فِي بَحْرِ شِعْرٍ رَائِقٍ وَأَنِيقِ
بالحُبِّ يسمُو مَوْجُه مُتَراقصاً ... زَهْواً بِمَا أَهْدَيْتَنِيهِ رَشِيقِ
أَهْدَيْتَنِي ما فاقَ كلَّ هَديَّةٍ ... بِالتِّبر أو بالدُّرِّ أو بِعَقِيقِ

وخَلَلَ هذا النص، أقرَّ عميد الأدب المغربي إمارة الشعر للصقلي، وشفع إعلانه بتواضع العلماء حين قال[3]:

أَنَّى لِمِثْلِي اَنْ يُسَاجل قِمَّةً ... في الشِّعر تعلُو ذِرْوَ كلّ شَهِيقِ
قد حُزْتَ في سَبْقِ القَوافي مِشْعلاً ... فَغَدَوْتَ في الإبداع فَوْحَ عَبِيقِ
والفارسَ المِغْوَارَ دونَ مُنَازِعٍ ... فِي سُوحِ هذا السِّفْرِ جِد خَلِيقِ
فَٱهْنَأْ بما قَد نِلتَهُ وٱفْخَرْ بِهِ ... وٱسْعَدْ فأنتَ أَمِيرُهُ بِحَقِيقِ

(1) أُنظر النص الكامل، في الجزء الثاني من ديوان عباس الجراري، صص، 147-148.
(2) من ديوان عباس الجراري، الجزء الثاني، ص، 149.
(3) نفسه، صص، 149-152.

وسيؤكد الشاعر الجراري أحقية الصقلي بإمارة الشعر بعد سنتين، حينما كتب سنة 2013 قصيدة رائية مطلعها[1]:

اَليَـوْمَ مَجْلِسُـنا بَهِيٌّ نَـيِّرُ والنَّادي في حفـلٍ يَتيـهُ ويفخرُ

وفيها يقول[2]:

إذ أنـتَ في شُـعَراء عَصْرِكَ قَائِدٌ وَزَعِيمُهُـمْ وَعَمِيـدُهُمْ وأُكَـرِّرُ
هِي بَيْعَـةٌ قـد كنتُ قبـلُ كتبتُها ودعوتُ في دَرْسِي لهَا وأُبَرِّرُ
واليـوم فالنّـادي الجراري بحفْلِه والسَّـعْدُ يَغْمُـرهُ يُنَـادي يُظْهِـرُ
أنَّ الصِّقـلِّي شـاعرٌ فَـرْدٌ لهُ قِـدْحٌ مُعـلَّى بـالبدائـعِ يَسْـحَرُ
في المغربِ الأَقْصَى وَيَعْرُبَ كُلِّهِمْ في سَـائِرِ الأوطانِ رَسْمُكَ يُنْـشَرُ
فَٱهْنَأ - أخي - بـالتـاج رُصِّـع لُؤلؤاً وَلأَنْـتَ بـالإِجْمَاعِ أنـتَ الأشـعرُ

لقد توسل الشاعر الجراري بالمساجلة، لإعلان إمارة الشاعر علي الصقلي، ومن خلالها إعادة الاعتبار للإنتاج الشعري المغربي الذي عانى من التهميش، فنقل مشعل القيادة الشعرية من المشرق العربي إلى بلاد المغرب.

إن مبايعة شاعر أميراً في دولة الشعر والشعراء، أثارت - في المرحلة الحديثة منذ إمارة شوقي - لغطاً، وكان هناك الراضي والرافض. عارض الكثيرون إمارة أحمد شوقي، وبعد وفاته تنازعت أسماء عديدة حول اللقب، منهم عباس محمود العقاد، وأمين نخلة، وصلاح عبد الصبور، وبشارة الخوري (الأخطل الصغير)، لنجد في الجناح الغربي من العالم العربي، الشاعر مفدي زكريا يرى نفسه أحق بهذه الإمارة ! وها هي اليوم يتربع فوقها صاحب النشيد الوطني، العليّ الصقليّ المغربي.

(1) من ديوان عباس الجراري، الجزء الثاني، ص، 167.

(2) نفسه، ص، 168.

ولما كانت مساجلات الشاعر الجراري تجذب الطرف الآخر إلى الخوض فيما يطرحه من قضايا، فقد انبرى الشاعر علي الصقلي إلى الإجابة، ورد الجميل لمن أمَّره في دولة الشعراء، مضفياً على الجراري لقب «أمير البيان»، فقصَّد قائلا[1]:

أميرَ ٱلبَيَانِ بِأَعْلَى سَرِيْ وَهَلْ لِلْبَيَانِ سِوَاكَ أَمِيْ ؟
تَصُوغ الزَّواهِي وَلَوْ مِنْ حَدِيدٍ فَيَغْدُو الَّذِي صُغْتَهُ مِنْ حَرِيْ

جماع القول، أن المساجلة يمكن أن تتحول إلى قناة يشحنها الشاعر بمجموعة من القضايا الأدبية والنقدية، مما أَلِفَ المتلقي متابعته في الدراسات الأدبية التي تتوسل بالصناعة النثرية، وقدمت المساجلة الجرارية نموذجاً لذلك.

ويسمح فن المساجلة في المنجز الشعري الجرَّاريّ بفتح زاوية أخرى يمكن أن تشكل مدخلا لكشف جانب آخر، يرتبط أساساً بشخصية الشاعر. فالمساجلة باعتبارها قناة للتواصل مع الآخر المتعدد، ومن خلال تواصلات تتباين في الزمكان، فإنَّ النص المنبثق من تلك اللحظات الشعرية، يرسم ملامح متعددة لمبدعه. من ثم جاءت مساجلات الجراري حاملة لبعض سماته.

تقدم المساجلة الجرارية ما يتمتع به الشاعر من نبل ودماثة الخُلق، ورقة المشاعر، وبياض السريرة. تلمس ذلك حينما تحمل مساجلته إشادة بالآخر، ومساندة لمن يتلمس طريقه في درب كتابة الشعر. لننظر في مساجلة للشاعر مصطفى الشليح كيف انبرى إلى التنويه بالكتابة الأدبية لهذا المبدع شعراً ونثراً، فقال[2]:

أَنتَ الموفِّي لحق فاتَ أو لحقَا يَا مُصطفى وَلِسَانُ ٱلقَلْبِ قَد نَطَقَا

(1) من ديوان عباس الجراري، الجزء الثاني، ص، 193.

(2) نفسه، ص، 62.

بِـالحُـبِّ تَسْـكبُه شِـعراً وَتَنْـثُرُهُ مِثـل الأَزَاهِـرِ فَوّاحـاً بِـه عَبِقَـا
فالشِّـعرُ عندكَ مَعْشُـوقٌ تُـدلِّلهُ والنَّـثْرُ نَفثـةُ سِحْـر صُغْتَهـا نَسَـقَا
لا ذالـكَ تَقْرضُـهُ وَزْنـاً وقافيـةً بل كَامِناً مِن سَجايا الرُّوحِ قد بَسَقَا
أَمَّا المقاماتُ إن تَكْتُبْ صَحَائِفَها فَالتِّبْرُ ذَوْبٌ وليـسَ الحـرفَ والوَرَقَا

شهادة من عميد الأدب المغربي في حق أحد شعراء المغرب المتميزين، صاغها الجراري طي مساجلة، وهي صادرة عن أكاديمي خبير بواقع الشعر العربي في المغرب، ولكنها في نفس الآن تنم عن روح أستاذ ومُربٍّ متشبع بقيم إنسانية نبيلة، يصرِّفها بين مساجليه.

وبنفس القلم النبيل، سطر إشادته بالشاعر مصطفى الزباخ، منوِّهاً بكفاءته العلمية وبراعته الشعرية، فقال مساجلاً[1]:

زبَّاخُنَـا أضحَى ٱسْمُـهُ سَـبَّاحا والبحْـرُ أمـسَى بـٱسْمِـه فَوَّاحـا
إذْ جَـدُّه جـازَ المسـافةَ عَائمـاً بشَـجَاعَةٍ لا يَخْتَـشِي سَـفَّاحَا
وَالمصطـفى الـزّبَّاخُ قَافٍ نهجَهُ لكنْ ببحْـرِ مَعارفٍ قـد سَـاحَا
وكـذَا الفنـونِ بِشِـعْرِها وبنثْرِهَـا وٱسْـأَلْ نِتاجـاً تَلْقَـهُ بَوَّاحـا

وتتجه الإشادة بالمسَاجِل إلى إبراز شيم أخرى ذات بعد اجتماعي، على غرار ما نجده في مساجلة الجراري مع الشاعر عبد العزيز التويجري، حيث كتب العباس مثنياً على ما يتمتع به هذا العربي الأصيل من كرم حاتمي، ينم عن شرف الأرومة، وأصالة المحتد، وعلو الهمة، فقدم الجراري الشاعر التويجري إلى المتلقي في هذه الصورة، قال[2]:

(1) من ديوان عباس الجراري، الجزء الثاني، ص، 88.

(2) نفسه، صص، 103-104.

أَبَا نِزَارٍ وَإِنْ سَابَقْتَنِي كَرَمَا ... فالسَّبقُ طَبْعُكَ لاَ يَخْفَى وذِي الشِّيمُ

عَوَّدْتَنَا زَرْدات ليسَ يُشبهها ... مَا عندَ حَاتِمِهِمْ أَنَّى لهُ الكَرَمُ

والبيتُ عندكَ مفتوحٌ لزائِرِهِ ... العُرْبُ أنتَ لَهُمْ قَصْدٌ كَذا العجَمُ

لازلتَ تَسْمو إلى العَلْيَاءِ مُعْتَلِياً ... أَعْلَى المعَالي فذالكَ العِزُّ والشَّمَمُ

لَمْ اَدْرِ كيفَ أسوقُ القولَ فيكَ ثَنَا ... فأنتَ فيهِ لَعَمْرِي الرَّأسُ والعَلَمُ

هذه المعاني التي ترشح بإعلاء كعب الصَّحب، لا تصدر إلاَّ عن روح تشربت شريف الأخلاق، ونفس درجت في مراتب النبل، ولا تنحصر تجلياتها في الإشادة فحسب، بل نلمسها كذلك في روح المساندة، حينما تكون مطلوبة، كما تبدّى ذلك في المساجلة التي دارت بين الشاعر الجراري والشاعر مصطفى الطوبي، سبقت الإشارة إليها.

وتتخذ المساجلة الجرارية أحياناً منحى آخر، يُدخلها باب التواصل الاجتماعي، فتنظم المقطوعة الشعرية بنَفَس رسالي، تسأل عن الحال، على غرار ما نقرؤه في مساجلته مع الشاعر أحمد السوسي التناني، حين أجرى عملية جراحية على إحدى عينيه، ثم سافر إلى مراكش لقضاء فترة نقاهة، فدارت بين الشاعرين مساجلة بالمناسبة حيث كتب التناني معتذراً عن غيابه عن مجلس النادي الجراري وقال[1]:

إن غبتُ عن مجلسكَ الشهيرِ ... ولم أرِدْ من مائه النَّميرِ

فأنت في فِكْري وفي فُؤادي ... تخيُّلاً أشمُّ عِطْر النّادي

مَعْذرتي أَنْ كنتُ في مُراكشْ ... أَنْشَقُ مِن رُطوبةٍ وهَامشْ

(1) من ديوان عباس الجراري، الجزء الثاني، ص، 157.

فجاء جواب الجراري متضمناً السؤال عن الحال، والتطلع إلى الاجتماع بإخوان مجلس الجمعة، قال[1]:

فَأَقْبَلْ أخِي عِبَارتي في الشُّكْرِ ... مع الدّعاءِ دائماً في الذِّكْرِ
حتَّى تكونَ مُنْعَماً بِعَافيةْ ... ما عانيتَ للعيون شَافِيهْ
أمَّا ٱجْتماعُ النّادي بالاخوانِ ... فَهْو المَشُوق لِلقا التَّنانِي
للشِّعْرِ تُنشدُهُ للأسماعِ ... يُطربها حَثّاً على الإمتاع
نَرجو جَميعا عودةً حَميدةْ ... إلى الدِّيار بسلا المَجيدةْ

بهذه الروح تكشف المساجلة عن تواصلات الشاعر الجراري الاجتماعية، وينسج القصيد ملامح من طبيعة هذه الشخصية في بعدها الإنساني، بل إن هذا التواصل الاجتماعي، نجده يتسع أكثر في مساجلات أخر، ليشمل الحديث عن أسرة من يساجله، زوجة وأبناء وأحفاداً، وهو الجانب الذي رسمته المساجلة الأنجولاسية في بعض أجزائها.

ومن إهاب المساجلة الجرارية، تنبلج صورة أخرى للشاعر قد لا يعرفها الكثيرون.

والشعر كشَّاف، من ثم يضع قاريء مساجلات عباس الجراري يده على جانب خفي من شخصية الرجل. يتمثل ذلك في الروح المرحة التي تسكن أعماق هذا الشاعر.

تبرز هذه الروح في نصين أساسيين، ساجل الأول الشاعر البحريني عبد الرحمان رفيع، وخاطب الثاني الشاعر السعودي عبد العزيز التويجري، دون أن يعني ذلك، غياب هذه الروح في نصوص أخرى، ولكنها أجلى في هذين.

كتب عبد الرحمان رفيع قصيدة بعنوان: «حفلة رقص»، رسمت حالة الشاعر الذي

(1) من ديوان عباس الجراري، الجزء الثاني، ص، 159.

وجد نفسه بين حُور تفتَّتَ منهن قلبه فُتَاتا، بيد أن الشاعر /الشيخ لا حول له ولا قوة، فدوَّن شكواه شعراً وقال[1]:

أَحُـوراً مـا أراه أمْ بَنَـاتَا فَـلَمْ أَرَ مِثـلَ حُسْـنِهِمُ بتَـاتَا
إذا قَامـوا لِمـشْيٍ أو لِرقْـصٍ تفتَّـتَ منهـم قلـبي فُتَـاتَا
رَأَيْتُهـم فَنُحْتُ على شَـبابي وسيفٍ فيَّ قد عَشِقَ السُباتَا

إلى آخر القصيدة التي ترسم حالة عجز عند هذا الشاعر، قدمها في طابع ساخر. فعمد الشاعر الجراري إلى إجابته، مواسياً وساعياً إلى استنهاض همته، زارعاً في نفسه الأمل بعودة الروح، وقال مخاطباً[2]:

تمهـل يـا رفيـع، آرْجُ الثَّبـاتا فليس الغُمض في عين مماتا
تَصَبَّر لا تكـن عجـلا بيـأسٍ فـإن الله قـد يحـيي المـواتا
ويبعثُ في الجمـادِ الرُوحَ حتّى كأنَّ البيـدَ قـد تغـدو فُـراتا
دَعِ الشَّـكْوى لِلَيـلٍ أوْ بِهَـمٍّ وَقُمْ تُحْيي الذي في الظَّن فاتا

واستمر الجراري في مُداعبته، يبث الأمل في نفس الشاعر عبد الرحمان رفيع، ويبعد عنه حديث الموت، محوّلا شعيرات المشيب إلى نَوْرٍ كالذي في القضيب الرطيب[3].

(1) أُنظر النص الكامل في الجزء الثاني من ديوان عباس الجراري، ص، 183.

(2) أُنظر النص الكامل في الجزء الثاني من ديوان عباس الجراري، ص، 188.

(3) إشارة إلى قول الشاعر ابن الرومي:

قد يشيب الفتى وليس عجيبا أن يُرى النَّوْرُ في القضيب الرطيب

وزاد مُمازحاً[1]:

وخَـلِّ الموت جنباً من حديث ... وَلاَ تُغْلِـنْ عَـزاءً أو وفَـاةَ
مخافةَ ما بَدا لكَ مِن مَشيبٍ ... فهُـو لِمثـلِ سِـنِّكَ قـد يُـواتَى
فإنَّ الشـيب للشـبان بـدءٌ ... ومـا كان الختـام بـه حُتَـاتَا

لقد كتب الشاعر الجراري هذه القصيدة مُفاكها، وبهذه الروح خاطب الشاعر عبد العزيز التويجري حينما عمد هذا الأخير إلى إسدال لحيته، أخذت شكل ما يعرف بـ« اكْوِيدْما» اتخذها الشاعر مادة لصياغة مساجلته، فقال[2]:

وَجْـهَ التويجـــــري أرَى ... فَـــــــمَا لهُ مـغـيَّرا
مـــعـــرَّفـــا أعـــرفُـــهُ ... فصـــــار لي منكَّـرا
بِلِحْيَـةٍ قَـــــد كَشَـفتْ ... مَـشِـيـبَـهُ المُـسَـتَّرا
زَغـبـاتُهـا كـ(قَـرْشَـلٍ) ... أو نَبْتَـةٍ فـوق الثَّرى
(كُـوَيـدِمـا) صَـغِـيرة ... مـعْ (شـارب) غـطَّى العَـرَا
قـــد غَيَّبَـــتْ مَلاَمِحاً ... كانـتْ تَفُـوق القَمَـرا

وعلى هذا الإيقاع الفكه ينسج التويجري جوابه فيقول[3]:

عبّـاس تِلـكَ لِحْيَـةٌ ... جَديـــدةٌ كـــمَـا تَرَى
وَمـــالَهَـــا عَـــلاَقَـــةٌ ... بالـــدِّين حـــاشَـا الإِفْـتِرَا

(1) أُنظر النص الكامل في الجزء الثاني من ديوان عباس الجراري، صص، 188-189.
(2) من ديوان عباس الجراري، الجزء الثاني، ص، 116.
(3) أُنظر النص الكامل في الجزء الثاني من ديوان عباس الجراري، ص، 119.

وإنَّمَـــــــا وَجَـــاهَـــةٌ بالشَّيْبِ بـــعدمـا طَـــرَا
فـــقـــد سَئِمتُ حَلْقَهـا والـــجُـرْحُ مـــنـهُ مَـا بَرَا
وَلِحْيَـــتي خَـفـيـفـةٌ تُبـــدي جَـمـالاً آخَـرَا

هذا النمط من المساجلات، رسم لنا جانباً من شخصية الشاعر عباس الجراري، الإنسان المرح، الذي يبني دعابته الشعرية، على المفاكهة الجميلة، يرسلها بين خلانه، متوسلا بالعبارة الصادقة، المشبعة بالعواطف النبيلة.

وإذا كانت المساجلات الشعرية الجرارية، قد أطلعتنا على جوانب يستكمل بها الدارس صورة الجراري الشاعر، فإن الملاحظ بعد قراءة هذا المتن، أن شعر المساجلات في المنجز الشعري الجراريّ، قد تنكب بعض المواضيع التي ألفناها في هذا النمط من القريض، يتبادلها الشعراء فيما بينهم فيما يكتبون من نتف أو مقطعات أو قصائد.

لقد غاب عن مساجلات الجراري موضوع الألغاز، الذي كان شيئاً مألوفاً عند الشعراء المغاربة منذ القديم[1]. ربما بدا للشاعر أن التلغيز لم يعد سائغاً في مرحلتنا المعاصرة؛ كما أحجمت مساجلاته عن الخوض في مسائل لغوية ونحوية، مما كان يغري الشعراء القدماء، فيتساجلون حولها ويطيلون في الشرح والأخذ والرد. وبقدر ابتعاد المساجلات الجرارية عن مثل هذه المواضيع بقدر ما كانت إشاحة صاحبها عن جعلها حلبة لاستعراض الصنعة الكلامية، كما تطالعنا خصيصة أخرى، تتمثل في ابتعاد هذه المساجلات عن القذيع من الكلام، الذي كان يتسرب إلى مساجلات بعض الشعراء المغاربة، إلى درجة يقترب فيها الحوار الشعري، عند بعضهم، من الإسفاف[2].

(1) أُنظر في هذا الباب كتاب « الموجز في الشعر الملغز: جمع ودراسة» للدكتور السعيد بنفرحي.

(2) أُنظر « المساجلات الشعرية في العهد اليوسفي»، ضمن كتاب « دراسات في الأدب العربي بالمغرب الحديث»، محمد احميدة، جـ 2، ص، 5.

وتأسيساً على ما بسطنا القول فيه، نجد أن المساجلات عند عباس الجراري، لم تكن رصفاً لكلمات باردة، ولا رصَّ ألفاظ خواء، بل نسيجاً شعريا مليء مشاعر صادقة، حملت طيّها قيما إنسانية نبيلة، وطرحت قضايا، ورسمت في نفس الآن، قسمات لشخصية متفتحة، لها تواصلات اجتماعية متعددة، لم تنحصر في حدود الوطن، بل تجاوزت إلى آفاق أرحب وأوسع.

بقي سؤال عالق، قد يحيّر أفق انتظار المتلقي ؟

لماذا غَيَّبت المساجلات الجرارية صوت الشواعر ؟ لا صدى للصوت النسائي الشاعر ضمن المتن الذي تمت محاورته ! علماً أنّه قيلت في عباس الجراري عدة قصائد بإيقاع المؤنث، إشادة واعتزازاً وتقديراً !

***

مدخل نقدي لقراءة أشعار
(من ديوان عباس الجراري)

د. محمد البوري(*)

من أكثر مهام النقد الأدبي خصوبة وحيوية وساطته بين المبدع والمتلقي، وهو حين يمارس هذه الوساطة يقترح قراءة ممكنة للإبداع لتمثله وتذوقه وذلك باعتباره تعبيرا فنيا عن تجربة إنسانية. وبإمكان النقد الأدبي أن يقدم أكثر من قراءة متكاملة للإبداع تبعا للتطورات الدائمة التي تعرفها مناهجه، ولأن الإبداع نفسه قابل لقراءات متعددة ولا نهائية. ومع هذا وذاك تؤكد الممارسات النقدية الأدبية أن مدى نجاح قراءة نقدية ما في وساطتها، وأكثر من غيرها مفسر بطبيعة مكونات النصوص الإبداعية نفسها ومدى تجاوبها مع مقتضيات منهج نقدي معين دون آخر.

وبناء على هذا المفهوم للنقد الأدبي نقدم في الدراسة التالية مدخلا لقراءتين متكاملتين لنصوص شعرية (من ديوان عباس الجراري). وأولاهما أنجزت بمفاهيم سيكولوجية، والأخرى اعتمدت مرجعيات أدبية نظرية أسلوبية.

(من ديوان عباس الجراري) مختارات شعرية في جزأين أخرجها الدكتور محمد احميدة، وتضم قصائد ومقطوعات ونتفا من الشعر العمودي فضلا عن ثلاث قصائد من الشعر الحر أو التفعيلي، وقصيدة زجلية. و شكلت هذه المختارات مقتطفات من ثلاثة دواوين شعرية للشاعر غير مطبوعة هي (ديوان أشواق) و(ديوان مع حبي ورضاي)

(*) أستاذ جامعي، المدرسة العليا للأساتذة، جامعة محمد الخامس، الرباط.

و(ديوان إخوانيات). وقدمت المختارات موزعة على ثلاثة أقسام تبعا لمصادرها في الدواوين الثلاثة السابقة، وقد ضمت على التوالي قسم الأشعار التي نظمها الشاعر في زوجته أو بعثها لها أولا، وقسم الأشعار التي وجهها إلى أبنائه ثانيا، وقسم الأشعار التي جاءت نظما على نظم مع أصدقاء الشاعر وإخوانه ثالثا.

يراعي تقديم هذه المختارات وبحرص ملحوظ ضبط وتحديد تواريخ نظم الأشعار ومناسباتها مما يسمح، وبعد إعادة عرض كل الأشعار حسب زمن نظمها، بتتبع مسار التجربة الشعرية من بداياتها أوائل ستينيات القرن الماضي إلى اليوم .

وفي مدخل هذه القراءة و من الناحية الأولى الشكلية نسجل أربعة معطيات افتتاحية تسهم في تمثل التجربة الشعرية التي تشخصها هذه المختارات الشعرية :

والمعطى الأول تلخصه ملاحظة كون أغلب النصوص الشعرية في هذه المختارات عبارة عن مقطوعات أو نتف وفيها يكون الشعر ومن الناحية الأدبية الفنية الجمالية وسيلة تواصل أكثر من أن يكون تشكيلات للوحات شعرية فنية.

والمعطى الثاني ويتضح باستحضار أن أقدم النصوص الشعرية في هذه المختارات تعود إلى سنة 1960 وأحدثها مؤرخ بسنة 2016، وهي فترة تمتد زمنيا عبر ستة عقود، وبالنظر إلى الكم الشعري المحدود الذي تضمه هذه المختارات، وطول زمن التجربة الشعرية. وبالنظر كذلك إلى تمحور مواضيع الأشعار حول ذات الشاعر وعلاقات الشاعر في محيطه الأسري والاجتماعي، باستحضار ذلك كله يمكن القول إن عباس الجراري الشاعر عاش تجارب إنسانية وواجه في حياته لحظات انفعالية دفعته إلى التعبير عنها شعرا. ولذلك نرى أن الأشعار في هذه المختارات تدور في دائرة المشاعر والانفعالات والعواطف الذاتية، وبعيدا عن المواضيع الشعرية الغيرية الوطنية والقومية والدينية، وهي القضايا التي عني بها الباحث الأكاديمي الدكتور عباس الجراري في كتاباته النثرية العديدة.

والمعطى الثالث تفصح عنه التشكيلات العروضية التي تقولبت فيها القصائد، إذ نظمت أغلب أشعار المختارات وفق نظام البيت والشطرين في القصيدة العمودية، وكتبت ثلاث قصائد بعروض شعر التفعيلة، وصيغت قصيدة واحدة بالعامية زجلا. وتؤكد قصائد التفعيلة ضمنا أن الشاعر والجامعي المختص في الدراسات الأدبية يعتقد أن المشكلة في شعرنا العربي اليوم ليست في (الشكل) بقدر ما هي مطروحة في الموضوع، أو قل إنها ليست في الأسلوب بل هي في الجوهر. أما القصيدة الزجلية فتقول بأن النص الأدبي يكون شعريا معبرا سواء أكان بالفصحى أم بالعامية.

والمعطى الرابع يظهر في قوافي أشعار هذه المختارات، وحيث نقرأ رباعيات وقصائد عمودية وحروف الروي فيها متنوعة إلى جانب قصائد الروي الموحد، وفي هذا تعبير من الشاعر عن الإيمان بأن المكون الإيقاعي في الشعر العربي خاضع لقانون التطور وقابل لاستيعاب الجديد وتجاوز رتابة القصيدة العمودية.

ومن ناحية ثانية وبغض النظر عن تقسيم أشعار المختارات إلى مجموعات حسب المخاطب أو المعني بالشعر (الزوجة والأبناء والإخوان) وإدراج قصائد الرثاء في باب الإخوانيات، وهي وجهة نظر ومحل نظر. وعلما بأن ترتيب الأشعار في كتب الدواوين والمختارات الشعرية وعلى طريقة القدماء يكون حسب ترتيب حروف المعجم أو الأغراض الشعرية، أوهما معا. كما يكون حسب تواريخ نظم القصائد على طريقة المحدثين.

وعلما بأن الاختيار الشعري ووضع المختارات الشعرية قراءة نقدية لتراث شاعر أو شعراء تمكن الجامع والمختار من انتقاء النصوص الأكثر تمثيلا لأسلوب الشاعر أو مذاهب الشعراء. وباستحضار أن وحدة شخصية الشاعر بمختلف أبعادها، وهي في (من ديوان عباس الجراري) الزوج والأب والأخ الصديق، نميل مع الدراسات النقدية الحديثة إلى القول بأن التجربة الشعرية التي يعبر عنها الشاعر في شعره تكون أوضح حين تعرض النصوص الشعرية متوالية حسب تواريخ نظمها، ودون مراعاة تباين موضوعاتها وحينئذ سيظهر للمتلقي مباشرة وهو يقرأ النصوص ويتفاعل معها مسار تجربة الشاعر الإنسانية،

وتتضح له تطورات أساليبه الشعرية، وتتحدد فترات تدفق الشعر لديه أو انحباسه حين يتوقف نظمه، ويبقى قبل ذلك وبعده لشخصية الشاعر تماسكها ووحدتها.

وبالتعمق في تحليل موضوع هذه المختارات الشعرية يمكن القول إن موضوعها هو الوجدان والتعبير عن مشاعر وانفعالات زوج عاشق وأب حنون عطوف وأخ وفي ودود، وبذلك أصبحت الأشعار فيها سجلا للوجدان، وتأريخا شعريا لكوامن ذات الشاعر. ولذلك نرى في أشعار الزوج المحب العاشق لحظات الشوق والحنين /والبعد والقرب/ والأمل واليأس / والحيرة والغيرة / والعتاب والاعتذار / والذكريات / والتهاني. كما نعاين في أشعار الأب الحنون العطوف لحظات الشوق إلى لقاء الأبناء المغتربين وتشجيعهم والدعاء لهم والفرحة بنجاحاتهم. ونتابع في أشعار الإخوان الارتياح والتهنئة والشكر وآلام الفراق.

وتكشف تلك الأشعار طبيعة التجربة الوجدانية التي عاشها الشاعر في مختلف تجلياتها. وفيها يظهر حب الشاعر العاشق حبا سويا وليس (نرجسيا) كحب عمر بن أبي ربيعة[1] أو نزار قباني وليسا حبا (مازوخيا) كحب مجنون ليلى بل هو حب سوي فيه شيء من العقل وشيء من القلب وشيء من الجسد، كما يقال وعلما بأن الحب بدون عقل يكون حبا أعمى، وبدون قلب يصبح حيوانيا، وهو بدون جسد حب العجز أوسن الحرج. ومن خلال تلك الأشعار يَمْثُلُ الشاعر وهويعاني تباريح الشوق إلى لقاء أبنائه المغتربين ويمارس أبويته بحب وعطف وإشفاق و بنصح وتوجيه وبدون أمر ونهي أو استعلاء. وتقدم تلك الأشعار الشاعر مع إخوانه خفيف الروح وحاضر البديهة وطيب العشرة ووفيا للصداقة.

(1) أنظر كتاب (النرجسية في الأدب العربي، دراسة في شعر عمر بن أبي ربيعة ونزار قباني) للدكتور جمال النوافعة طبعة وزارة الثقافة الأردنية 2013. وكتاب (النرجسية في أدب نزار قباني) للدكتور خريستو نجم طبعة دار الرائد العربي بيروت 1983.

ومن تجليات العقل في ذلك الحب الاعتراف بفضل المحبوب على المحب، والاستقواء على مصاعب الحياة بمعاضدته، والاحساس بالطمأنينة والسعادة بوجوده، وهويعبر عن ذلك في قوله :[1]

1 - تواصل عشقي رغم كل تغيبي وتغرقني أفضالها لا تعدد
حميدة بالأشواق تلهب مهجتي لوصل به حزني يرى يتبدد
2 -...فأجبتها إني حميدة لا أرى إلاك كنت لي المسرة والخيرا[2]
ولأنت لي وعلى الدوام حقيقتي والروح فلتهني وكوني لي البشرى
فبها أعيش ودونها أنا قد أذو ق لذي الحياة بحلوها المرا
3 - بل أنت لي سر الحياة وقوتها إذ كنت لي برءا وكنت شفاء [3]
4 - كيف السلو عن التي أحيا بها وبها أكون وفي حماها أستقر [4]

ومن تجليات القلب التصريح بالحب والتعبير عن شوق دائم إلى المحبوب رغم أنه معه، وكذا حين يكون بعيدا عنه ويبدو ذلك في قول الشاعر :

1 - ... أني بحبك أحيا قلتها علنا أسمعتها كل من عاشوا ومن قد رقدوا [5]
إني أكررها من غير ما ملل فليشهد الله فهو الحق والعمد
2 - حميدتي والشوق روع مضجعي ولوأن قربك لا يفارق مخدعي[6]

(1) من ديوان عباس الجراري، الجزء الأول، ص، 91.
(2) نفسه، ص، 77.
(3) نفسه، ص، 94.
(4) نفسه، ص، 63.
(5) نفسه، ص، 101.
(6) نفسه، ص، 113.

3 - طال الفراق وزادت الأشـواق والقلب مـزق والدموع تراق[1]

أين الوصال وأين مني قربه والبعد في (عَمَّان) ليس يطاق

ما ذقت طعـم النـوم طيـلة مكثه فمـتى يزول ويسـتعاد مـذاق

لهفي عليكَ حميـدتي قرب اللقا وأنا إليكَ بلوعتي مشتاق

فالطـائر الميمـون حلق مسرعا لكنـه بالبـطء سـار يسـاق

4- هو العيد عندي ليس فطرا ولا أضحى ولكن مدى الأيام والله شاهد [2]

عـلى حبنـا الملتـاع يشهد أنني بـه ما حييت العمر قلـبي لائذ

يباركـه الرحمـان في كل لحظـة مباركـة العيـدين بـل هـو زائـد

من تجليات الجسد أن يرى المحب جمال المحبوب يزداد بهاء مع توالي الأيام ومن أقوال الشاعر في ذلك :

1 - في كل عيـد ترتـدين بهـاء ويزيد حسـنكَ نضرة وسـناء [3]

لاتفعـل الأيام فيكَ سـوى الذي يبـدي جمالكَ رونقـا وضياء

2 - أرى حسـنها الباهي يزيد تألقا وحـبي بهـا دومـا يزيـد تعلقـا

حميـدة مهمـا العمـر مـر فإنهـا هي الشمس في أنق تضيء تأنقا [4]

(1) من ديوان عباس الجراري، الجزء الأول، ص، 74.

(2) نفسه، ص، 106.

(3) نفسه، ص، 94.

(4) نفسه، ص، 109.

3 – وقوام المحبوب في عين الشاعر : [1]

بـدا كمثـل شمعـة الأمـاسي تزيـل ظلمـة وكل بـاس

ومن تجليات الشوق إلى لقاء الأبناء المغتربين تأكيد آلام الفراق والبعد، والابتهاج بقرب اللقاء قول الشاعر الأب :[2]

1 – قالـوا الفـراق شـفاؤه يتأكـد والصب ينسى والجـراح تضمد

فأجبتهم هذي مقالة من سـلا - مـن لم يجـرب حـاله يتجدد

سـلني أنبئـك الحقيقـة واثقـا -- أن الهوى في القلب دوما سـيد.

2 – وهو وحرمه يأملان عودة الأبناء إلى الوطن يقول : [3]

ويعـود للشـمل المفـرق جمعـه وتـتم فرحتنـا فـذاك الموعـد.

3 – ويعبر الشاعر عن اشتياقه إلى مهاتفة حفيدته نور ولقائها ويقول : [4]

كان النـداء لنـا يثـير تبـسما مـن ثغرهـا حلـوا عليـه سرور

أين النـداء الآن عـبر هواتف هـل ضمة تشـفي الغليـل يثـور ؟

لكن بوعد إن يشا ربي غدا سـنزورها نطـفي اللهيـب يفور

ولنا في إجراء استبطان نفسي[5] مرجع أدبي نقدي لتمييز قوة التعبير الشعري

(1) من ديوان عباس الجراري، الجزء الأول، ص، 98.

(2) نفسه، ص، 130.

(3) نفسه، ص، 121.

(4) نفسه، ص، 131-132.

(5) الاستبطان introspection (هو تلك الملاحظة الذاتية التي يقوم بها الفرد لعملياته العقلية وما يدور فيها، فهو بهذا المعنى رؤية داخلية سواء أكانت مباشرة وقت حدوث النشاط الإنساني، أو العملية العقلية، أو استرجاعية retrospective لأحداث سابقة) معجم علم النفس والتحليل النفسي للدكتور فرج عبد القادر طه وآخرين دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت الطبعة الأولى ص 43. =

عن الأحاسيس والانفعالات و العواطف في تلك الأشعار، مادام الإنسان الشاعر الحق مقابل غير الشاعر مرهف الإحساس قادرا على التمييز بين انفعال وانفعال، وعاطفة وأخرى، وقادرا في نفس الآن على وصف معاناته النفسية الداخلية ونقلها من الأنا إلى الأنت شعرا، ومادامت المشاعر والانفعالات والعواطف الإنسانية قاسما مشتركا بين الإنسان والإنسان في كل زمان ومكان. وقبل هذا وذاك مادام مستحيلا قياس صدق العواطف بالجرام ولا بالسنتلتر ولا السنتمتر.

ويكون الاستبطان[1] **بتمثل** متلقي النص لمضامين النص، و**عرض** الأحاسيس والانفعالات والعواطف التي يصفها على ذات المتلقي لقياس حرارتها وقوتها بل عمقها الإنساني، وسواء أكان المتلقي قارئا مستهلكا للنص أ م ناقدا محللا له، ويتساوق إجراء التمثل وإجراء العرض، وينفعل متلقي النص به ويتفاعل معه، وحين يصادف النص متلقيا عاش حالات وجدانية مماثلة لما يصفه الشعر من حالات الشاعر **يستغرق** المتلقي في النص و**يتوحد** معه، وحينئذ يصبح النص تعبيرا عن وجدان المتلقي بقدر ما هو تعبير عن صاحبه، و يكون النص قد نجح فعلا في أن يصبح تعبيرا شخصيا عن أي قارئ يستهلك الشعر ولا ينظمه، ويكون ما يصفه النقد الأدبي المدرسي بصدق العاطفة.

في تحليلنا أشعار القسم الأول (أشواق) نصادف الزوج العاشق، وهما اثنان في واحد، فهو زوج ولكنه لا يعيش كمونا عاطفيا كأغلب الأزواج المطمئنين على (تملكهم القانوني لمتلكاتهم)، وهو عاشق يتميز بفورة عاطفية وانفعال دائم، أو قل إنه زوج يعيش حالة عشق دائم . وزوج يعترف بتعلقه بزوجته وحبه لها، وأمام الملأ، وفي سلوك حضاري

=ومنهج الاستبطان في علم النفس (هو منهج تأمل الباحث لما يجري داخله أي في شعوره من خبرات حسية أو عقلية أو انفعالية، وذلك بطريقة صريحة ومنظمة تستهدف وصف هذه الحالات وتحليلها أو تأويلها. والإنسان العادي يقوم بعملية الاستبطان في حياته اليومية وذلك حين يقوم بوصف شعوره من تعب وقلق، وحين يخبر الطبيب بمشاكله الصحية، وإن كان هذا استرجاعا للاستبطان. retrospection والاستبطان يتناول الحالات الشعورية القائمة أو السابقة) علم النفس العام عباس محمود عوض الدار الجامعية ب. ت ص 75- 76.

(1) يمكن أن نقرأ ممارسات نقدية عربية حديثة رائدة للاستبطان في كتاب (مع أبي العلاء في سجنه) لطه حسين و كتاب (ثقافة الناقد الأدبي) للدكتور محمد النويهي.

راق قلما يقدم عليه زوج شرقي، وفي مجموع هذه الأشعار رصد الشاعر حالات الحب وأحاسيسه وانفعالاته . وفي أشعار القسم الثاني (مع حبي ورضاي) رصد الشاعر حالات اشتياق الأب والجد إلى الأبناء المغتربين وابتهاجه بنجاحاتهم، وفرحته بلقاء الأحفاد، وهي الحالات التي حددناها في فقرة سابقة.

في النصوص الشعرية التي رصدت حالات الشوق الدائم والحنين المستعر نرى الشاعر لا يرتاح إلا إذا كان مع حبه، ولا يطيق الابتعاد عن عشه، ونراه كذلك في شوق لاهب إلى لقاء الأبناء و احتضان الأحفاد المغتربين.

وحين أقرأ تلك الأشعار التي عبرت عن حالات الحنين والشوق، والابتهاج، أنا الذي لا يحب الأسفار كثيرا، والذي رفض مرارا وتكرارا الاشتغال في مدن أخرى وفي ظروف إدارية أحسن لبعدها عن الحب والولد. وحين ألتفت في بيتي إلى غرفتي ابنتي الفارغتين صباح مساء ولاغترابهما في الخارج، وحين يقول حفيدي حمزة، عبر السكايب، وبيني وبينه آلاف الكيلومترات أريد أن أرى جدي، أو آه أنت يا جدي بعيد جدا أشعر حينئذ بحسرة لا أعرف كيف أعبر عنها، وحين أقرأ أشعار الشاعر في الحنين إلى الحب والعش والأبناء الغائبين أتواجد مع معاناته وأجد في أشعاره معاناتي وأشعر بأنها تعبير قوي وصادق عن مشاعري وانفعالاتي، بل ربما تسعفني بفهم أدق لنفسي. بالاستبطان إذن تضبط حرارة الانفعالات والعواطف في الأشعار وتلامس قوتها وعمقها الإنساني.

من ناحية ثانية، وفي مستهل مدخل أسلوبي، لقراءة أشعار (من ديوان عباس الجراري) نقول إذا كان الشعر رسما بالكلمات وألوان الرسم فيه هي الألفاظ والصور والعواطف، وإذا كان الرسام يختار للوحته الزيتية لونا يهيمن عليها أو يهيمن على مجموع لوحاته، فكذلك الشعراء يختار بعضهم أن يولوا الأهمية القصوى في أشعارهم للألفاظ أو للصور أو العواطف أو يوازنوا بينها. والملاحظ أن أشعار العواطف المتأججة الملتهبة غالبا ما تتكئ على حرارة المضمون لتمرير بساطة الشكل وكذلك كانت أشعار الخنساء الرثائية

وأشعار مجنون ليلى الغزلية وأشعار حسان بن ثابت الإسلامية قديما وأشعار المقاومة الفلسطينية حديثا مثلا. ولذلك كله يمكن أن نقول إن شعر عباس الجراري شعر العواطف قبل أن يكون شعر اللفظ أو شعر الصورة.

وتتأسس العبارة الشعرية في أشعار (مختارات من ديوان عباس الجراري) على مفهوم أدبي نقدي عربي للشعر تجسده القصيدة العربية العمودية والأصيلة. ويتمظهر هذا المفهوم في عدة خصائص منها :

1 – وضوح المعنى الشعري، ونعني بالوضوح اعتماد المعنى العقلي الذي يتواضع الناس على تداوله، ومقابل المعنى التخييلي والذي قد يميز لغة الشعراء. ونعني به كذلك الواقعية وتسجيل تفاصيل الواقع المعيش، وبعيدا عن الغلو والمغالاة في التخييل.

2- دقة اللفظ إذ تحييل ألفاظ الشعر على دلالاتها المعجمية، وبعيدا عن الإيحائية التي تسم لغة الشعر الحديث، وهي دقة تتجاوب مع اختيار النقد العربي القديم إنكار اللفظ القلق وهو اللفظ الموحي في الشعر الحديث، والذي يجعل المعنى الشعري لا يفهم إلا بالتوهم بعبارة ناقد عربي قديم.

3 - البيتية ونعني بها استنفاد البيت الشعري للمعنى الواحد وبلغة النحاة حصره لفائدة تامة يمكن السكوت عنها وبعبارة أدبية نقدية تضمين البيت الشعري لفكرة تامة أو صورة كاملة مستقلا بها عما تقدمه أو تلاه. وتسهم المكونات العروضية في تعزيز هذه البيتية بما تقدمه بحور شعرية من إمكانيات استيعاب تراكيب لغوية مطولة وذلك لما لها من طول في جملتها الموسيقية وعلى صعيد البيت الواحد كالبحور السباعية كالكامل والوافر والبحور المزدوجة كالطويل والبسيط وهي واقعيا البحور الشعرية المهيمنة على أشعار هذه المختارات .

4 - الإيقاعية وهي نتيجة للاهتمام الملحوظ بالمكونات الموسيقية في العبارة الشعرية وتوظف أشعار هذه المختارات الشعرية في تشكيل موسيقاها الداخلية طبيعة اللغة العربية

الاشتقاقية (ضرب، ضارب، مضروب، مضرب...) مقابل لغات إلحاقية (flamme-in-flammable). وتعتمد أساليب التصريع والتكرار، تكرار الكلمات وتكرار الجمل، وهيمنة حضور حروف معينة على مفردات النص، ولزوم ما لايلزم .

5 - التوسع في استخدام التشبيه، والتشبيه في البلاغة العربية أصل الاستعارة، وطريقة العرب تعتمد التشبيه أكثر من الاستعارة، وفي معلقات العرب شاهد على ذلك.

6 - احترام تقاليد الشعر العربي، فالرثاء في ديوان الشعر العربي ندب وتأبين وعزاء، والندب رثاء الأقارب، والتأبين رثاء الشخصيات الرسمية، والعزاء تأملات في صدمة الموت. ولكل نوع مقوماته وخصائصه. وفي رثاء الأحبة بكاء الميت، واستعراض لمكارمه، ودعاء له وكذلك جاءت قصيدتا رثاء الشاعر لعلال الغازي والفقيه حكم.

7 - النزعة الخطابية وتظهر في بنية الجملة الشعرية النحوية وحيث أساليب الأمر والنهي والاستفهام والنداء وأسلوب القسم والتوكيد والحوار وهي أساليب القصيدة العربية العمودية التي كانت تنشد قبل أن تقرأ، مقابل أساليب القصيدة الحديثة التي تقرأ أكثر من أن تنشد. وتفضل أسلوب الهمس على أسلوب الخطابة. [1]

وللتمثيل لأهم الظواهر الأسلوبية في شعر عباس الجراري نقدم النصين الآتيين:

النص الأول:

قال الشاعر[2] (وبعد أن طال به الشوق ولو إلى رؤية حميدة في المنام):

1 - أحميـدتي شهر مضى هل تسـعفيـ ن بزورة في ليل أحلامي الحـزين ؟

2 - لأبوح في صمت الظلام يضمنا بما ترى أنسـيته أم تذكرين ؟

(1) أنظر مقالات ومناقشات الدكتور محمد مندور حول الشعر المهموس والنزعة الخطابية في الشعر العربي بكتابه (في الميزان الجديد) مكتبة نهضة مصر ومطبعتها القاهرة الطبعة الثالثة ص 69- 120.

(2) من ديوان عباس الجراري، الجزء الأول، ص، 66.

3 - إني ورب العـرش حبك غامري أحيـا به لو لم يكن كنـت الدفين

4 – أخلصت لا أرضى سواه وكيف لي أرضى سـواه وحبـله دوما متين ؟

5 – السـعد يملأني والبشر يفعمني والنجح في رفقتي إذ أنـت تبتهجين

6 – والعفو منك إذا أذنبت عاجله يمحـو الكبائر قـولي كيف تغتفرين ؟

7 - إني لفي لهـف والشـوق يحفزني إلى لقائك في عش الهوى وبنين

8 – قد طال نـأيكم عني مـتى عودكم حتى يعود الذي أشربت عبر سـنين ؟

ويتضح في هذا النص كثير من الخصائص الأسلوبية التي أوجزنا الإشارة إليها في فقرة سابقة وتخص التركيب النحوي والمعجم الشعري والمكون الإيقاعي فيه.

- ومن حيث التركيب النحوي نصادف في النص أساليب النداء (البيت 1)، والاستفهام الأبيات (1 و2 و4 و6 و8)، والتوكيد (البيتان 3 و7)، والقسم (البيت 3)، وحرف التحقيق (البيت 8).

- ومن حيث المعجم الشعري نلاحظ أن النص يوظف ألفاظا جزلة وبدلالاتها المعجمية الدقيقة ك (تسعفين البيت 1) و(أبوح البيت 2) و(تبتهجين البيت 5) و(يحفزني البيت 7) و(نأيكم البيت 8).

- ومن حيث المكون الإيقاعي تتضح في النص حضور و فعالية ثلاث مكونات إيقاعية هي :

أ – التكرار وفيه تكرار لميزان صرفي معين (تفتعلين، تبتهجين / تغتفرين البيتان 5 و6). وتكرار مقطع موسيقي كامل (مستفعلن فعلن، السعد يملأني / والبشر يفعمني البيت)، وتكرارالكلمات (أرضى البيت 4)، و(يكن وكنت البيت 3).

ب - هيمنة حروف معينة على ألفاظ النص وخاصة حروف (النون والتاء والياء).

ج - عروضيا يتوزع النص بحران عروضيان هما بحر الكامل وبحر البسيط ولبحر الكامل الأبيات الأربعة الأولى، ولبحر البسيط الأبيات الأربعة الأخيرة. والبحران متلائمان مع موضوع القصيدة، ومنسجمان ومتآلفان وهما يؤديان دورهما في التعبير الشعري. فبحر الكامل (يصلح للعواطف البسيطة كالغضب والفرح)[1] وطبيعة بحر البسيط (وكما يرى بعض النقاد تتفق مع الشجن والتذكروالحنين)[2] وبما لهما من سعة عروضية و لعدد أسبابهما وأوتادهما فهما يمكنان الشاعر من التعبير عن مضامين متشعبة وفي ظل قاعدة البيتية.

النص الثاني:

قصيدة موجهة من الشاعر إلى ابنته (الحبيبة «ألوف» في ذكرى ميلادها ببلاد الغربة)[3]

1 - هل سلو وفي جُفُوني سهد ولهيب الغياب في القلب وقد ؟

2 - خمسة قد مضت وفي كل عام من بعاد الحبيب هول أشد

3 - ذكريات تحل فينا وتمسي ومضي الزمان ليس يرد

4 - إن ذكراك يا ألوف أضاءت مثل شمس الضحى إذا هي تبدو

5 - بل هي الشمس أنت فيها شعاع دائم والسنون فيها تمشي وتغدو

6 - زهرة أنت للحياة وعطر دونه الطيبان ند وورد

(1) نظرة جديدة في موسيقى الشعر العربي للدكتور علي يونس سلسلة دراسات أدبية الهيئة المصرية العامة للكتاب 1993 ص 108.

(2) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور للدكتور صابر عبد الدايم مكتبة الخانجي بالقاهرة 1993 ص 104.

(3) من ديوان عباس الجراري، الجزء الأول، ص، 122-123.

7 - حلمنا أنت في هناء وقرب هل لهذا الغياب وقف وحد ؟

8 - نتملى إذ أنت في مسلك العزّ وسعي إلى الفلاح يجد

9 - مطلب العلم أنت فيه مثال وكذا الحزم والتقى ثم جد

10 - إن تكن غربة التعلم طالت مرها في القريب حلو وشهد

11 - إذ غدا قربنا سيدنو بفوز وغدا إن يشاء ربي سعد

12 - فلتوفي - كما وعدت - منانا إن وعد الحبيب صدق وعهد

13 - ولتدومي مكلوءة ومحيطا بك حفظ الإله والحمد يحدو

14 - وكذا أختك العزيزة من قد للعلا نفسها تتوق وتشدو

15 - والشقيق الحبيب في ميعة العمر ولكن لمفخر العز ند

16 - فاقبلوا مع رضى أبيكم جميعا قبلاتي ودعوة لا ترد

17 - وسلاما من أمكم مع ريم فلكم منها اشتياق ووجد

وفي هذا النص تطرد الظواهر الأسلوبية التي أبرزنا حضورها في النص الأول كما يلي :

- من حيث التركيب النحوي نلاحظ توظيف أساليب النداء (البيت 4) والاستفهام (البيتان 1 و7) والتوكيد (الأبيات 4 و 10 و12) وحرف التحقيق (البيت 2) ولام الأمر والأمر الصريح (الأبيات 12 و13 و 16)

- ومن التركيب البلاغي نواجه التشبيه في (الأبيات 4 و5 و6).

- ومن حيث المعجم الشعري نعاين التعبير بألفاظ جزلة وبدلالاتها المعجمية الدقيقة ك(سلو، وسهد، ووقد البيت 1) و(الحزم والتقى البيت 9) و(مكلوءة، ويحدو البيت 13) و(ميعة العمر البيت 15).

- ومن حيث المكون الإيقاعي نرى في النص حضور وفعالية المكونات الثلاث الإيقاعية السابقة وهي :

1 – التكرار وهو هنا تكرار لبعض الكلمات ك(أنت في الأبيات 5 و6 و7 و8 و9) و(غدا في البيت 11) و(وعدت، ووعد البيت 12).

2 – هيمنة حروف معينة على ألفاظ النص وخاصة حروف (الدال والكاف والسين والتاء) .

3 – النظم على بحر الخفيف وهو بحر يصلح في رأي العروضيين للحوار و(يصلح للجدل والترديد والسرد) [1]، ويلائم هذا البحر موضوع القصيدة الذي يحكي معاناة الشاعر من اغتراب ابنته طلبا للعلم بعيدة عنه ولمدة طويلة ويسجل مناجاته لها.

والخلاصة تكمن في القول إن أشعار (مختارات من ديوان عباس الجراري) أشعار ذاتية تعبر وبحس مرهف وعمق إنساني، عن أحاسيس وانفعالات وعواطف زوج عاشق وأب حنون وأخ ودود . وهي أشعار تملك بما فيها من أبعاد إنسانية فعالية التداول بين قطاع واسع من متلقي الشعر، وقد تصبح تعبيرا شعريا عن كل من عاش تجارب نفسية مماثلة لتجارب الشاعر. وتجسد تلك الأشعار، ومن حيث وسائل الأداء الشعري فيها، ولاء شاعرها الكبير والواضح لتقاليد القصيدة العمودية العربية الأصيلة .

❋❋❋

(1) - موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور للدكتور صابر عبد الدايم مكتبة الخانجي القاهرة 1993 ص 118.

صبوة العشق ووهج الصبابة
في غزل العباس بالحبيبة المهابة

دة. بديعة لفضايلي(*)

روضة العشق أقاحيها افتنان، وشقائق النعمان فيها صبوة وتدليه وتيم وتحنان، زنابقها شغف وصبابة وتبل وهيام، يناغي صبا الوجد فيها أرواحا مدنفة سقاها غيث الضنا فأورقت هوى وأزهرت جوى وتضوعت بوحا غلالته الصبر.

ومتى وطأ لجة هذه الروضة شاعر، مدنف فارس قول غير صلد المشاعر، بدا النسيب رقراقا يرقشه غزل زلال يفشي سر كل ذي كبد حرى شفها الالتياع.

في كتب الأدب العربي الأكثر عراقة، احتل الغزل كغرض شعري مكانا عليا داخل نسق القريض العربي، وذلك أن «**التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء**»،(1) كما أكد قدما ابن قتيبة.

لقد سكنت المرأة تخوم الكلم حين صارت لحنا دافقا في نسغ القصائد، وحين غذت الخيال وأثرته وعزفت على أوتار الأشعار شوقا لا ينتهي واشتهاء لا ينضب لمقلة حوراء وخد أسيل، أو قد ممشوق وقوام أثيل. إذ تغزل الشعراء ونظموا وأبدعوا فنون القول وهم يهيمون بمعشوقاتهم حتى نسبوا لهن، فلم يعرف جميل بغير بثينة ولا اشتهر كثير بدون عزة ولا تحرق المجنون على غير لظى ليلى، بيد أن هؤلاء وأولائك كان الفراق دأبهم والبون ديدنهم، وبين

(*) أستاذة باحثة، كلية الآداب، جامعة ابن طفيل، القنيطرة.

(1) الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري، ص:20 تحقيق احمد محمد شاكر، دار المعارف ـ مصر ـ 1966

العشيقة والخليلة مضى هذا الشعر يترسم خطاه ليتحول من مقدمات توجت هامات القصائد، الى قصائد مكتملة القسمات قدم من خلالها العشاق نموذجا للحسن المتكامل والجمال البهي الذي خلب ألبابهم، ومن ثم قسم دارسو الشعر العربي هذا الغرض إلى إباحي مكشوف حمل لواءه امرؤ القيس وعمر بن ابي ربيعة ومن حذا حذوهما، وعفيف عذري تسيده جميل بن معمر وكثير وقيس بن الملوح وإضرابهم.

وإذا كان هذا هو ديدن التشبيب فإن الشاعر عباس الجراري خسف لنا معين عين بكرفي مملكة الغزل، حين اقتلعه قسرا من الخليلة ليهديه بضا إلى الحليلة.

يمنحنا ديوان شاعرنا عباس الجراري نفسه وهو مدثر الحنايا بغلالة لازوردية لا تقيه عنت البوح بما يعتلج في خافقه، فقد أحكم سلطان الهوى سطوته عليه فهصره حتى لهج :

إلى من هواها في الفؤاد يجـــــــدد ومـع السـنـــين أواره يتوقـد[1]

أهـدي الأماني بالأطايب ضمخـــت والسـعد يغمرهـا ومـا قـد يحمـد

لحميدتي والقول ليس بمسـعـــــفي لكن حالي عن شـعوري يشهد

وتلوح تلك الأبيات الحانية الشجية وهي تتثنى في دلال على غلاف الديوان تلثم خلفية نضرة ناعمة بهية، لتعلن منذ البدء أن الشعر ليس شيئا سوى الحب الذي «**دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة**»[2]ـ حسب تعبير ابن حزم الأندلسي.

وإن كان هذا السفر لم يفرد برمته للغزل بل حوى شطرا في حب البنين وصنوا له في الإخوانيات، فإنه أتى مضمخا بطيب الأشواق حين وهبها مفعمة لحميدة الزوجة المعشوقة يقول :

---

(1) ديوان الدكتور عباس الجراري، الجزء الأول، ص: 102 عنوان القطعة "**الى من هواها الفؤاد**" مؤرخة ب10يناير2008، منشورات النادي الجراري، الطبعة الأولى 2017، دار ابي رقراق للطباعة والنشر.

(2) طوق الحمامة في الألفة والالاف، أبومحمد ابن حزم الأندلسي، ص : 5، مطبعة حجازي، القاهرة 1950.

أتـــدرين كـــم شوقي إليك يـزيـــد وكيف الهوى يبدى معي ويعيد[1]

ســـواء بـــقـــــرب ياحميدة أكتوي أو ألتاع إذ أنـــــي لحـين بعيد

ففي القرب لا أشفي من الحب لوعتي وفي البعد إشـعـال اللهيـب مديـد

لقد دبج الشعراء القصائد فيمن إليهن تاقوا أو بهن افتتنوا، بيد أن الزوجة لم تستطع أن تلفي لنفسها موضعا داخل هذا القريض المفعم بالكلف، إذ ازور الغزلون عن التبتل في محرابها، وكأن شؤبب الهوى يذوي متى ما منها دنوا , فهذا عنترة بن شداد العبسي الذي أنشد في عبلة أوان تمنعها عنه :

رمت الفؤاد مليحـــــة عـــــذراء بسهـــــام لحـظ مـا لهن دواء[2]

يا عبل مثل هـــواك أو أضعـــافه عنـدي إذا وقع الإياس رجاء

نرى مظان الأدب لا تحفظ له بيتا فردا أنشده فيها بعد أن صار لها بعلا، فهل ياترى خبا حسنها على حين غرة ؟ أم أن طيف الهوى استتر؟، وذلك مجنون لبنى الذي قال ملتاعا :

فإن يك تهيامي بلبـــــنى غوايـــــة فقـد، يـا ذريح بن الحباب، غويت[3]

فمتى تزوجها جف معين القريض لديه، وما عاد إلى التفجع وإبداء الاشتياق إلا بعد أن حرمها وطلقت منه :

الى الله أشكو فقد لبنى كما شـــــكا الى الـله فقـد الوالدين يتـيم[4]

(1) الديوان، ج، 1، ص: 79

(2) شرح ديوان عنترة، ص: 21 الخطيب التبريزي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه مجيد طراد،دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الأولى 1993

(3) ديوان قيس بن ذريح، ص: 62، اعتنى به وشرحه عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة بيروت لبنان الطبعة الثانية 2004

(4) نفسه، ص: 111

لكننا إزاء قريض من طينة أخرى، قريض ظل الشوق ينبض في شراييه منذ لحظة الافتتان الأولى بين العاشقين سنة 1960 حين قال :

أهذا إذن حبـــنا خبـــــــــري أهـذا الذي فـاق حـــر اللهيب [1]

أهذا الذي قـــــد لغـونـــــا به أهـــــذا الذي دك أفـقا رهيب

***

لعـمـــــــري إن لنـــــــا جـــذوة تضيء قلبنا الشـاعري الرقيق

إلى حين آخر قصيدة في الشطر الغزلي من الديوان مؤرخة بسنة 2015، وشاعرنا يبثنا لواعج هذا الفتون، وقد غدت تلك الحبيبة زوجة منذ ما يفوق الخمسة والأربعين ربيعا قائلا :

حميدتي والشوق روع مضجعـــــــي ولو أن قربك لا يفارق مخدعي [2]

في غمرة من حيرتـــــــي وبلوعـــتي أرنـو إلى عمر مضى لا تجـزعي

فأنا على ما تعـــهدين تأجـــــــجا بلهـيـب حـب كامـن في أضلعي

فإذا التوهج العاطفي عينه، والكلف والهوى ذاتهما، فتالله إنه حب حقيق وكلف شفيق ذاك الذي تماهى على ما ينيف على الخمسة عقود، وتلك خصيصة توارت في أشعار غيره، ولست أرتاب في أن علة ذلك إنما كمنت في أنه لم يخلع رداء العاشق وإن تمكن من حبيبته، إذ لم يزده الدنو منها إلا اشتياقا لها فهي الحبيبة[3] والحليلة[4]:

---

(1) ديوان الدكتور عباس الجراري، ج، 1، ص: 44

(2) نفسه، ص: 113

(3) قصائده في الحبيبة هي: **أهذا هو الحب؟** في 1960/10/09 ـ **طهر الحب**1960/10/21- **وهم رسم الحبيبة في** 1960/11/15 ـ **هجران** في 1960/12/12 - **أصحيح مات حبي؟** في 1964/03/07.

(4) أولى القصائد التي نظمت في السيدة حميدة كزوجة أثبتت في الديوان في 1984/12/25 بعنوان :**انتظار عفو**، وآخرها بعنوان **حميدتي والشوق** في 30 يونيو 2015.

مالي سـواك وإننـــي لولاك مـــا ذقـت الحياة سـعيـدة ورحـيبـة[1]

فلتبسمي فأنـا المحب بلـوعـــــة ولأنـت وحدك الحليلة والحبيبة

وهي القرينة و القريبة :

ياصـــنو روحي والتي كل الحيـــا ة لحـــبها أمسـت سـليـــبة[2]

كفي الملام وكفكفي غالي الدمـــــو ع فأنـت وحدك القرينـة والقريبة

ويكاد البعاد أن يكون الجذوة التي أذكت وهج هذا الاشتياق وأبقته متقد الحنايا، فما إن يبارح هذه الإلف الودود في رحلاته لإتمام مهامه الدبلوماسية الكثيرة، أوحضور ندواته العلمية الثرة في الكابون أو بوركينافاصو أو الأردن أو دكار أو نواكشوط أو ورزازات، حتى ينكأ الحنين جراحه، فنراه يسترق أويقات للبوح بهذا الوجد يقول :

من الكابون أبعث ذا الخطابـــــا عسى حبي يرد لي الجوابا[3]

أضمنه المشاعـــر والتحايـــــا وأشـــواقا تؤجـــجـه التهـابا

وقلـبي للحبيـبة فـــي تلـــظ إليـك حميدتي يبغي إيـابا

أو قوله وهوالمدنف يتلظى بالسنغال :

شوقي إليك حميدتـــي يتلهـــب فالأرض تطوى واللقا يتقرب [4]

واليوم في السنغال أشعـــر انـــني إلى أمـل ارتـــاده أتأهـب

(1) الديوان، ج 1، ص: 76

(2) نفسه، ص: 75

(3) نفسه، ص: 83

(4) نفسه، ص، 87. يمكن الرجوع الى قطعة طال الفراق ص: 74 والشاعر في الطائرة طريقه من عمّان الى المغرب سنة 2003، وقصيدة من ورزازات ص، 79، و نتفة من وحي الكابون ص، 81، وقطعة اعتراف ص، 84، وقصيدة في بوركينافاصو، ص، 85، وقصيدة قالوا المقام ص، 89 وقطعة ليت المسافة تطوى ص، 90، وقطعة من الدكار رحيلنا ص، 91، وقطعة وفي نواكشوط بموريتانيا ص، 92.

وقد يتعلق الأمر بسفر الحليلة، حيث انسربت على أسلة لسان شاعرنا سبعة نصوص قريضية ينشد بها الوصل عاجلا غير آجل، منها هذه الأبيات الملتاعة :

شهران من عمر الزمـــــان امامنـــا وللحظـة لم تمض هـا انا انـدثر[1]

كيف السلو عن التي أحيا بـــــــها وبها أكون وفي حماهـا أسـتقر

بيدي جعلت الطـــير يترك عشـــه وأنا الذي أطلقتـه فلأسـتـــــعر

ينبني الكون الغزلي عند شاعرنا على البث والبوح، والعتب والاعتذار، والاشتياق والالتياع، والسهاد والمناجاة، والبون ونشدان الوصال :

وعلى مدى أربع مائة وثمانين بيتا وواحد وخمسين نصا شعريا مابين نتفة وقطعة وقصيدة، تزيت الألفاظ ببهاء الهوى وعزف الحب على ربابة التوق يقول :

ـ لو ينقضي عمر الزمـــان جميـــعه ظلت لحبك جـذوة تتـضرم [2]

ـ إني ورب العـــرش حبك غامـــري أحيا به لولم يكن كنت الدفين [3]

لقد ترددت لفظة الحب الحانية أربعة وستين مرة وهي تناغي في كل حين شغاف فؤاد شاعرنا المضطرم، وبدت بأسماء متباينة في أويقات عديدة فإذا هي الهوى والعشق :

ـ لـــقاء دائم والحـــب صـــاف وتنعم في الهوى منا القلوب[4]

ـ انـــي وإياك يا حبي مدى الأبـــد عشق سعدنا به نعمة الصمد[5]

(1) الديوان، ج، 1 ص : 63 سافرت السيدة حميدة الى كندا والولايات المتحدة لزيارة الأبناء سنة 1991، ينظر نص: أسائل حيها ص:64،و نص وسمعت صوتك ص: 65، ونص : أ حميدتي، ص: 66، ونص إني وإياك ص: 67، ونص العيد أقبل ص: 68، ونص متى يكون وصول الحبيبة؟، ص : 69.

(2) نفسه، ص : 71

(3) نفسه، ص: 66

(4) نفسه، ص: 64

(5) نفسه، ص: 67

والصبوة والصبابة في آن :

ـ والكل يعـــــرف أنا مـنذ صبوتنا لم نفترق لحظة كالروح في الجسد[1]

ـ عسى تلقين فيــها دليـــل صبابة وعربون عشق لا يـــــزال يزيد[2]

واللوعة والشغف كلتاهما :

ـ قرب يضاعف لوعتي وصبابتـــــي ويزيـــــــدني شـغفا فلا أتغلب[3]

ـ وأشـــفي من لوعتي نارا تأجج فـي قلبي الشقي بما يبدو ويستتر[4]

وتنجلي هذه الأشعار معلنة انتماءها البين لجنس الغزل العفيف، فإذا الشاعر لا ينشد في قصيدته «**طهر الحب**» غيرهذه المكابدة اللطيفة:

حسبنا من كأسه طهر شذاه[5]

واذا امـــتدت له ايدي قذاه

فلنا فـــي الروح تفجير هداه

وإذا هو التمسك بالحبيبة الوحيدة، إذ يبدو اسم متيمة الشاعر راسخا كوشم أثير على ذرى الكلمات تسعا وعشرين مرة، يقول :

ـ دعيـــني حميدتي من ذا الضـــياء ضيـــاء أنار بأمسي البســـيـــم[6]

ـ حبي حميدة حق بـــل حقيقتـــه نادت بها من قديم الدهـر أقدار[7]

(1) الديوان، ج، 1، ص: 67

(2) نفسه، ص: 80

(3) نفسه، ص : 88

(4) نفسه، ص: 90

(5) نفسه، ص: 46

(6) نفسه، ص: 43

(7) نفسه، ص: 59

ـ أحميدتي شهر مضى هل تسعفيـــــ ن بزورة في ليل أحلامي الحزين[1]

ويبدو شاعرنا الغزل ضنينا بأوصاف المحبوبة فلا يمنحنا من ملامحها إلا اليسير، بيد أنها تلوح دائمة التوهج والبهاء، يقول والحبيبة يانعة العود كزهرة ندية سنة 1960 :

ـ إذا لمحت عيني جمـــال لحاظـــه تضاعف شـوقي ثم زدت تعشقا [2]

لكن ليت شعري ما أروعهما من بيتين وهو يتغزل في الحليلة في ذكرى ميلادها الثانية والسبعين مستعذبا القول:

أرى حسنها الباهي يزيد تألقـــــا وحـبي بهـا دومـا يزيـد تعلقـا[3]

حميدة مهما العمر مـــــر فإنـــها هي الشـمس في أنق تضـيئ تـأنقا

وقد أرخت خصيصة التغزل بالحليلة والتشبيب بها بظلالها على هذا القريض فوسمته بميسم تذكر اللحظات الأثيرة التي بات لها وقع السحر في إلهاب المشاعر و تجديد مواثيق الهوى، مثل الاحتفاء بذكرى الخطوبة والزواج كليهما، يقول شاعرنا متغنيا بالذكرى الخامسة والأربعين للخطوبة :

لنا في عود عيدك كـــــل عـــام مـسرات تعـاود وابتهـاج[4]

تذكرنا صبا حـــــــب ولـــوع وصبـوات الهـوى لسـع مجاج

وفي تذكر القران الخالد قال:

ذكرى القران قران يستجد بـــــــه عشـق الصبابة به جـذوات تغذيه[5]

فليحفظك ربي يا حميدة سالمـــــــا حبي وحبك في أعـلى أعـــاليه

(1) الديوان، ج، 1، ص:66

(2) نفسه، ص: 50

(3) نفسه،ص: 109

(4) نفسه، ص: 96

(5) الديوان، ص: 95

ويكاد الاعتذار وطلب الصفح أن يرين على هذه الأشعار حتى لنحسب أننا إزاء عاشق لم يظفر بعد بوطره، يقول في قصيدة مؤرخة بسنة 1984 يذيلها **بالمرتجى العفو بإصرار:**

إني لمعترف بالذنب لســـــــت أرده　　هـل ينفعـن عندي إقـرار[1]

فلتغفرن كما عهـــــــدت خلالـــه　　فالعفـو شـيمة مـن هم أحـرار

ويبدو أن إباء الحبيبة وتمنعها كانا سر جاذبيتها، فمنذ البدء يراها مهابة الجانب ذات أنفة، يقول سنة 1960 وكان لايزال وإياها طالبين بالقاهرة يرنو إليها بمقلة الوامق:

فلم يا حبيب القلب تقسو تبرمـــــا　　وكان جديرا أن تحن وترحما[2]

عهدتك يا حبي تســـــامح غلطتـــي　　فما لك تبدي اليوم هذا تهجما

إنه تغن بالحليلة المعشوقة ما زاده الدهر إلا تأججا وإذكاء، وقد نظم بعض الشعراء في زوجاتهم لكن الامر لم يعد أبياتا معدودة فهذا **زهيربن أبي سلمى** لم يخص زوجته بغير بيت وحيد في مطلع معلقته حين قال :

أمن أم أوفى دمنـــــــة لم تكلـــم　　بحومانـة الدهـــــــر فالمتثـلم[3]

وذاك الشاعر المغربي محمد الوديع الآسفي أفضى بصبابة الشوق لزوجته حين هده الأسر والبعاد قائلا :

إنـــي لأهتف بالاسم العزيـــــز إذا　　غدت في الحنـــايا النار تلتهـــم[4]

---

(1) الديوان، ج، 1، ص: 60

(2) نفسه، ص : 49

(3) ديوان زهير بن ابي سلمى، ص : 102، شرحه وقدم له الاستاذ علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان 1988.

(4) مناديل وقضبان، ثريا السقاط، ص:103، دار النشر المغربية، الطبعة الأولى:1988، وقال فيها أيضا ص : 62 من نفس الكتاب :

ضل عني البيان　　وتلاشى اللسان

فالأمان الأمـان　　ياثريا الزمـــان

فتغتدي النار نورا والظلام ســـــنى والحزن بشرابه الأرجـــاء تبتسم

وترسم خطاه الشاعر قدور الورطاسي لما أنشد في زوجته قصيدته «**الاطياف المتراقصة** «، وصدرها بعبارة «**إلى أم البنين**» قائلا :

فكأني وقلبهـــــــا راهبـــــــان في خشـوع في أقدس الصلوات[1]

نستبيح الدمـــــــوع رفقـــا بدير كاد يهـوى بألهب الزفرات

بيد أن تلك لم تكن سوى محض فورات عاطفية أججها النأي، ما عاد إليها الشعراء بعد أن منوا بلقاء زوجاتهم.

غير أن المضي والترقيش على بساط هذا اللون الأدبي على مدى خمسة عقود أو يزيد، بات ديدن شاعرنا الوله عباس الجراري فحسب، لأنه أيقن أن حميدة هي صنو الروح وتوأم الفؤاد، أو ليس هو القائل ؟:

إني وإياك يا حبي مـــدى الأبـــد عشـق سعدنا به من نعمة الصمد[2]

والكل يعرف أنا منـــــذ صبوتـــنا لم نفترق لحظة كالروح في الجسـد

وكأنما الصدى يعود بنا لرجع أبيات جميل حين صدح:

تعلق روحي روحها قبـــل خلقنـــا ومـن بعـد كنا نطافا وفي المهد [3]

فـــزاد كما زدنا فأصبـــح نامـــيا وليس إذا متنا بمنتقض العهد

لكن هل ياترى لو قيض لجميل أن يتزوج بثينة، فهل كانت صبوة عشقه ستبقى خالدة لها أبد الدهر؟ خاصة وهو القائل:

(1) ديوان الحدائق، قدور الورطاسي، ص : 40 دار المغرب للتاليف والترجمة والنشر الرباط 1977

(2) الديوان، ج، 1، ص: 67

(3) ديوان جميل، ص: 77 جمع وتحقيق الدكتور حسين نصار، دار مصر للطباعة دت.

يموت الهوى منـــي إذا ما لقيتهـــا ويحيـا إذا فارقتهـا فيعـود[1]

وتكاد سمة االإخلاص أن تسم هذا الغزل وتلك الصبابة فنحن إزاء الحبيبة المدللة التي تملك الوجدان وتستوطنه، يقول:

إني خصصتها بالهـــوى ومحضتـــه صرفا لها وحديث الحب أخبار[2]

إني أراه كحـــرمـــــة محفوظـــة ومصـــونـة لا قاطـع غـدار

فالمعتمد بن عباد الذي أبدع دررا في قلادة عشقه لزوجته اعتماد الرميكية ومنها :

حب اعتماد في الجوانح ساكـــــن لا القلـب ضاق به، ولا هو راحل[3]

نراه في تضاعيف قريضه يشبب بنساء أخريات مثل **جوهرة وسحر ووداد وقمر** وما عداهن.

أما علال الفاسي فقد حمله الشوق وهو في منفاه ببرازافيل على أن يبدي الجوى لزوجته زهرا في قصائد ملتهبة منها هذين البيتين :

حبيبتي ليس هذا البعد يفصلنـــا ولا المنية تنئي عنك مـولاك[4]

أنا بحـبك مسرور ومغتبـــــط والحب لا بد يدنيني لملقـاك

لكنه سرعان ما نلمحه وقد خان ميثاق الحليلة، حين صرح «**كنت واقفا بشاطئ وادي القرية فنزلت سيدة ذات شعر أبيض وخد أحمر فأعجبني منظرها وارتجلت هذه الأشعار**»:

(1) الديوان، جميل، ص:67

(2) ديوان عباس الجراري، ج، 1، ص: 59

(3) 40- ديوان المعتمد بن عباد، ص : 19 جمعه وحققه الدكتوران : حامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي ,راجعه ألدكتور طه حسين، مكتبة دار الكتب المصرية بالقاهرة، الطبعة الثالثة 2000.

(4) 41 ديوان علال الفاسي روض الملك القسم الأول من الجزء الثاني ص 152 اعداد وتحقيق عبد الرحمن بن العربي الحريشي مطبعة الرسالة، انظر قصائده في نفس الديوان : أحب زوجي بكل قلبي ص : 131، ساعة القبول ص: 88،ذكرى عهد غرامية ص: 159، أذكريني ص: 180، غرام الزوجية الطاهر ص: 332.

أنظـر لهـا شهباء ذات شــعر[1]

أبيـض مثـل ثغـرهـا المفـــتر

مـن لي بها تشـفي غليل حري

فمـثلهـا يرجى لطيـب العمـر

بيد أن الوفاء لشخص المحبوب كان دأب شاعرنا في تماه صعب الترسم . ثمة ميزة أخرى للغزل العباسي الشذي، وهي المجاهرة بحب الزوجة والمباهاة بالتعلق بها، ولعل الرقيق أيضا هو هذه الحوارات الباذخة مع حبه ـ على هدي عمر بن أبي ربيعة، يقول وقد دبت الغيرة في أحشاء الحبيبة بعد أن اعتزم السفر وهو في بهجة من هذا الشعور :

تقول لي والعين بـــاد حزنـــها والدمع في الخـد المورد يسـكب[2]

فلأي ربـع أنـــت راج قبـــلة ولأي حب أنـت ساع ترغـب؟

فأجبتها في بهجـــة متـــبسما انـي على عزمي فهو المـطلب

لأزور خلان الـــوفا بـــردانة حيث الصفا والصدق منهـا يجلب

ويقول أيضا مجيبا هذه الوامقة وهي تستوثق من صدق صبوته حيالها:

وتسألني عن حبنا بـــعد مـــدة أما زال في الأحشاء أم هو قد رحل[3]؟

فأجبتها والبشر يخفـق باسمـــا لا تجزعي هو في الشـغاف ولم يزل

إنها حليلة استعذبت شعور العاشقة الندية، لذلك فهي تمنع وتمنح، تجافي وترضى، تنأى وتدنو، تقسو وتلين، وفي كل الفصول تبقى المرغوبة المطلوب ودها، ويظل الشعر

(1) ديوان علال الفاسي، روض الملك، ص: 262

(2) ديوان الدكتور عباس الجراري، ج، 1، ص: 103

(3) نفسه، ص : 99

منيتها، أو لم يقدم لها شاعرنا عباس هدية بمناسبة حلول عام جديد، فلم ترقها لأنها أتت خلوا من القريض:

أهديتها ولهيب القلـــــب يتقـــــد والعـام راح كما السـنون تطـرد[1]

قالت هديتك الـــــــتي قدمتهـــا ليست بشـافية عندي لما أجد

سارت تعاتبني أن جئت مهـــــديها بـلا قريـض كما تهوى، وتنتقد

لقد جاهر عميد الأدب المغربي بصبوته لحرمه، وأودعها فؤاده وثنايا أشعاره مخلدا اسم العشيقين عباس وحميدة في تباه صرف قائلا:

حـبي اليك جاء بعد يـــــــــاس فلتـــنظري ولتنطقي عباسي[2]

أنت الحـــميـــــــدة بلا إبـــلاس دوام وصلـــــك غـدا لبـــاسي

بينما لم يقو غيره من الشعراء على الإفصاح والإجلاء، إذ جل ما قدروا عليه هو رثاء زوجاتهم، وكأنه ليس من حق الخليلة أن يبوح لها الزوج ـ الشاعر بحبه إلا في قصائد ناحبة ناعقة، يؤبن في أسى ذكراها، فتغدو غزلا في فقيد، وتغن بماض، وشعر لغير سامعه، ونظم في غير قليل من كبرياء، ورفض للبوح في حضرة المحبوب، ودونك قصائد **جرير**، أو ديوان «**أنات حائرة**» لعزيز أباظة أو»**من وحي الفاجعة**» لعبد الرحمن صدقي. بل إن شاعر المرأة الغير هياب **نزار قباني** ما سمعنا بزوجته «**بلقيس** «إلا بعد أن برحت الوجود، وخلدت في أشعاره اغنية حزينة يقول :

فحبيبتي قتلت وصار بوســـــعكم [3]

ان تـــشربوا كأســا على قبر الشهيدة

بلقيس كانت اجمل الملكات في تاريخ بابل

(1) ديوان الدكتور عباس الجراري، ج، 1، ص: 101

(2) نفسه، ص: 98

(3) قصيدة بلقيس نزار قباني ص:01، بستان للطبع والنشر. 1982

غزل عذب ذو خرير، سقى مهجة صب أثير، متلهف للجوى ليس غرير، صبوة وعشق و جفن قرير، غدا للحليلة بلسما بل إكسير , بثينة اكتوت بحر السعير، وألبس جميل حر الهجير، ليلى تلظت في قفير، وأشرب قيس صخب العشير.

وحميـدة يـا لؤلـــــؤة النسـاء

يـا راعيـــــة الحـب و الضياء

يـا بهـــــيـة فـي عـزة و كبريـاء

لـــــك المـــــجد ولاء وسـناء

ففـــؤاد العبـاس في راحتيك رخاء

فلـترحمي مدلـها أزرى بـه العنـاء

***

مفهوم الشعر عند عباس الجراري
من خلال إنجازه الشعري

د. مصطفى الطوبي (*)

ديباجة

هذا الموضوع الذي نريد أن نقول فيه ليس جاهزا بحيث نعتقد للوهلة الأولى، من منطلق أن الشاعر المتحدث عنه هو أستاذ الأجيال، وكرسي الأدب المغربي، و مفكر، وناقد، وعالم بالدراسات النقدية، ومرجع أدبي وثقافي وفكري منذ ما يزيد عن ستين سنة، وعميد الأدب المغربي، وتخرج على يديه أغلب أساتذة الأدب بالجامعات المغربية، بل وتخرج على يديه عدد من أساتذة الجامعات العربية أيضا ، إذ إن أي حكم قد يعتقد الناظر أنه مأخوذ من آرائه في الأدب وقضاياه ؛ولمَ لا وهو قد قال في موضوعات الأدب، وقضاياه، وبيئاته، ومناهجه، وشروطه التاريخية والسياسية. .ولذلك فنحن نذهب مذهبا مختلفا، لأننا نريد شيئا آخرَ غيرَ ما يتبادر إلى الذهن، إنني أريد أن أتحدث عن مفهوم الشعر عند عباس الجراري من خلال شعره هو، وإبداعه هو. .وقد يتفاجأ البعض لأن كثيرين من المثقفين يعتقدون أن عباس الجراري ناقد ودارس فقط، وليس مبدعا، والحق أنه مبدع، وليس مبدعا فقط، بل صاحب رأي في الشعر في زحمة اللغط، والهرولة، والانبهار بالآخر، وترويج المفاهيم المغلوطة. إنه هذا الأبي الذي أبقى قدميه راسختين في ترباء الأصالة، ومد يده في ثقة وبطء إلى صفاء الأدب المختلط بنقاء السماء وفضية القمر وعلو النجوم. .لقد هرول الفضوليون والتافهون إلى الشعر الجديد الفارغ من كل شعر ؛إلى الشعر

(*) أستاذ جامعي، كلية الآداب، جامعة ابن زهر، أكادير.

الفارغ من النحو، ومن اللغة، ومن العروض، ومن التناص، وباختصار إلى الشعر الفارغ من التقليد علما أن التقليد هو ركن أساس من أركان النص الأدبي، فهو نصف النص عند «ياوس»، لأن الإبداع باعتباره الشطر الثاني يتفتق عمليا من التقليد. .أشرق أحد الشعراء المغاربة المعاصرين بتغريدة في موقع من المواقع الاجتماعية الفايسبوك يقول فيها :»لقد أسفر التهافت على قصيدة النثر عن تفريخ أسراب مختلفة من الشعراء الذين أصبحوا كطيور القمامة يخطفون شلوا من هذه القصيدة وينتفون كراعا من تلك، وينتشلون خصلة من شعر الأخرى ليركبوا قصيدة في دقائق»[1].. إن طيور القمامة هاته بتعبير الشاعر المتأصل الطاهر لكنيزي يصور نكبة حقيقية للشعر الحديث أو بالأحرى مآل الشعر المغربي الحديث، هذا الشعر الذي فتح في يوم باسم الحرية المعبدة للجميع، فدلف إليه جموع غفيرة من المشردين والتائهين، والفضوليين، والمنكوبين نفسيا، وسماسرة الكلام، والمرتزقة الذين لم يجدوا لهم مكانا في أي مجال فـ»حركوا»[2] إلى الشعر باسم الحداثة، والحداثة غير المدروسة، وغير المفكر فيها هي التي قتلت الشعر، وكأنما نحن بإزاء محرقة مدروسة، مفكر فيها منذ زمن من أجل ردم بئر اللغة العربية، وتعوير زلالها، وتخريب جدرانها، وطمس ملامحها. .وهذه القضية ذاتها تعطينا جوابا عن سبب تمسك عباس الجراري بالنموذج الظاهر في شعره، الواضح في فلسفته، القريب إلى المألوف منها إلى الغريب. .وبناء على ذلك سنفهم فلسفته في الكتابة التي تراهن على معرفة التراث أولا وقبل كل شيء.

صورة عباس الجراري الناقد

العلامة الجهبذ والحبر الكبير عباس الجراري هو ممن طار ذكره في الآفاق، وانتشر خبره في العالم بأجمعه مشرقه ومغربه باعتباره عميد الأدبي المغربي[3]، وعمادة الأدب هي

(1) الشاعر الطاهر لكنيزي أستاذ اللغة الفرنسية حائز على عدة جوائز وطنية ودولية .

(2) أقصد المصطلح الموظف في اللغة اليومية "الحريك"، وهي الدخول إلى بلد الآخر خلسة.

(3) مؤلفاته في الأدب أكثر من أن نحصرها في هذا الباب منها كتاب "موشحات مغربية " 1973، وكتاب :"الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي " 1974 م وكتاب "النضال في الشعر العربي بالمغرب من 1830إلى 1912 م"، 1978 م، وكتاب "قضية فلسطين في الشعر المغربي حتى حرب رمضان 1975 م "وكتاب :"ثقافة الصحراء" 1978 وكتاب :"الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه " 1986-1982-1979 م، وكتاب :"معركة وادي المخازن في الأدب المغربي"=

لازمة مرتبطة في واقع الأمر بالأدب نقدا وإبداعا، بيد أنها عند كثيرين سَرَتْ على النقد أكثر مما سرت على الإبداع ذاته، وقد تخرج على يديه أغلب أساتذة الأدب المغربي بالغربي الإسلامي حتى استحق عن جدارة لقب «العميد». .ولكن بقيت صورة عباس الجراري الشاعر متوارية عن الأنظار، لا يعرفه إلا القليل من صفوة الأدباء والشعراء ممن كرعوا من معين شعره الزلال، لأن عباس الجراري قد ظل متخفيا بشعره من فرط تواضعه وحدة نظرته للأدب، يكاد يخبئه أم يدسه في التراب برؤية سامقة لا تقنع بما دون النجوم، وتطمع فيما دون السحاب، ولذلك حينما يقول محمد احميدة «عباس الجراري شاعرا هذا ما لا يعرفه الكثيرون ممن يتتبعون الإنتاج الفكري والأدبي لعميد الأدب المغربي. يعرفونه صاحب أبحاث أكاديمية في حقل الدراسات الأدبية المغربية، ودارسا باحثا في الأدب العربي والفكر الإسلامي، عاشقا لأدب الملحون، لكن الجراري الشاعر بقي في الظل لا يعرفه إلا القلة ممن جالسوه في ناديه الأدبي، أو أتيحت لهم فرصة الاستماع إلى قصيده، حينما يتوسل بالشعر في بعض المناسبات مساجلا أو مغازلا أو راثيا «[1]. . وحينما سمعت بعباس الجراري الشاعر لم أستغرب قط من الأمر، لأنني أعتبر أن الناقد هو بشكل من الأشكال أديبٌ سواء أظهرَ أدبه وتغنى به، أم أخفاه وضيق عليه، وأهانه، أو أبخسه، ،وكثيرون من النقاد يبخسون أعمالهم الأدبية ، بل وجدت أنها صفة النقاد الكبار، وقد دعوت إلى ذلك مرارا أن الناقد لا يؤخذ بنقده، ولا يعمل برأيه حتى يكون أدبه في وزن كلامه، وتكون ريادته في وزن تنظيراته . .وهكذا يجتهد الناقد محمد احميدة في صنعة ديوان عباس الجراري ليعطينا من فسائل غرسه ما يسر الناظرين، ويبهج المتشوقين. .وقد قرأت الديوان نصا نصا بنهم وعطش فألفيتُ فيه فلسفة الكتابة الأصيلة مبيتة ومؤثثة بحرفية

=1985-1988 وكتاب :"خطاب المنهج" 1995-1990 م، وكتاب :"تطور الشعر العربي الحديث والمعاصر في المغرب" 1997 م، وكتاب :"مختارات من الشعر العربي في القرن العشرين "مؤسسة البابطين 2001 م.، وكتاب: "الشاعر الناقد محمد البيضاوي الشنجيطي "2007 م، وكتاب :"من أدب الدعوة الإسلامية. ."1974 م، ،وكتاب "في الشعر السياسي "1974 م، وكتاب :"فنية التعبير في شعر ابن زيدون "وكتاب :"أثر الأندلس على أوربا في مجال النغم والإيقاع "وكتاب :"الحرية والأدب" 1971 م،

(1) من ديوان عباس الجراري الجزء الأول، إعداد وتقديم محمد احميدة، منشورات النادي الجراري رقم :73، 2017، ص :5.

كبيرة ورؤية سامقة، وألفيت أنه لا يكتب فقط بل ينظِّرُ أيضا، وألفيت أن المشي نحو الأمام في هذه النصوص لم يتم بطرق مفارقة، أو بقفزات نوعية غريبة أحيانا عن المشهد الشعري العربي والمغربي بوجه خاص، بل إن السعي إلى الحداثة كائن، ولكن بطيء تماما كما يجب أن يحصل في الحركة الشعرية العالمية عموما، والسعي نحو الحداثة كائن ولكن وفق خطة محكمة مفكر فيها بشكل كبير وبشكل مدروس، وعالم الشعر عند عباس الجراري معزول تماما عن العوالم الأخرى بحصون منيعة يصعب تجاوزها أو اختراقها، بتبييت الرأي في الشعر ذاته أو بالممارسة نفسها. .

شعرية النوع الأدبي

يعبر الأستاذ عباس الجراري في شعره بطريقة واضحة عن حدود الشعر، بما يمكن أن أسميه بالقول في الشعر بالشعر، على نحو قوله في مطلع قصيدته في تحلية الشاعرة سميرة فرجي:

عَجَزْتُ عن التعبير أبغي به شُكرَا أأكتبُه نَثْرًا أم أَقْرِضُهُ شِعْرَا

إذ يظهر عباس الجراري ها هنا عالمين متقابلين ؛عالم النثر الذي يؤاتي الكتابة العادية، وعالم الشعر الذي يؤاتي القرض والقريض، وقرض الشعر أو وزنه أمر أكده كثير من الجهابذة منهم القاضي أحمد السكيرج رحمه الله [1]، والعلامة عباس محمود العقاد[2] الذي يجعل العروض عنصرا أساسا من الشعر، والمرحوم إدريس بلمليح الذي يعطي للعروض معنى في إطار مفهوم التواصل التفاعلي[3]. ويجعله داخلا في إطار المعنى. .لأن معنى الشعر ينصرف في المقام الأول إلى الطرب والنغم، وهما عنصران ما فتئ عباس

(1) "إن من يريد قول الشعر ونظمه يجب عليه قراءة فن العروض لأن الشعر لا يأتي على الأسلوب العربي إلا بإتقان هذا الفن، فبهذا كان المتعين على القارض معرفة العروض " كتابة يتيمة الدر في قرض الشعر للعلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج، تحقيق محمد الراضي الحسني الإدريسي، طبعة 1326 هـ ص :9.

(2) ينظر فيديو نادر للعقاد يذهب فيه إلى أن "الشعر الحر مهزلة" في الموقع :
https://twitter.com/topyoutubetop/status/868071824671854592?lang=ar

(3) المختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمام، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1995 م.

الجراري يؤكدهما ويكررهما مرارا. ولم يفت الأستاذ عباس الجراري في شعره أن نبه على «الأصالة «،والإيقاع الخليلي هو عنصر من الأصالة. وهو الأمر الذي عبر عنه صراحة حينما رد علي في قصيدتي «معلقة القدس «قائلا :

فالشعرُ عندكَ أنغامٌ مرتلةٌ بها سموْتَ وكنتَ النجمَ والعَلَمَا

إن الأنغام المرتلة لا تحصلُ إلا بإيقاع رتيب متصالح مع الأذن ومقبول في النفس، والأنغام هي الألحان المتسقة التي تطرب النفس وتبهجها، ونحن نتوفر على إيقاع معروف يحقق هذه الغاية، ويتعلق الأمر بالعروض الخليلي. وحتى إذا أردنا أن نعوض هذا الإيقاع في إطار ما يسمى بالإشراق فالأمر ليس ميسرا حسب ما يتبادر إلى ذهننا، بل دونه شرط الحداد وخرط القتاد.

وما فتئ العلامة عباس الجراري في ممارسته الشعرية يقدم لنا موجهات هي عناصر محددة لتوجيه النظر إلى المفهوم الحقيقي للشعر، أو بالأحرى إلى المفهوم الذي يراه هو بنفسه قمينا بالشعر. .ومن هذه العناصر تجسيد الشعر في بنائه المعتاد، وفي قالبه المألوف، وبفهمه الجعفري[1] المعروف، علما أن الحداثيين أخطأوا فهم المعنى المقصود بالفهم الأولي، وعوَّمُوا النظم على المتون العلمية هدفا في تنحيته نهائيا، و تسييج النص الشعري، وعزله عن الأنواع الأخرى. .فنحن نجد أن الأستاذ عباس الجراري قد التزم بالإيقاع الخليلي في مواجهة جيش عرمرم من أشباه الحداثيين الذين دعوا صراحة إلى تنحية العروض، واستبداله بما يسمى بالإيقاع الداخلي، أو استبداله بالحرية بمفهومها الواسع، وإنما كانت دعوتهم من باب العجز الصراح، والخرف المباح فهلكوا وأهلكوا، وأثخنوا في لغة الضاد أخطاءً وأمحكوا، وقد التزم بموضوعات الشعر فقال في المدح، وفي الغزل، وفي الإخوانيات، وفي الاجتماعيات، وفي المساجلات، والتزم بلغة جزلة قوية قادرة على التعبير على جزئيات الأمور بشيء من المرونة والكياسة، فالشعر عند عباس الجراري مختلف نوعيا عن الكلام

(1) نسبة إلى التعريف المعروف لقدامة بن جعفر. "الشعر كلام موزون مقفى دال على معنى".

العادي، ومختلف نوعيا عن بقية الأجناس الفنية الأخرى. ومن ذلك أنه يستعمل كلمة «زجل «حينما يكون بإزاء الخطاب الزجلي على نحو قوله في صدارة قصيدة: «أنت حبي وحياتي» «زجل «يقول في هذا النص الزجلي :

«أنت حبي وحياتي وثرية داري

وضي عيني وكال زين لبها الواري

واللي افنيت فيها عمري ابعشقي واشعاري»[1]

وأكثر من ذلك يردفه بقوله :»كتب الشاعر هذا النص الزجلي في مدينة الرباط صباح يوم الأربعاء فاتح شوال 1432 هـ الموافق 31 غشت 2011 م». وإنما سلك النص الزجلى وسط الديوان في إشارة منه إلى أن هناك قاسما مشتركا بينهما وهو الفن، فالنص الزجلي فن راقٍ وجميل، على نحو أن القصيدة الشعرية الفصيحة راقية وجميلة. ويسيج نصوصه الشعرية دائما بخطاب يعتبره خارج شعري على نحو تقديم قصيدته «جرؤت فجبرت» التي ألقاها في حضرة الحسن الثاني طيب الله ثراه بخطاب خارج نصي يقول فيه «مولاي أمير المومنين ؛حفظكم الله ورعاكم ومن كل شر وقاكم، ولكل خير أبقاكم.

على إثر ما تتفضلون به علي من عطف دائم، أرجو أن تتقبلوا هذه النفثة الشعرية الصادقة، شكرا لجلالتكم على ما تتكرمون به علي من تقدير ؛ومعتذرا عن عدم قبول المناصب السامية التي عرضتموها علي منذ 1975 م إلى الآن ؛وعارضا نفسي لخدمتكم فيما يلائمني صحيا وفكريا، ومع ما أراه أكثر جدوى لشخصكم الكريم، وللعرش العلوي والدولة المغربية «[2].وحصل نفس الأمر في قصيدة :»وافت هدية سيدي» بخصوص رعاية ملكية سامية يقول في أولها :»فجاء جواب الأستاذ الجراري شعرا، مهد له بهذه الكلمات، بعد أن غادر المصحة يوم السبت الموالي: «الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله

(1) من ديوان عباس الجراري، ج 1، ص :108

(2) من ديوان، ص، 135

وصحبه مولاي أمير المومنين، سبط الرسول الأمين، وراعي حمى الوطن والدين ؛صاحب الجلالة والمهابة الملك المعظم سيدي محمد السادس ؛حفظكم الله بكتابه المبين، وأعزكم بنصره المكين «.[1]وحصل هذا الأمر أيضا في قصيدة «أفاطم مهلا «[2] يقول :»وقد مهد الشاعر لها بالعبارة التالية «[3].ويكتب لابنته «ألوف «نصا نثريا مميزا له عن الشعر بمصلح كلمة يقول :»إلى ابنتي العزيزة ألوف أهدي هذه الكلمة تعبيرا عن مدى الشوق إليك مع سلام أمك وأختك. .»[4]وحيما يعبر لها بالشعر في قصيدة «إلى ابنتي الحبيبة ألوف في ذكرى ميلادها ببلاد الغربة «يعبر عن ذلك صراحة قائلا: «كتبت هذه القصيدة بالرباط بتاريخ 24-أكتوبر 1991م «[5].وحيما يكتب لها نصا سطريا يسميه نصا، ولا يسميه قصيدة في تهنئة وشوق التي يقول فيها :

أقبل الفجر

مضيئا لروابينا العلية

يعلن البهجة

يفشيها تحيات زكية

....

يقول :»كتب هذا النص يوم الاثنين 28 ربيع الثاني 1413 هـ الموافق 26 أكتوبر 1992 م «[6]..وهكذا يتبين لنا أن الأستاذ عباس الجراري حريص كل الحرص على صفاء النوع، ومدافع كل الدفاع عن المفهوم النموذجي للقصيدة الشعرية التي تتعارض

(1) من ديوان.. ص:139

(2) من ديوان.. ص:144

(3) من ديوان.. ص:144

(4) من ديوان. ..ص :118

(5) من ديوان، ص، 122

(6) من ديوان. ..ص 126

في هويتها أحيانا مع باقي الأجناس الأدبية الأخرى. وقد بَانَ لي أن مفهومي «التقليد» و»الإبداع»، اللذين وظفهما «هانس روبير يوس» في مشروعه النقدي القائم على فلسفة عميقة، حاضران بشكل صريح في شعر عباس الجراري. .وهما ليس حاضرين فقط بل إنهما موزعان بشكل عادل مقبول في تحديث النص الشعري، وليس «التجريب «بمفهوم التمرد الكلي على موروث الأدب العربي، والتنكر له جملة وتفصيلا إلا كذبة روجها أشباه النقاد ممن انبهر بالغرب حد الانبطاح.

مكونات التقليد في شعر الجراري

التقليد ها هنا هو النص الأول في الإبداع، وأقصد به المصطلح الذي وظفه «هانس روبير يوس « لتفكيك بنية الإبداع حينما تحدث عن عنصري التقليد tradition والإبداع création ،[1] ففلسفة الكتابة عند هذا الناقد لم تَات لتقطع نهائيا مع التقليد بالرغم من أن توجهات نقدية كثيرة وضعته في موضع استفهام. .»التقليد» هنا هو مميزات النوع الأدبي، وما يميز هذا النوع عن الأنواع الأخرى، ومكونات هذا النوع بما في ذلك التناص الذي يشبع النص مياها راكدة أحيانا. .ويكون التقليد في النهاية هو توأم الإبداع في فسيفساء النص. .لا حديث عن الإبداع إلا من رحم التقليد. .وهكذا فالنص الذي نقرأه يوهمنا أو يصالحنا مع أشياء كثيرة معروفة، ولكنه في الوقت نفسه يحملنا إلى الجدة من خلال شقوقه، ومن خلال القراءة نفسها. والتقليد هو مكونات النص التي تحدد النوع وعلى رأسها في الشعر الإيقاع، وفي الشعر العربي الإيقاع الخليلي.

الإيقاع

تحضر أغلب بحور الشعر في ديوان الأستاذ عباس الجراري بدءا بأول البحور الذي هو بحر الطويل، والذي سكبَ فيه قصائدَ رائعة جدا مثل قصيدة «عجزت عن التعبير» التي يقول فيها :

عَجَزْتُ عن التعبير أبغي به شُكْـــــرَا أأكتبُـهُ نـــثرا أم أقرِضُـه شِـعْرا

(1) ينظر :Hans Robert Jauss, Pour une esthétique de la réception ,édition Gallimard ,1990

لأنَّ التي أرجـــو بشكر جوابـــــها تكامـل فيها الفضلُ شـفعا تلا وترا[1]

يرد على قصيدتي «معلقة القدس» من بحر البسيط قائلا :

الشِّـعرُ فاضَ بصِدْقٍ فلتدع سأمَا وهاجَ وَجْدُكِ حَقًّا ليـسَ ذا حُلُمَا

ومن الكامل قوله :

وتقـول لي والعين بـاد حزنها والدمع في الخد المورد يسـكب[2]

ونظم في بحر الوافر ومن ذلك قوله :

إليكِ -حميدتي-أُهْديـــكِ رُوحـــي بهـذا العيـد قـد مُزِجَتْ بِرَاحِ[3]

ومن المتقارب قوله :

دعيني -حميدتي -مـــن ذا الضيـــاءْ ضيـاء أنـار بـأمـسي البسـيمْ[4]

وهكذا يتبين لنا أن البحور الخليلية حاضرة في شعر عباس الجراري حسب الموضوعات المطروحة، الأمر الذي يشرعنُ حضور كل نغم في المحل المناسب له، ومن جهة أخرى يجعل مكون الإيقاع الخارجي عند عباس الجراري عنصرا ضروريا في مفهوم الشعر.

الموضوع

وفي شعر عباس الجراري كل موضوعات الشعر العربي بدءا بالحب العفيف الطاهر، أو الحب العذري الذي لم يخرج قط في الديوان كله عن امرأة واحدة هي شريكته في الحياة وأم أولاده، هذا الحب الذي لم تنل منه السنون، وبقي مشمخرا كما كان في البداية، ينبئ بواقعه هذا أنه لم يكن قط مزيفا في لحظة من اللحظات، وقد وصل موضوع الحب عند الشاعر مقاما سامقا لم يصله شاعرٌ قبله قط، لأن الشعراء العذريين إنما تأججت

(1) من ديوان، ص، 178

(2) من ديوان، ص، 103

(3) من ديوان، ص، 105

(4) من ديوان، ص، 43

عذريتهم، وسمق حبهم، وعلا شأنهم في هذا اللون من الشعر بناءً على تعذر الاتحاد النهائي بين الطرفين أو الزواج بالمفهوم الشرعي، وكثير من تجارب الحب التي خبا فتيلها وتراجع بريقها وذهبت إلى غير رجعة بالزواج. .لكن أن يبقى الحب قويا وجارفا في إطار الاتحاد الشرعي الذي هو الزواج، فهذا هو الاستثناء اللافت للنظر في هذه التجربة، وهذا هو الإبداع في الموضوع نفسه، يقول :

وتسْـأَلُنِي عن حبّنا بعد مـــدةٍ أما زالَ في الأحشـاء أمْ هُوَ قدْ رحلْ
فأجبتهـا والبِـشْرُ يخفِـقُ بـاسمًـا لا تجـزَعِي هـو في الشـغافِ ولمْ يَزَلْ
بـــل هو عندَلكِ قـد أقـامَ وإنَّه في القلـبِ منا لا يغـــادره الأمَلْ
لا تعجبي من ذي السنين يعيشُها والســـعدُ يملأهـا تغذيـه الشُّـعَلْ
في جذوة لا تنـــطفـــي ولهيبُهـــا أبـدا يزيد بـــلا كَلالٍ أوْ مـللْ [1]

إنه الحب الحقيقي الذي لا يموت مع الزمن، فالشاعر يحتفظ بحبه قويا متلألئا في شغافه، وهو مكنون في قلبه، وإنما سبب ذلك الجذوة المشتعلة التي لم تخب أبدا ولم تتراجع أبدا، بل بقيت في قلب الشاعر مشتعلة بل مستمرة في الاشتعال. . وهو حوار مع تيار العذريين في تاريخ الشعر العربي، فهذا المجنون ليلى يعترف أنه لم يتغير قط، وأن حبه في شغافه بقي كما كان أو أكثر يقول :

وعهدي بليلى وهي ذاتُ مؤصـــــدٍ تردُّ علـــــينا بـالعشي المواشـيَا
فشبَّ بنو ليلى وشب بنـــو ابنـــها وأعلاقُ ليلى في فؤادي كما هيا[2]

(1) من ديوان، ص، 99

(2) ديوان قيس بن الملوح، مجنون ليلى، رواية أبي بكر الوالبي، دراسة وتعليق يسرى عبد الغني، منشورات محمد علي بيضون، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1420- 1999 م ص 122

الرثاء

وتتفجر قريحة الشاعر عن ألم قوي من الداخل حينما تناهى إليه نَبَأُ وفاة زميله في العمل وفي الجامعة الدكتور علال الغازي عن قصيدة تصدع بالحزن والأسى على فقده رحمه الله يقول فيها :

اللهَ قلْ إما تُصـــابُ وتُوجَـــــــعُ فإليـه مـا عشـنا نعـودُ ونَرْجِـعُ

حُمَّ القضاءُ فلا سبـيـــــــلَ لـــردهِ فالـكلُّ يُلـقى في ثراهُ ويـودَعُ

هي سنة في الخلق يحكمـــها الـــذي يعطي الحياة لمن يشاءُ ويمنعُ[1]

فيكون اختيار البحر والقافية والروي استشعارا حقيقيا وجسا صريحا لفداحة الموقف، وقوة الخطب، إذ إن تقليص المتحركات في الكامل هو إيذان بالأسى والحزن على نحو قول الشاعر :

داء ألم فخلت فيـــــه شـــــــفائي من صبوتي فتضاعفت برحائي

ثم إنه اختار «حرف العين «رويا، وهي حرف مجهور وأول أصوات العربية مخرجا، وبالتالي يكون قد أوصل حلقة الجهر بالألم إلى أقصاه، ويبقى مستمرا في هذه القصيدة الصادحة بالحزن إلى أن يقول:

راح الحبيبُ أخي الذي عاشـــــرتُه عـــمـرا جميـلا في صفـاء نرتـعُ

غاب الصديق ومن سعدت بقـــربه وبه قـويـت إذا الخطـوب تصدع

قد كان بيـــــــن رفاقه متفـــــردا عند النوائب لا يرى يتضعضع

يأسو الجراح يقيل عـثرة معـــــوز عنـــد الشـدائد بـالعطايا يسرعُ [2]

(1) من ديوان عباس الجراري. .ص :166

(2) من ديوان. .ص 167

إنه تلوين القول في الموضوع المذكور بأبجديات القول فيه، وقد أجاد الشاعر وأمتع، وأفاض في القول وأبدع، وشعرنا بقريضه يجري في التقبل مثل الزلالِ، ويرتعُ في النفس مثل الظلال، يؤرخ بهذا القول للحظة حزينة عاشها بوجدانه وقلبه ومشاعره كلها، لكي يترجمها أخيرا في قريض متدفق يلتحم في الحزن مع الشاعر بالبحر والقافية والروي.

الفخر

يشكل النادي الجراري مفخرة من مفاخر المغرب والعالم العربي، وقد تسلم أستاذنا عباس الجراري المشعل من أبيه العلامة عبد الله الجراري رحمه الله الذي كان بحرا لا يجارى، وجهبذا لا يبارى، جمع من العلوم ما أبهر الأنام وأوقف الأقلام، وسار على دربه عباس الجراري بل أصبح صوَّة بارزة من أصواء العالم العربي في الأدب، والعلم، والثقافة، والسياسة، والأخلاق، وعقد شراكات مع كثير من الأندية في المغرب، وها هو يفتخر بالشراكة بينه وبين «منتدى الأدب لمبدعي الجنوب «فيقول :

حيِّ الأحبة واعزف نغمـــــة الطَّرَبِ ... واشربْ كؤوسَ الهوى مع منتدى الأدَبِ

أبشر بمقدمهم وانعـم بوصـــلهـــم ... فالشوق طالَ وما للبعـــــد من سَبَبِ

شاركهمُ متعة الإبـــداع إنـهُـــــمُ ... بالسوس دوما همُ للشـــعر كالشهُبِ[1]

ثم يقول في حلولهم بـ»زهرة الأس» :

حلوا بزهرة آس هم تـــــــــوائمها ... وهم برودانة في معتـــلى الرتبِ

أحيوا مآثرها زانـــوا معالمَـــــــها ... وأبرزوا مجدهـا في الصحف والكتبِ

أهلا بلقياهمُ نادي الجراري بهـــــم ... يزهو افتخارا على الأقران والنخبِ[2]

(1) من ديوان، ص، 170

(2) من ديوان، ص، 171

وهكذا فأستاذنا الأديب الشاعر عباس الجراري ينتشي بهذه الشراكة التي تربط النادي الجراري بمنتدي الأدب لمبدعي الجنوب الذي يضم أدباء وشعراء كبارا مثل الشاعر مولاي الحسن الحسيني، والشاعر الحسن أوحمو وغيرهم كثير. .وهو إنما يعبر بهذا على أن النادي الجراري منبجس في ترباء الأدب في المغرب وخارجه وليس منعزلا عن سياق الثقافة والعلم والأدب ومجرى هذه الحركة.

التحلية

لم يخل شعر عباس الجراري من مبادرات تشجيعية لبعض أعلام المغرب، والقصد من ذلك تشجيع الطاقات الصاعدة، وإنما صدر ذلك عن أخلاق عالية ديدنها التواضع، وتزكية الآخر، وعدم الانطواء على الذات. .قال في الشاعرة سميرة فرجي، بعد أن آنس شاعريتها الكبيرة في قصيدة بادرتْ بها إلى مقامه :

عجزتُ عن التعبير أبغي به شُكْـــــرا ... أأكتبـه نثـــــرا أم أقرِضُـه شِـعْرا

لأن التي أرجو بشكر جوابـــــــها ... تكامـل فيهـا الفضل شـفعا تـلا وترا

فريدة رباتِ الخـدور وكوكـــــبٌ ... يضيء سمانا ينـثر الأنجـمَ الزُّهْرا

فمهما يكن في الوصفِ لي من براعــة ... فـدون الذي أرجو وإني به أدرى

فأنَّى لمثلي أن يَعُدَّ خِصـــــــالـهَا ... وكيف ومن يسـعى لِذا يشتكي العُسْرا

أصيلُ قصـــيد سبكته متانـــــــة ... وروعـةَ تصـــوير تصوغُ بـه الدرا[1]

إلى أن يقول عن جذم إعجابه بها :

سلوني عن شعر لها قد خبرتـــــــه ... فليسَ له مثلٌ ومن شـاء فليقرا[2]

(1) من ديوان، ص، 178

(2) من ديوان، ص، 178

ثم يقول :

وإني لمعتز سعيـــــــد بشعرهـــــا ولي قدمت «نورا» فجزت به البدرا[1]

المساجلات

بعد أن أهداه الشاعر الكبير علي الصقلي عمله «بين صديقين «أي طائفة الأشعار التي دارت بين الشاعر علي الصقلي والشاعر محمد الحلوي محلى بقوله: «إلى صيابة الأدب والأدباء تفكيرا وتدبيرا وإشعاعا وإمتاعا الأخ الأعز د.عباس الجراري مع كل التقدير والاحترام قال : «بلْ أنتَ أنتَ»:

بل أنتَ أنتَ هو الصُّيَّابةُ ياعَـــــلِي في العلمِ والآدابِ والسـحرِ الندِي

وبما كتبْتَ وما بـــذلتَ وكلِّ مَـــــا أحرزتَـهُ بـالنُّبْـلِ والطـبـع الأبِـي

وخصالِ عِزٍّ لستُ أقـدرُ عـــــدَّهَا هي مكرماتُ الخِيمِ والفكرِ البَهِي[2]

وضمنت ديواني «مسافات لبلوغ الفجر»[3] قصيدة موسومة «معلقة القدس « فيها ديباجة مكتوب فيها «تقرير مرفوع إلى عميد الأدب المغربي عباس الجراري» مصطفى الطوبي أكادير 4 ماي010 2م مطلعها :

الشعرُ دَقَّ على الوِجْدَانِ مُـحْتَشِـمَا والبَدْرُ هَلَّ على الأشْرَافِ مُبْتَسِـــمَا[4]

(1) من ديوان، ص، 179

(2) من ديوان، ص، 176

(3) مسافات لبلوغ الفجر "مصطفى الطوبي، منشورات جمعية الشيخ ماء العينين، الرباط 2015 م.

(4) مما ورد في القصيدة :

عباسُ يا عمدةَ الآدابِ أجمَـــعِهَـــا يا بلسمَ الجرحِ هيِّـــا أَفْتِنَا حِكَـــمَا

ماذا ترى هذه رؤيـــايَ أَسْرُدُهَـــا صوتًا رخيمًا كسيرَ النبرِ مُنقَـــسِـــمَا

القُدْسُ في غفلةِ التَّـارِيخِ نائِـحَـــةُ قدْ صَارَ فيها صَلاَحُ الدِّيـن مُنْهَزِمَـــا

وصار للناس في أحـــوالهم قَـــــدَرٌ كلٌّ يغنِّي عَلى ليلاهُ مُبتسِـــــــمَا

عبَّاسُ يا أيها الشادي بصـــولتـــه ماذا أقول وقد أربكتني قَـــــسَمَا

ويرد علي قائلا :[1]

الشِّعرُ فاضَ بصِدْق فلتـدع سأمَـــا وهـاجَ وَجْدُكِ حَقًّا ليـسَ ذا حُلُمَا

أبْدَعْتَ رائعةً أحـيثْ مشـاعِرَنَـــا وأطـربَتْ أنْفُسًا تَـاقتْ لِمَا نُعِّمَا

وأخْرستْ ألسنا دعوى الجديدِ لهـــا هَـدْمُ الأصيـلِ ومـا يبدو لهَا سَـقِمَا

راح الظلامُ الذي قد كنت تحسِبُـــهُ على الـوهاد بكل الأفق قد جَثَمَا

أبدعْ كما شئتَ لا تَحْفِلْ بذي حَسَـدٍ ولا يَـرُعْكَ الذي بالقلبِ قـدْ نَقَمَا

فالشعرُ عندك أنـــغامٌ مرتلـــةٌ بها سموْتَ وكنـتَ النجـمَ والعلمَا

التناص

إن أول معطى عن تناص شعر عباس الجراري هو التجاوب بشكل لافت للنظر مع تاريخ العشق في الأدب العربي، وهو عشق طاهر عذري، سليم من كل شبهة لأنه مندرج في العلاقة الشرعية المؤطرة دينيا. .موضوع العشق العذري الذي يكتسح الديوان من أوله إلى آخره إذن هو تناص مع هذا الموروث التاريخي، وإذا كان منهج الشك الذي اتخذه طه حسين جعله يشك حتى في وجود هذه الرموز الكبيرة في الحب العذري ومنهم مجنون ليلي[2]، فإننا لن نشك البتة في هذا الحب العذري الذي تبرعم في عصرنا، وكان أحد بطليه هو عميد الأدب المغربي الأستاذ عباس الجراري. يقول في قصيدة : «بدا كمثل شمعة».

بدا كمثل شمعة الأماســـــــــي تـــزيـل ظـلمـة وكل بـاس

في ذهبي الأعوام فاق الماســـــــي غـزا القليـب بمـــدام الكاس

واللحظ منه فاتـــــر يـــــواسي بيـده ورد وزهـــــر الآس

فتحت صدري دونما التبـــــاس وقلـت :أهـلا طيـب الأنفاس

(1) من ديوان عباس الجراري، ج، 2، ص، 200.

(2) مقدمة ديوان مجنون ليلى ص: 9.

حبي إليك جاء بـــــعد يـــــاس فلتنظـري ولتنطِـقي : عَبَّاسي

أنت الحمـــــيدة بلا إبـــــلاس دوام وصـلـك غـدا لباسي[1]

..وما يلفت نظرنا في هذا الباب أن التناص لم يمد يده إلى الموضوع فقط الذي هو الحب الطاهر العفيف، بل امتد أيضا إلى الإيقاع والقافية في تجاوب واضح مع عدد وفير من قصائد مجنون ليلى منها قول هذا الأخير:

لقد لامني في حـب ليلى أقـــــارب أبي وابن عمي وابن خالي وخاليا

يقولون ليـــلى أهل بيت عـــــداوة بنفـــسيَ ليلى من عـدو وماليا[2]

ويقول :

لحا الله أقواما يقولـــــونَ إنـــــنا وجـدنا الهوى في النأيِ للصبِّ شـافيا

فما بال قلبي هده الشوق والهـــــوى وأنضـــــج حر البين مني فؤاديا[3]

ويقول :

ألا لا أرى السير إلا مصـعـــــدا ولا البرق إلا أن يكـــــون يمانيا

على مثل ليلى يقتل المرء نفســـــه وإن كنت من ليلى على اليأس طاويا[4]

ثم يقول شاعرنا عباس الجراري في قصيدة «متى يكون وصل الحبيبة» :[5]

أغدًا ألقاكِ[6] أم بـعـــد غـــــدِ؟ يومَ ســـبتٍ أم فـي يوم الأحد؟

(1) من ديوان، ص، 98

(2) ديوان مجنون ليلى ص :38

(3) قيس ص :42

(4) قيس ص :57.

(5) من ديوان، ص، 69

(6) كلمات الهادي آدم ألحان محمد عبد الوهاب غناء أم كلثوم.

وهي متناصة مع النص الرائع الذي كتبه الهادي آدم، و أدته أم كلثوم، «أغدا ألقاك يا خوف فؤادي من غد».

المعجم والتركيب

يحضر في شعر الأستاذ عباس الجراري معجمٌ جزلٌ يدل على «المهيمنة « بتعبير الشكلانيين الروس. .فقصائده جميعها تنتظم في موضوع حبه لزوجه «حميدة»، و»حميدة» تتكرر في الديوان لما ينيف عن خمسين مرة، وهو رقم لا أعتقد أنه موجود حتى في ديوان «مجنون ليلي». ولذلك فإن المعجم يعضد هذا البعد الوجداني فنجد الحقول المعجمية متوارية وراء «حقل الحب « الذي يطفح بمعجمات معضدة للموضوع المذكور من مثل «القلب» و»الوجدان»، و»العشق» و»الكمد»، و»الفتح»، و»البهجة»، و»الفجر»، و»اللظى «،و»الخد»، و»الوجع»، و»الروح» إلخ.

مكونات الإبداع في شعر الجراري

البناء النصي

لم يلتزم عباس الجراري دائما بشكل القصيدة العربية المكونة من شطرين حسب ما هو مألوف في تراثنا العربي، بل إنه أشرق أحايين كثيرة بأشكال أخرى معروفة أيضا في الساحة منها الشكل السطري، يقول في قصيدة «طهر الحب»:

ويح نفسي هل أنا كنت دنيا
انظري ثم انظري عيني مليا
واقرئي ثم أعيديها عليا
ليس فيها غير حب لم يدع للإثم شيا

***

اطمئني، ليس في جسمي مكان للظاه
لم يعد يبلغ من نفسي مداه

وفي قلبي ليس من كره سواه

فاستريحي إن للحب عصاه [1]

بنيات اللاتحديد

تشمل بنيات اللاتحديد في قصيدة الأستاذ عباس الجراري عناصر عديدة تبعث على القراءة أو تسهم في بناء اللاشعور النصي، وهي عناصر توجه القراءة أكثر ما تقبع في النص نفسه. .وعناصر اللاتحديد هي التي تجعلنا ننتشي بالنص ملكا لنا نؤوله حسب قناعاتنا وكدماتنا وظروفنا وأحوالنا إلخ. .

يقول عباس الجراري :[2]

إني وإياكِ يا حبي مَـدَى الأبُـــــدِ عشـقٌ سَـعِدنـا به من نِعمةِ الصَّمدِ

والكلُّ يَعْرِفُ أنا منذ صَـبْـــــوتنَا لم نفـترقْ لحظةً كالروحِ في الجَسَـدِ

واليومَ أمسيتُ وحدي في لظَى كَمَدي يا ليتـني كنتُ قبـــلَ اليـوم في لَحَدِ

إن التأويل الأول للنص، وفق القراءة الاجتماعية التي تسلط الضوء على الشاعر في وضعه الاجتماعي، تأبى إلا أن تدرج زوج الشاعر في المعنى، إن الشاعر وزوجه «حميدة» هما اللذان لم يفترقا قط في حياتهما، مثل الروح للجسد، وحبهما هو نعمة من الله، ثم إن الفراق العارض الذي حصل بينهما أحدث رجة في نفسية الشاعر، وصدمة قوية جعلته يتمنى الموت بدل أن يعيش هذا الواقع المأساوي. .إنها القراءة الأولى التي تخرج عن النص إلى كثير من ظروفه الأخرى. .إلا أننا لا نقول إن هذه القراءة هي الوحيدة المشروعة للنص، وأنها قراءة تصادر ما شذَّ عنها أو اختلف عنها، لأننا لا نتوفر على صكوك المعنى الواحد في النص الأدبي. ولذلك من حق القارئ العابر أن يتملى بالنص ويقرأه بالطريقة التي يريد شريطة أن يحترم موجهات القراءة في النص. .ولذلك قد يرى قارئ أن الأمر ها هنا متعلق بالحرية، فتكون القراءة كالآتي :

(1) من ديوان، ص، 45

(2) من ديوان، ص، 67

إن الشاعر من كثرة انتشائه بالحرية في التعبير والتحرك والعمل أصبح يراها لازمة ضرورية له، وهي نعمة من النعم التي أنعم الله بها عليه، ثم إن الناس جميعا يعرفون أن نعمة الحرية قد لازمته منذ نعومة أظفاره، وأنها تلبست به مثل الروح للجسد، وأنه بفقدها في لحظة من اللحظات شعر بالظلام وتمنى لو مات عوض أن تضيع منه هذه النعمة.

وقد يأتي قارئ آخر ويعتبر أن المعشوقة هي القراءة، فالشاعر لم ينقطع قط عن القراءة في حياته، وأنه ألفاها نعمة كبيرة حباه الله إياه، وهما توحدا من كثرة تفانيه في القراءة حتى أصبحا مثل الروح للجسد، وأنه ولسبب طارئ انقطع عنها فتمنى لو مات بدل أن يحصل له هذا الأمر. وقد يفهم قارئ آخر من المخاطبة «الوطنية»، وكل عنصر يعضد قراءة المخاطبة بهذه الطريقة المتحررة غير المتحجرة والمتقوقعة على فهم واحد فقط.

لعلني إنما فتحت الباب مشرعا لكي أظهر عمليا كيف أننا يمكن أن نتنور الإبداع في شعر عباس الجراري. .هو إبداع يستل من المجتمع وبناء على القراءة ذاتها.

أسماء الأماكن

عادة ما يكون النص الشعري حابلا بعناصر موجهة للقراءة، ومن هذه العناصر أسماء الأشخاص وأسماء الأماكن، والأشياء، وغيرها كثير. ونشير بهذا الخصوص إلى أن هناك كثيرا من أسماء المدن العالمية التي يطفح بها ديوان الشاعر عباس الجراري من مثل «الدكار»[1]،و»نواكشوط»[2]، والكابون[3]، وبوركينافاصو، [4]والسينغال[5]، الأردن [6]، وعمَّان [7]، وهي تدل على العالمية والانفتاح على العالم، فالشاعر وفق هذه الرموز المكانية

(1) من ديوان، ص، 91

(2) من ديوان، ص، 89-92

(3) من ديوان، ص، 87-84-83-82-81

(4) من ديوان. .ص :85

(5) من ديوان، ص، 89-87

(6) من ديوان، ص، 74

(7) من ديوان، ص، 74

ليس شخصا متقوقعا في المكان، وإنما هو شخص منفتح على أمكنة كثيرة الأمر الذي يجعلنا نخمن أسباب هذا الانفتاح التي لا تخرج عمليا عن أمرين، إما انفتاح عملي وله مشروعية كبيرة له لأن الشاعر عالم راسخ في العلم وتجواله في العالم مشروع لهذا السبب الوجيه، وإما سياسي وله مشروعية كبيرة أيضا لأن السياسي غير منفصل عن العلمي، بل إن العلم وسيلة عملية لممارسة السياسة. وهذه الأماكن التي ترسم صورة عن الشاعر في تحركاته تقترن بأسماء مدن محلية من مثل مكناس [1]،وردانة[2]،وسلا، والرباط، وتارودانت، وهكذا فإن لاشعور النصوص من خلال هذه الأماكن يفصح لنا عن مهمة علمية وسياسية كبيرة تكمن وراء ظاهر النصوص الشعرية التي تتحدث في غالب الأحيان عن موضوعات مختلفة.

أسماء الأشخاص

هناك أسماء كثيرة لافتة للنظر في ديوان عباس الجراري على رأسها اسم «حميدة» التي وردت في الديوان عشرات المرات[3]، وألوف[4]، وعلا [5]ومحمد[6]، وريم [7]، ونور (ابنة ألوف)[8] إلخ، وترد أسماء أخرى في العائلة الكبيرة يتقدمها اسم صاحب الجلالة محمد السادس نصره الله، واسم المغفور له الحسن الثاني تغمده الله برحمته، وأسماء أخرى مثل الشيخ المنعم زايد بن سلطان آل نهيان، والشيخة فاطمة أرملة سمو الشيخ زايد بن سلطان، والأستاذ حسن أوريد، والفقيه محمد بن عبد الله الروداني، والشاعر محمد بن الراضي، والدكتور مانع سعيد العتيبة، والشاعر عبد اللطيف خالص، ومحمد حكم، والمرحوم علال

(1) من ديوان.. ص:93

(2) من ديوان.. ص:103

(3) تنظر الصفحات 77-74-73-71-70-66-65-63-44-43 (3مرات)-78 (مرتين)--89-88-87-86-83-81-79 93-92-90-(مرتين)،95-94 -97 -105-103-100-98 (مرتين)-113-109-108-(مرتين)-132 (مرتين)-

(4) تنظر الصفحات 127-126-63

(5) تنظر الصفحات 117-63

(6) تنظر الصفحات 120-63

(7) تنظر ص 130

(8) تنظر ص 131

الغازي رحمه الله، ومحمد الدعداع، وعلي الصقلي، والشاعرة سميرة فرجي، ومصطفى الزباخ، وعبد العزيز التويجري. .

إن حضور هذه الأسماء بترددات مختلفة يطرح مسألة نقدية معروفة هي مسألة «المهيمنة» [1]التي وظفها الشكلانيون الروس لقراءة النص. إذ يمكن للمتصفح العابر أن يضع الإصبع على القضية الجوهرية في الديوان من خلال مسألة المهيمنة، وهكذا فتردد اسم «حميدة» لما يربو عن خمسين مرة في الديوان لا يمكن أن يكون أمرا عابرا، إذ إن القضية الجوهرية في الديوان كله هو الحب باعتباره نسغ الحياة، والعلاقة المتوحدة بين شخصين متوحدين في المصير والحياة حلوها ومرها. .وهكذا فإن هذا التكرر وحده يعصر من الديوان صورة الحب الطاهر الجارف الراسخ. إنه الحب الحقيقي الذي لم تنل منه السنون، ولم تعصف به الأحداث بل هو بقي مشمخرا كما كان في بدئه. إن تكرر اسم «حميدة» عشرات المرات لما يربو عن خمسين مرة ليس له تفسير آخر إلا مركزيتها في الديوان الشعري، وأهميتها فيه، وتراجع كل الموضوعات الأخرى وراءها.

***

(1) نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلانيين الروس، ترجمة إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة الأولى، 1982 ص:85

التجربة الشعرية عند الدكتور عباس الجراري

دة. ربيعة بنويس (*)

الدكتور عباس الجراري هو عميد الأدب المغربي بدون منازع، حمل على عاتقه مشروعا كبيرا تمثل في الدعوة لخدمة التراث والأدب المغربي شعره ونثره، وذلك من خلال مؤلفاته أولا، تلك المؤلفات التي غلب عليها جانب التعريف والتأريخ لظواهر وأعلام وقضايا هذا الأدب، بدءا من مؤلفه «الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي» مرورا بكتبه «القصيدة» أو «الزجل في المغرب»، و«قضية فلسطين في الشعر المغربي حتى حرب رمضان»، و«النضال في الشعر المغربي» و«الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه»، و«عبقرية اليوسي» وغيرها، وصولا إلى مؤلفيه القيمين اللذين لا يمكن إلا أن نعتبرَهما من مصادر الأدب المغربي الحديث والمعاصر، وهما «مع المعاصرين: أسماء وآثار في الذاكرة والقلب» و«تطور الشعر العربي الحديث والمعاصر في المغرب من سنة 1930 إلى 1990».

أما الجانب الثاني من مشروع الدكتور عباس الجراري الضخم، فتمثل في المدرسة التي عمل على إنشائها من خلال عمله الأكاديمي الذي زرع خلاله حب الأدب المغربي وحب البحث في مغالقه وكنوزه الدفينة، وتشجيع طلبته عل الخوض في تحقيق المخطوط منه وجمع المتفرق، سواء تعلق الأمر بالشعر أو النثر أو التصوف أو الزجل والملحون، لذلك توسعت دائرة هؤلاء الباحثين المنضوين تحت المدرسة الجرارية التي كان هدفها

(*) أستاذة جامعية، كلية الآداب، جامعة ابن طفيل، القنيطرة.

الأول خدمة الأدب المغربي والتعريف به وإظهاره لمن ينكر على المغرب والمغاربة أن يكون لهم أدب.

أما الجانب الثالث، فيتمثل في النادي الجراري والذي استطاع من خلال المنتمين له أن يعمل ومنذ تأسيسه سنة 1930 إلى وقتنا الحالي، ومن خلال التنوع الفكري والثقافي لهؤلاء المنتمين، على مدارسة الكثير من القضايا الفكرية والأدبية ولعل الشعر هو الذي نال حصة الأسد، ويظهر ذلك من خلال ما تناوله الدكتور محمد احميدة في كتابه «شعراء النادي الجراري: الشاعر والنص»، حيث يقول: «شكلت القراءات الشعرية في النادي الجراري فقرة أساسية لا تكاد تغيب إلا لماما، فخلال الفترة التي نحصر داخلها هذه الكتابة والممتدة من 1983 إلى 2013، كان القول الشعري وإنشاد القصائد والمقطوعات حاضرا بشكل يكاد يكون مسترسلا؛ ويبدو الأمر طبيعيا حينما نعلم أن جل الأعضاء المنتسبين لهذا النادي من المهتمين بالدراسات الأدبية، بل وبعضهم ممن له باع طويل في مجال القصيد؛ ولم تكن القراءات الشعرية التي تتم في مجالس هذا النادي الأدبي محصورة في أعضائه، بل يفسح المجال كذلك لشعراء آخرين يفدون على هذا المجلس ضيوفا، مغاربة وغير مغاربة من أقطار عربية متعددة»[1].

وعموما، فالدكتور عباس الجراري مفكر وباحث في الأدب ونقده، سواء من خلال مؤلفاته أو الأطاريح والرسائل التي أشرف عليها، أو ملاحظاته داخل النادي حول الشعر والشعراء والقضايا المختلفة التي كانت موضوع الجدل والنقاش.

من خلال ما ذكر يتبين أن علاقة الدكتور عباس الجراري بالشعر كانت قديمة، ولعل هذا القدم لا يبدأ فقط من تأليفه لأول كتاب في الشعر المغربي حول علم من أعلام الشعر في الدولة الموحدية، وهو أبو الربيع سليمان الموحدي سنة 1965، بل يمتد إلى ما قبل ذلك بكثير، وهذا ما أراد الدكتور محمد احميدة أن ينبه إليه حين قال: «علاقة الدكتور عباس الجراري بالشعر العربي علاقة وطيدة، وتمتد في الزمن إلى مدى عقود، ابتدأت

(1) محمد احميدة، شعراء النادي الجراري: الشاعر والنص، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، 2015، ص10.

منذ أيام الطلب، حيث كانت مجالسته لوالده العلامة عبد الله الجراري، مناسبة لحفظ العديد من القصائد واستظهارها والتنبه على أهم دواوين الشعراء العرب الفحول، فضلا عما تلتقطه ذاكرته من خلال ما يسمع من أشعار في النادي الجراري الذي كان والده يعقده مساء كل يوم جمعة، أضف إلى هذا الأمر ما كانت تتضمنه مناهج الدراسة في مراحلها الابتدائية، متمثلة في بعض «المحفوظات» والأناشيد، إلى المرحلة الثانوية حيث التعرف على المزيد من الشعراء العرب في عصورهم المختلفة، لتتعمق الصلة بالشعر في مرحلة الدراسة الجامعية، بل ليكون موضوع رسالة الماجستر للدكتور عباس الجراري مرتبطا بأحد أهم شعراء المغرب في العصر الموحدي، هو الأمير أبو الربيع سليمان الموحدي»[1].

والذي يؤكد قدم علاقة الدكتور بالشعر، هي بداياته الأولى في هذا المجال، وهو لا يزال طالبا للعلم في القاهرة، ومن خلال أبياته الشعرية وخواطره الرقيقة التي كان يبتها لحبيبته الوحيدة «حميدة»، فأول تلك الأبيات تعود في تاريخها وحسب كتاب «من ديوان عباس الجراري» إلى 1960/10/19، وهو شاب يافع متدفق حبا وهياما بالتي صارت زوجته وأم فلذات كبده، وما قاله متشوقا لرؤيتها، متألما على عدم حضورها في الوقت، وإن كان فيها غير معترف بشاعريته حيث كان يطغى عليه وقتها جانب البحث والفكر يقول:

«الساعة تدق التاسعة، وقد مضى أزيد من ساعة عن خروجك من الجامعة ولم تحضري كما وعدت، وبدأت أشعر بضيق شديد لم أدر إلا وهو يدفعني لأنثر لك هذه الأشطار الشعرية الخفيفة:

دعيني حميدتي مـــن ذا الضيـــــاء ضياء أنار بأمسي البسيـــم

دعينـــي فنفســي بهـــا ظلمـــة وقلبي وروحي أحبَّا الظلام

دعيني ففي رأسنا ذكريـــــات عـن الحب في الرجع مثل الأنين

(1) محمد احميدة، شعراء النادي الجراري: الشاعر والنص، ص113.

لعـــــــل تذكرَهـــــا خلـــوةً ينفـــــس عمـــا بقلبـــي دفيـــن
زمانـــا أشـــع علـــــيَّ الحيـــاة وصاغ على ثغري البسمـات
فأصبح مثل ليالي الدجـــــــى تـــدر لـــه مقلتـــي العبـــــرات»[1].

فهذه الأبيات من الوزن المتقارب، وهو من الأوزان الخفيفة والصافية والتي تكون سهلة على المبتدئين، وهو يصلح للتعبير عن النفس المتعبة والقلقة، ولعل الموضوع المعبر عنه هنا نحس من خلاله بقلق الشاعر والتعب النفسي الذي يعانية بسبب تأخر الحبيبة عن الموعد ولشدة حبه وهيامه بها، وقد أجاد في استخدامه في هذه الأبيات لأنه استطاع أن يكسر ذلك التشاؤم عنده، وذلك من خلال تلاحق أنغامه وخفته، حيث خلق نوعا من التلاؤم والتناغم بينه وبين اللقطات والصور الموجودة في النص، وهي صور تنطق عما يجيش به صدر الشاعر من عواطف جياشة صادقة، ولكنها في نفس الوقت تعبر عن المراحل الأولى من شاعرية الدكتور عباس الجراري، هذه المرحلة التي كان الشعر فيها عنده يعتبر «عملية إلهامية صرفا، ومجرد انطباعات عفوية وأحاسيس ذاتية معروضة في تركيب فني جميل، تلقائي أو مصنع حسب إمكانات الشاعر»[2] في تلك المرحلّه العمرية التي قال فيها قصيدته.

كما أن هذا الشعر يذكرنا بالتيار الرومانسي الذي عرف مع مدرسة المهجر والديوان وأبولو، من خلال دعوة روادها إلى تجاوز الشعر التقليدي بقيوده العقيمة، ومنها ما يخص التنويع على مستوى القوافي، إذ نجد في القصيدة والتي تبلغ عشرين بيتا، استقلالية كل بيتين بقافية مختلفة عن الأبيات الأخرى، وإن كان الموضوع يعبر عن تجربة شعرية واحدة وهي البوح بالحب العميق اتجاه المحبوبة، والشكوى من شدة الجوى والعشق.

(1) من ديوان عباس الجراري، إعداد وتقديم: محمد احميدة، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، 2017، ج، 1، ص43.

(2) د.عباس الجراري، مع المعاصرين: أسماء وآثار في الذاكرة والقلب، دار الهلال العربية للطباعة والنشر، ط1، 1995، ج1، ص14، وهو في هذه القولة، يحاول أن يتحدث عن تطور التجربة الشعرية عموما من مجرد كونها انطباعا وإلهاما إلى أنها أصبحت تحمل رسالة وطنية وقومية.

متى تفتقت شاعرية الدكتور عباس الجراري ؟

قبل الخوض في دراسة القضايا والموضوعات التي تناولها الدكتور عباس الجراري في شعره، لا بد أن نقف مع عميد الأدب المغربي، لنعرف مفهوم الشعر عنده انطلاقا مما دونه هو نفسه، يقول: «مازلنا نؤمن برسالة الشعر والأدب عامة، سواء من حيث تمثيله لضمير الأمة وكيانها، وتعبيره عن حياتها وحيويتها، أو من حيث توجيهه لمصيرها، وفتح آفاقِ المستقبل أمامها، وتفجير طاقات النضال والتغيير المعتملة في جماهيرها لتمحوَ كلَّ مظاهر التخلف وجميعَ آثار الاستعمار»[1]، ويضيف: «والشاعر أو الأديب عامة، بما له من حس مرهف ووجدان متجاوب، وبما له من نفاذ رؤيا وجسارة تجاوزٍ وطاقة إبداع هو أقدر من غيره على الكشف عن ملامح الحياة وحقيقتها التي تنبثق تلقائيا، بعد أن يتأملها ويصهرها في نفسه ووعيه وفكره، ويعطيها من تجربته العاطفية والعقلية، في علاقة جدلية بينهما تجعله ينفعل مع قضايا الفكر والسياسة ويتخذ منها موقفا يتجاوب فيه مع مجتمعه، شريطة أن يكون هذا الموقف واضحا يعبر عنه في شعره ويفسره، بعيدا عن الغموض والتغليف، ولو كان ذلك بدعوى الجمال والفنية»[2]، من هنا نخلص بأن الشعر عند عباس الجراري هو التعبير الصادق والواضح الذي يستطيع الكشف عن ملامح الحياة ويستطيع التجاوب مع قضايا المجتمع.

ولعل هذا ما يجعلني أتفق مع الدكتور محمد احميدة بأنه لا زالت الكثير من القصائد دفينة عند الشاعر لم يفصح عنها لأسباب ذاتية وشخصية، قد تكون تناولت مجموعة من القضايا القومية والوطنية والأحداث الاجتماعية وغيرها، خصوصا وهو الأديب والناقد الذي تناول هذه القضايا في كتاباته الأدبية والنقدية نحو «النضال في الشعر المغربي» و«القضية الفلسطينية في الشعر المغربي حتى حرب رمضان»، تلك القضايا التي

(1) الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، مكتبة المعارف، الرباط، ط1، 1978، ص15-14، ومع المعاصرين، ج1، ص14.

(2) د.عباس الجراري، مع المعاصرين: أسماء وآثار في الذاكرة والقلب، ج1، ص15-14.

يكون الهدف من ورائها التنوير والإصلاح والتغيير، يقول الدكتور محمد احميدة في تقديمه للديوان: «إن الفترة الزمنية التي تمتد ما بين سنوات الستين من القرن العشرين والعقدين الأولين من القرن الحادي والعشرين، والذي يؤطر الإنتاج الشعري الذي وقفنا عليه، لا تشكل سلسلة متماسكة من البداية إلى النهاية، تسهم في رسم خط واضح للتطور الشعري عند عباس الجراري، فعبر هذا الامتداد الزمني، هناك فراغات وثغرات تمتد أحيانا لتغطي سنوات عديدة، فهل يمكن القول إن الشاعر الجراري لم يكن مواظبا على كتابة الشعر، وأن هذه الكتابة كانت تدخل بين الحين والآخر مرحلة كمون؟

يصعب الجزم بهذا الأمر، مع غياب المتن الكامل لشعر الشاعر، وأميل إلى القول إن ما أمدني به الأستاذ عباس الجراري من أشعاره، لا يعدو أن يكون بعض ما كتبه، يدفعني إلى الترجيح دليل مادي يفصح عنه العنوان الذي يقترحه لديوانه وهو «من ديوان عباس الجراري»[1]، بل هناك إشارات وردت في نفس الكتاب تدل على أن الشعر عند الجراري ابتدأ بسيطا مدرسيا وهو ما يزال تلميذا بثانوية مولاي يوسف بمدينة الرباط، وأن والده هو من كان يرعى هذه التجربةَ ويراجعُها، لكن شاعرنا لا يعتبرها إنتاجا شعريا يستحق النشر[2]؛ وأضاف الدكتور محمد احميدة قائلا بأن الدكتور عباس الجراري لما رحل إلى مصر لاستكمال دراسته صيف سنة 1956، صادف ذلك حدث العدوان الثلاثي عليها، هذا العدوان الذي كان له أثر على الشاعر الذي تفاعل مع الموضوع فدونه شعرا، لكنه تعمد حجبه، كما أشار إلى ذلك هو نفسه[3]، وأتمنى أن نتمكن من قراءة هذه التجربةِ والتعرفِ على كنهها موضوعا وشكلا.

وهنا أطرح السؤال التالي، ما هي أهم الموضوعات التي تناولها عميد الأدب المغربي في أشعاره؟ وكيف كان تناوله لها؟

(1) د.محمد احميدة، مقدمة من ديوان عباس الجراري، ج1، ص14.

(2) نفسه، ص11.

(3) نفسه، ص12.

1. شعر الغزل:

يقول الدكتور عباس الجراري: «تحتل المرأة في الأدب العربي صفحاتٍ غيرَ قليلةٍ، تبدو فيها إلى جانب الرجل، تقاسمه الحياة وتشاركه العيش، يتحدث عنها في عز وفخر، ويرسل الشعر فيها متغنيا بعشقه وحبه في طرب وبهجة وسرور»[1]، فالمرأة إذن هي نصف الرجل ومكمله، لذلك راح الشعراء يقولون فيها القصائد معبرين فيها عن حبهم وهيامهم بها، بل لعل أولَ موضوعات شعرهم تكون المرأة محورَها، ولعل هذا ما صادفناه عند الدكتور عباس الجراري الذي كانت أولى قصائده في حبه الأول والأخير «حميدة» التي فتقت شاعريته، فنالت بسبب ذلك النصيب الأوفر من ديوانه، ويمكن أن نطلق على هذا النوع من الشعر «الغزل العذري» الذي يكون صادرا عن حب كما يذهب إلى ذلك الدكتور الجراري، و«قد يكون طبيعتَه العشقُ، يقتصر فيه الشاعر على امرأة واحدة بعينها، يحبها في وفاء وإخلاص وتضحية»[2]، ومما قاله الشاعر في هذا الموضوع الذي تحس فيه بتلك العاطفة الجياشة الصادقة المتقدة قصيدته المعنونة «وهم رسم الحبيبة» التي قالها في بداياته الأولى لنظم القريض، ومنها:

أرى رسمك الباهي أراه معانيـــا ... أرى فيه تذكيري وما كنت ناسيا

أرى فيه إغراء أرى فيه بسمـــة ... أرى كل شيء قد أذاب فـؤاديا

أرى فيه آمالي أرى فيه حاضـــري ... أرى فيـه أيامي وحلـوَ الليـاليا

أرى فيه صبحا للدياجي مبـــددا ... أرى فيه نورَ السعد يحدو حياتيا

***

(1) د.عباس الجراري، صفحات دراسية من القديم والحديث، دار الثقافة، ط.1، 1976، ص69.

(2) نفسه، ص70.

فلِمْ يا حبيب القلب تقسو تبرمـــا وكان جـديرا أن تَحِـنَّ وتَرْحَمَا ؟

عَهِدْتكَ يا حِبّي تسامح غلطـــــتي فما لك تبدي اليوم هـذا التجهما؟

فإن كنت لا تعفو وإن عن صغيـــرة فأولى بقلبي أن يعيش على ظَما

ويا ويح نفسي ما أقول وإنـــــني أحِـــبُّ لأن أحيا وأن أتنعمـــا[1]

نظم الشاعر هذه القصيدة على الوزن الطويل، والذي لا يوجد من أوزان الشعر العربي ما يضارع نسبة شيوعه، حيث جاء ما يقرب ثلث الشعر العربي القديم على هذا الوزن[2]، واستمر بشكل كبير حتى في قصائد الشعر الحديث العمودية، وهو من الأوزان الفخمة الرصينة التي تجد فيها أبدا بهاء وقوة[3]، كما أنها تحتاج إلى نفس طويل وإلى معاني غزيرة عميقة، وإلى عاطفة تزداد تأججا واشتعالا، بمعنى بسيط إنها تصلح للمواضيع الجدية، والشاعر هنا جدي وصادق في حبه، إنه يشكو ألم الوجد وقسوة الحبيبة وخصامها له، متذكرا، من خلال رؤية صورتها، أو رسمِها حسب تعبيره، جملة من المعاني، منها الإغراء والبسمة المؤديان إلى ذوبان قلبه، هذا الرسم الذي يرى فيه حاضره ومستقبله، آماله وأحلامه وكل شيء جميل برفقة حبيبته، فيخاطبُها برفق مستفسرا عن سبب القسوة والتجهم، ملتمسا العفو والرحمة التي ستجعله ينعم بعيش هني، لذلك لا يجد أمامه مرة أخرى إلى الرسم الجميل فيبثه شوقه وحبه العظيم، مضفيا على المحبوبة ألوانا من الصور الدالة على جمالها الخلاب وحسنها الأخاذ الذي لا يزيده إلا شوقا وهياما بها يقول:

أعود إلى الرسم الجميل فـــــلا أرى سوى كَلِمِ الحبِّ العظيـم منسَّقـا

كأنك فيـه البدر يوم تمامـــــــه أو النجـم في وسـط السماء تألقا

(1) من ديوان عباس الجراري، ج1، ص49.

(2) إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ط5، 1981، ص59.

(3) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق، محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط3، 1986، ص269.

أجـولُ بطرفـي في ثنايا سطـــــوره فلا أرى غيـر الحسـن دُرًّا منمقـا

إذا لَمَـحَـتْ عينـي جمال لِحاظِـــــه تضاعف شـوقي ثم زِدْتُ تَعَشُّقا[1]

فالشاعر في هذه الأبيات يتوسل بالصور الشعرية الجميلة المعتمدة على التشبيه الذي يعتبر «من أشرف كلام العرب، وفيه تكون الفطنة والبراعة، وكلما كان المشبّه ألطف، كان بالشعر أعرف، وكلما كان بالمعنى أسبق، كان بالحذق أليق»[2]، ففي البيت الثالث من الأبيات الشعرية الأخيرة، يشبه الشاعر الحبيبة، لشدة جمالها، بالبدر يوم تمامه وبالنجم وسط السماء، وهي صور ألفناها في الشعر العربي القديم؛ أما القافية فنلاحظ التنويع في استعمالها، فمن الياء إلى الميم إلى القاف ثم عودة إلى الميم وبعدها إلى الياء، وكأن الشاعر اعتمد هذه الطريقة في كتابة أبيات قصيدته التي جعل «القاف» تتوسطها، خالقا بذلك نوعا من الهيكلة الجديدة لشعره، وهو بذلك التزم بما لا يلزم، معبرا عن تمحله وشدة ألمه من هجر المحبوبة له وقسوتها عليه، والذي يزيد من إظهار هذا الألم هو الحروف التي اختارها أرواء لقصيدته، وهي حروف وأصوات مجهورة وكأن الشاعر من خلالها يهدف إلى الجهر بصوته حتى يشد انتباه الحبيبة، معبرا عن معاناته بسبب غضبها، وساهمت قافية المتدارك، وهي وجود حركتين بين ساكنين، في إظهار هذا التوتر، كما أن استعمال القبض في ضرب الطويل، كثف من وجود الحركة أمام السكون، مما يسفر عن نوع من التوتر الإيقاعي الذي يسببه توتر في نفسية الشاعر واحتدام الصراع داخله، لأنه مكتوي بألم الهجر والعشق والهيام، وهذا ما نلمسه في قوله:

فدع عنك يا «محمود» كل مـــلامة وثق أن سر الحب ألا تجافيا

وألا تطيل الهجر من أجل هفـــوة وأن تمحو الزلات بالعفـو راضيا

(1) من ديوان عباس الجراري، ص49-50.

(2) قدامة ابن جعفر، نقد النثر أو كتاب البيان، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1980، ص58.

وهل كان يوما حبٌّ من عرفوا الهـوى على غيرِ فسْـح الصدر دوماً تغاضيا

فهذا هو الحب الصحيح كمـــا أرى وهذا الذي يسـقيك ماءَك صافيا[1]

وقد ساهمت حركة المد الموجودة في القافية هي الأخرى في إظهار انفعالات الشاعر وانشغالاته النفسية، والمد هو «نفس يمتد بعد مضي نفَسِ الحرف، ولذا فإنه يعد بمنزلة حرف متحرك»[2]؛ من هنا نستنتج أن القافية مركز قرار في البيت الشعري، فهي ليست مجرد محسنات صوتية ونغمات إيقاعية، بل تكمن قيمتها كذلك في وظيفتها الدلالية ومحاولة بلورتها، بشكل أو بآخر، للمعنى الدفين الذي يتوخى الشاعر الإفصاح عنه، ولعل هذا ما أشار إليه محمد عوني عبد الرؤوف حين قال: «نبه القدماء إلى الأثر الموسيقي الذي تحدثه القافية، وإلى ضرورة ارتباط موسيقاها هذه بدلالة القصيدة معنى ومبنى»، ويضيف رأي بشر بن المعتمر الذي ينصح الشاعر بقوله: «وإذا رأيت أن تحضِّر شِعْراً، فاحْضِرِ المعاني التي تريد نظمها على قلبك وأطلب لها وزنا يتأتى فيه إيرادها وقافيةً تتحملها، فمن المعاني ما نتمكن من نظمه في القافية ولا نتمكن منه في أخرى، أو تكون في هذه أقرب طريقا وأيسر كلفة منه في تلك»[3].

ولم يكتف الشاعر الجراري بالتعبير عن مشاعره الرقيقة وحبه العميق لحبيبته على النمط الشعري التقليدي، وإنما وجدناه أيضا ينظم على وزن التفعيلة، أو ما يسمى بالشعر الحر، وإن كان يفضل النمط الخليلي كما نفهم مما أورده الدكتور محمد احميدة في كتابه «من تاريخ الأندية الأدبية بالمغرب»[4].

ومما نظمه الشاعر الجراري على هذا النمط الشعري، قصيدته «أصحيح مات حبي» التي قالها في الشوق لحبيبته التي لم يعد يسمع عن أخبارها رغم الخطابات التي كان

(1) من ديوان عباس الجراري، ج1، ص50.

(2) ابن الجوزي، متن الجوزية في التجويد، دار الإمام مالك، الجزائر، ط1، 2003، ص28.

(3) محمد عوني عبد الرؤوف، القافية والأصوات اللغوية، مصر، ص94.

(4) من تاريخ الأندية الأدبية في المغرب: النادي الجراري بالرباط لمؤسسه العلامة عبد الله الجراري، مطبعة الأمنية-الرباط، ط1، 2004، ص187.

يبعث بها، فترجمها شعرا وهو في بلاد الغربة «باريز» وقام ببعثها يوم 7 /3/ 1962، والتي يعتبرها عبارة عن خواطر، لأنه لا يرى أنها تصل إلى مستوى الشعر العمودي الذي كان دائما يؤيده، ومما جاء فيها:

لم يكن يعرف دربي

لم يحاول طرق قلبي

لست أدري

ألصد؟

أم غرور؟

أم لبخل لم يزرني؟

****

كنت أحيا مع نفسي

ولنفسي

في خيال وبوهم

ولوحدي كنت دوما

مع آلامي وهمي[1]

فهذه الأسطر تنتمي للشعر الحر الذي يتخذ التفعيلة أساسا عروضيا للقصيدة، كما أنه لا يتقيد بعدد معين من التفعيلات، فيمكن للسطر أن يشتمل على تفعيلة واحدة أو أكثر، غير معترف بما يسمى بتساوي الأشطر ووحدة القافية، والملاحظ أن الشاعر استعمل تفعيلة الرمل «فاعلاتن»، والرمل من الأوزان الصافية التي ارتبطت بهذا النوع

(1) من ديوان عباس الجراري، ج1، ص 53-54.

من الشعر، كما أنه من الأوزان الغنائية والسريعة التي تعبر عن الحالات الشعورية المتأججة التي تتفتق، خاصة، في الجانب الغزلي الذي يعبر فيه الشاعر عن الشوق والحنين وكذلك القلق والخوف من عدم الوصول إلى المحبوب، مع ذكره لأوصاف هذا المحبوب، إضافة إلى كثرة الخبن الذي أصاب معظم تفعيلات المقاطع الشعرية، الخبن الذي يكثف مساحة الحركة على السكون، الشيء الذي يدل على شدة القلق والتوتر الذي يحسه الشاعر، وهذا ما نلمسه في بعض مقاطع القصيدة، فمن الشكوى وشدة الشوق والتعبير عن منى النفس في رؤية الحبيب في قوله:

ولكم منيت نفسي

بربيع ليس يخلق

بل لكم خادعت نفسي

أن شمسا سوف تشرق

حار فكري

ضاق صدري

كل آمالي تموت

آه ما أظمأ قلبي

لشعاع من سناء

من سنا الحب الجميل

ليت نورا من ضياه

يسلك الدرب إليه[1]

(1) من ديوان عباس الجراري، ج1، ص54.

إلى وصف جمال المحبوب لحظة استرجاعه اللقاء الذي حصل يوما يقول:

ثم كان

ذات يوم. .. ذات لحظة

عندما دق وحلاً

بعدما كان خيالا

بل محالا

زائرا يعلو محياه ضياء وجلال

يَفرِش الورد ويدعو لحياة

كلها ود وصدق وجمال[1]

أما نهايات أسطر القصيد، فقد تنوعت بين الباء والراء والتاء والنون واللام والميم والقاف، وجلها من الأصوات المجهورة، وكأن الشاعر يريد أن يجهر بشكواه ومعاناته علها تصل إلى المحبوبة، واختلطت الأصوات المشكلة للنص، والتي تراوحت بين المجهورة حينما يريد إسماع صوته للآخر، وبين المهموسة حين يريد التعبير عن حزنه وانكساره، فالأصوات المجهورة والمهموسة يوفر انتشارها في النص ألوانا من المعاني، فإذا كانت مجهورة ازداد المقام تفخيما وحركة وقوة تشد انتباه السامع، وإذا كانت مهموسة، كان الصوت خافتا والحس مرهفا، معبرة عن الحزن والشوق والمعاناة والمشاعر النبيلة الرقيقة، خاصة إذا أضيفت لها الأصوات الحلقية نحو الهاء والحاء والهمزة والعين، والتي هي من الأصوات الأكثر تعبيرا عن حالات الحزن والانكسار تلك، وهذا ما نلمسه في هذا المقطع:

مات فجأة

مات في ذاك المساء

(1) من ديوان عباس الجراري، ج1، ص55.

عندما قلتِ: وداعا

وتصنعتِ برودا. .. وشجاعة

وحفرتِ القبر للطفل بأظفارِ يديك

لم تزل تقطر من آثارِ جراح

سوف لن يمْتَصَّها حتى التراب

ثم قلتِ لم يعُد بعْدُ سوى بعض ذكرى[1]

والملاحظ أن حب الشاعر لحليلته لم يصبه الونى والفتور، رغم مرور السنون والأيام، وحصول القرب والزواج، ولكن هذه المرة بلون جديد من الشعر، هو الشعر المنثور الذي لا يخضع لوزن ولا قافية، تقول الناقدة الفرنسية سوزان برنار، قصيدة النثر «قطعة نثر موجزة بما فيه الكفاية، موحّدة، مضغوطة، كقطعة من بلّور...خلق حرّ، ليس له من ضرورة غير رغبة المؤلف في البناء خارجاً عن كلّ تحديد، وشيء مضطرب، إيحاءاته لا نهائية»[2]؛ وما قاله الشاعر الجراري على هذا النوع، قصيدةً نظمها بتاريخ 1990/04/30، بعنوان «عيدان»، والتي قالها بمناسبة عيد ميلاد حبه الكبير وعيد الفطر الذي توج الشهر المبارك وهو شهر رمضان، يقول مبتدئا قصيدته بنوع من الفرح والسرور ليغلفها بعد ذلك الحزن والقتامة والكآبة، ولعل السبب في ذلك خاص بالشاعر لم يرد الإفصاح عنه، قد يكون بُعد الأبناء في ديار الغربة لطلب العلم:

وجاء العيد. .. عيدك. .. عيد ميلاد حبنا الكبير

ومعه حل عيد آخر. .. توج الشهر الأبرك

طرق الباب هذا العيد وذاك

(1) نفسه، ج1، ص 57-56.

(2) سوزان برنار: قصيدة النثر من بودلير إلى أيامنا، ترجمة د. زهير مغامس، دار المأمون، بغداد 1993.

فلم يجب غير دمع مزمن حزين

لقد غامت السماء.. ولم تشرق الشمس

وبدا وجه الحياة شاحبا لا نضرة فيه ولا بهاء

وغدا المنظار لا يكشف غير القتامة والكآبة والظلمة[1]

فهذا الشعر حر، حتى أن المتلقي إذا سمعه دون أن ينظره، يحسبه نصا نثريا، فهو يخلط بين النثر والشعر، من حيث مجموعة من الأساليب والخصائص المرتبطة بالشعر كالتكرار الموجود مثلا في كلمة «العيد» التي تكررت في النص خمس مرات، والمشابهة في المعنى التي نلمسها بن العبارتين «غامت السماء» و«لم تشرق الشمس»، وبين «شاحبا» و«لا نضرة فيه» و«لا بهاء» والترادف بين «القتامة والكآبة والظلمة»، وبعض الصور البلاغية كالاستعارة في قوله «حل عيد آخر، توج الشهر الأبرك» وفي «دمع مزمن حزين» استعار الحزن للدمع للتعبير عن شدة هذا الحزن، وفي قوله أيضا «وجه الحياة شاحبا» للتعبير عن نفس المعنى السابق؛ ومع ذلك لا يمكن أن يرقى إلى مستوى الشعر ذي الوزن والقافية، لأن الشعر أولا وقبل كل شيء موسيقى وأنغامٌ، وهذا ما أشار إليه يوسف الديك حين قال بأن قصيدة النثر هي «محاولة لرفع النثر إلى المستوى الشعري من ناحية، أو تقليص الشعر للمستوى النثري؛ مع أن خصوصية كل منهما.. الشعر والنثر.. كافية للدلالة على إبداع الكاتب»[2].

ولم يكتف الشاعر بالتعبير عن حبه القوي والجارف لزوجته بالشعر المعرب، العمودي منه أو الحر أو المرسل، بل كان الزجل حاضرا كذلك، كيف لا وهو المدافع عن هذا اللون الشعري، والمقعِّد له، من خلال كتابه «القصيدة»، يقول معرفا إياه: «نفضل إطلاق «الزجل» على كل أنواع الشعر الشعبي المغربي، وندعو إلى هذه التسمية

(1) من ديوان عباس الجراري، ج1، ص61.

(2) «وسف الديك، مفهوم الشعر المرسل، مقال إلكتروني في مجلة أقلام الثقافية، موقع منتدى الكلام.

بدلا من أي تسمية أخرى تطلق عليه مهما بلغت من الذيوع والانتشار، ويشجعنا على ذلك أننا لازلنا في المرحلة الأولى للبحث عن التراث واستخراجه وتنظيمه ووضع معاييره وتحديد مصطلحاته ثم دراسته والتعريف به، وهي مرحلة أشبه ما تكون بمرحلة وضع الحجر الأساسي لأي بنيان»[1].

لذلك يعبر عن مشاعره لزوجته مظهرا حبه الكبير لها من خلال استعمال الزجل أو الملحون أو «لَكْلام» حسب المصطلحات المتعددة لهذا الفن، فهو يرى أن «الغزل بالمرأة من أكثر الفنون إيحاء لشعراء القصيدة الزجلية بالتعبير، فتح قلوبهم وعيونهم وأطلق مواهبهم وقرائحهم وأخصب ذهنهم وخيالهم، فنظروا إلى المرأة بحسهم مفتونين بجمالها، ورسموا لها لوحة واضحة الملامح زاهية الألوان، ونحتوا تمثالا متحرك الأطراف مكشوف الملامح، دقيق القسمات، كل ما فيه رائع فتان، يحرك القلوب ويهيج الخواطر، أوْدعُوه تصورهم للجمال كما تهواه نفوسُهم وليس كما هو في الواقع، فجاء بذلك مثالا لا يعني امرأة بعينها، وإنما نموذجا نسجوا جميعا عليه»[2]، ونسج عليه كذلك أستاذنا الدكتور عباس الجراري، فهذا النوع يكون أبلغ قولا وأكثر تأثيرا من الشعر المعرب، يقول مظهرا أهمية زوجته في حياته، وقوة حبه وعشقه لها، متغنيا بجمالها، حامدا الله على كرمه الذي جعله يعرف السعادة والعيش الهني بقربها:

انتِ حُبي وحْياتي وثْرِيَّةْ داري
وضِيْ عِيني وكْال زِين لَبْها الوَاري
واللّي فْنِيتْ فيها عمْري ابْعَشْقِي واشْعاري
لُوصافَكْ راني مَمْلُوكْ اوْگادْيا اجْماري

(1) د.عباس الجراري، الزجل في المغرب: القصيدة، مطبعة الأمنية، الرباط، ص54.

(2) نفس المرجع، ج1، ص198.

واحْمَدت ربّي افْكُل حينْ فذْكارِي

باللّي اكْرَمْني ابْدُرَّةْ لَبْكارْ دارَةْ لَقْمارِ

لِكْ نَتمَنَّى اسْعيدْ ابْعَزْفْ اوْتارِي

اوْ ما غنّتْ علّْ لَدْواحْ سايَرْ لَطيارِ

نَدْعِي لِكْ بالصحَّا وازْوَال لَكدارِ

ويْدُومْ حُبْنَا زَاهي يانعْ لَزهارِ»[1].

من خلال هذه المقطوعة الزجلية، يبدو الحب الجارف والقوي الذي يملأ قلب الشاعر اتجاه زوجته وحبيبته التي أفنى عمره في عشقها، زاد من إظهار هذا الحب والعشق الروي الذي اتخذه، وهو حرف الراء الذي يعتبر من الأصوات المجهورة القوية والمتكررة والذي بتضافره مع مجموعة من الأصوات المجهورة المسيطرة على القصيدة، خلق نوعا من الانفعال والحركية والتوهج، الذي يعبر عن مشاعره اتجاه المحبوبة ذات الجمال الفاتن الأخاذ.

إن الدكتور عباس الجراري يعبر في هذا الديوان المعنون بـ»أشواق» عن تجربة وجدانية عميقة وصادقة، أفردها لامرأة وحيدة شغلت لبه وتفكيره وألهمته أولى قصائده، فكان ذلك العاشق الولهان، هذا العشق الذي منحه القوة والثقة ليكون عميد الأدب المغربي صاحب المؤلفات المختلفة والمحملة بالمعارف والفوائد.

2. شعر حب الأبناء والشوق إليهم:

وهذا الشعر خصه بديوان عنونه «مع حبي ورضاي»، وهو مكمل للديوان الأول ولا يمكن أن ينفصل عنه، فبعد الزوجة لا يوجد حب قوي سوى للأهل، وخاصة للأبناء الذين يرى فيهم الوالد نفسه، ولا يرضى أن يصيبهم سوء أو مكروه، ولا يقبل أن يبتعدوا

(1) من ديوان عباس الجراري، ج 1، ص 108.

عنه تحت أي ظرف من الظروف، ويبدو أن القصائد الواردة في «من ديوان عباس الجراري» هي فقط جزء مما قاله الشاعر في فلذات كبده»[1] على حد ما قاله الدكتور محمد احميدة في تقديمه للديوان.

وكان سفر الأبناء إلى الخارج لاستكمال الدراسة، والحنين والشوق إليهم، هو الذي حرك مشاعر الدكتور عباس الجراري، فعبر عنها في قصائد مليئة بالحب الممزوج بالألم، وهو ألم الفراق والبعد، وإن كان بعدٌ بهدف التزود بالمعرفة والارتقاء في سلم المعالي، وللتغلب على هذا الألم «توسل الأب بالكلمة الشعرية لنسج روابط التواصل مع أبنائه، فكان يغتنم بعض المناسبات ليخط مشاعره قريضا، ويعبر المسافات عبر بحور الشعر»[2]، فكانت أعياد الميلاد في بلاد الغربة، وأخبار النجاح السعيدة فرصا سانحة تستنطق شاعرية الجراري، فيعبر عن حبه الكبير لأبنائه، وتوقه الأكبر لرؤيتهم، ومن ذلك ما قاله في ابنته علا متشوقا لها وإن كان مقامها لا يعدو مدينة الدار البيضاء، حيث كانت تتابع دراستها في المعهد العالي للتجارة وإدارة المقاولات (ISCAE)، هذه المدينة القريبة من الرباط حيث بيت العائلة، ومع ذلك نلمس لوعة الفراق التي ينقص من حدتها انكباب الابنة على طلب العلم والمعرفة، فنجده يقول واصفا حسنها وجمالها الذي فاق جمال الأنجم في السماء، بل من هذا الحسن يفرّق الحسن على الورى، متذكرا إياها وهي قريبة منه تلعب حينا وتدرس حينا آخر، يقول:

عُلاي من الدنيا وما طلعت بـــــه ... وما زان كل العالمين هي الأبهى

ومن كل شمس قد تبدى جمالـــــها ... ومن كل نجم في الـسماء هي الأعلى

ومن كل ما رأت العيون وما انـجلى ... ومـا هو خافـــ قـد يراد هي الأغلى

(1) من ديوان عباس الجراري، ج1، ص19.

(2) نفسه، ص20.

فمن حسنها قد فرق الحسن في الـورى وفي موكب الإشراق دوما هي الأسـنى

أنست بها في القرب ترتع تـــــــارة وأخـرى على كتب المعارف لا تسـلى

لذلك جعله الشوق حزينا، هذا الحزن الذي سيتبدد بالنجاح القريب وتحقيق المراد من خلال الحصول على النتائج المرضية والهدف الأسمى، يقول:

فكيف أُرى أسلو عُلايَ وقد نـــأت وفي «الإسكاو» أضحى لها هدف أسمى

يطاوعهـــا قلبـــي ويكتـــم حبـــه عســـى عودة بالنجح توتـي الذي أحلى

فتعلو على العليا وكـــلِّ عِلِيَّـــــةٍ وأعلـو بها زهوا على الـذروة العليا[1]

ومما زاد في شحنة صدق المشاعر التي حملتها هذه المقصورة، ذلك الايقاع الذي وفره الشاعر للنص من خلال ركوب البحر الطويل الذي يتميز بجديته وقوته، ويتميز أيضا بنفسه الطويل وكثرة تفاعيله التي تستطيع أن تستوعب التجربة الشعرية بعمقها عند الشاعر المحب لابنته المتشوق لرؤيتها، دون إغفال ذلك الامتداد الذي يضيفه ألف الروي الراسم لبُعد النأي، وحرارة مشاعر الأبوة في نفس الآن، يعضدها تكرار اسم «عُلا» ومشتقاته، بل -ومن خلال هذا التكرار- يبدو وكأن الشاعر يريد أن يبين بأن لا أحد يستطيع الوصول أو التشبه بابنته، وهذا شأن جل الآباء الذين ينظرون إلى أبنائهم على أنهم هم الأفضل بين العالمين، وهذه من الأحاسيس العميقة التي لا يمكن أن يتسرب الشك إلى صدقها.

بنفس الشوق والحنين يتوجه الدكتور عباس الجراري إلى ابنته «ألوف»، مرة بالشعر وأخرى نثرا كما في كلمته «عيد ألوف» التي جعلها عبارة عن مقاطع قصيرة يمكن أن نعتبرها مجموعة من الخواطر التي قالها بمناسبة يوم عيد ميلادها، هذا اليوم الذي يراه سعيدا شقيا، بسبب وجودها في بلاد الغربة، ذاكرا الألم الذي يكابده، برفقة والدتها حبيبته ورفيقة دربه، نتيجة البعاد، يقول:

(1) من ديوان عباس الجراري، ج، 1، ص117.

ولكن. .. لكأني في قبضة من لَفَّني بجبروت في رداء ديجور حالك كثيف، ثم ألقى بي في دوار عنيف، ذي سطوة لا تهدأ قليلا إلا لتزيد قوة، تضاعفها شدة الغثيان وبرودة العرق المتصبب.

هل هو حلم أم حقيقة ؟

مهما أكن في حلم، فإن صوتَها العذبُ عبر الهاتف في هذا اليوم - السعيد الشقي- يعيدني إلى الحقيقة لألوك - ورفيقتي في مسيرة الحب والحياة - مرارة الفراق، وحر الشوق إلى التلاق[1].

ومرة أخرى بالشعر العمودي الخاضع للوزن الخليلي والقافية الموحدة كما في قصيدته المعنونة بـــ»إلى ابنتي الحبيبة «ألوف» في ذكرى ميلادها ببلاد الغربة»، فالمناسبة دائما هو عيد الميلاد، والحزن حاضر كذلك بين ثنايا أبياتها بسبب الغياب الذي دام خمسة أعوام، لا يستطيع فيها الشاعر الأب إظهار السلوان والفرح، يقول: (من الخفيف)

هل سلـوٌّ وفي جفوني سهـــــــد ولهيـــب الغيـــاب في القلب وقْـــدُ

خمسة قد مضت وفي كل عـــــــام من بِعـــاد الحبيـــب هـــول أشـــد

ذكـــريـــات تحـــل فينـا وتُـــمـــسي ومُـــضِـــيُّ الزمـــان ليـــس يُـــردُّ[2]

فهو حزين لهذا البعد، هذا الحزن الذي يتكرر كلَّ ما غادر أحد أبنائه لطلب العلم والمعرفة، فيقول مجيبا من يهون عليه ألم بعد وفراق ابنته «ريم»: (من الكامل)

قـالـوا الفـراق شفـاؤه يتـأكـــد والصبُّ يَنسى والجِراحُ تُضَمَّـد

فأجبتـهم هـذي مقالة مـن ســلا مــن لـم يجـرب حالَهُ تتجـدَّدُ

سـلنـــي أنبئـك الحـقيقـــة واثقـا أن الهوى في القلب دوما سـيد

(1) من ديوان عباس الجراري، ج، 1، ص118-119.

(2) من ديوان عباس الجراري، ج، 1، ص122.

يا ريم حبك في الحشا لا ينطفي والشـوق بـاد فـي الجـوى يتوقـد
إنـي وأمـك لسنـا نسلـو لحظـة كيـف السلوُّ وصبرنـا قـد ينفَـد
طـال البعـاد وللصبابـة صـولـة مهمـا نأيـت فإنهـا تتمـدد
عامان في بوسطون كيف نطيق مـا في النفس يُبْقي ذا المقامُ الأبعد[1]

وهذا ما يعبر عنه أيضا في ذكرى مولد ولده «محمد» ببلاد الغربة، إلا أن نبرة الحزن تكاد تختفي خلافا لما رأيناه في الأشعار الموجهة للبنات، ولعل السبب يعود في ذلك إلى تعَوُّدِ الدكتور عباس الجراري على فراق أبنائه المهتمين بطلب العلم أولا، وثانيا أن النظرة إلى الابن والخوف عليه تكون أقل حدة من النظرة للفتاة التي دائما يُغدق عليها من الحب والحنان أكثر مما يخص به الولد في العائلات العربية على العموم والمغربية بوجه خاص، ومع ذلك فالحب للأبناء يبقى واحدا سواء أكانوا ذكورا أم إناثا، والحزن على فراقهم يبقى موجودا، وهذا ما نلمسه في البيت التالي من قصيدة عنوانها إلى ولدي الحبيب «محمد» في ذكرى ميلاده بديار الغربة» يقول: (من الكامل)

ها حل عيدك - فلذتي- أنا لنـا في العيد أن نحظى وأنـت الأبعد[2]

ففي الأبيات السابقة حزن واضح، سواء من خلال العبارات المستعملة من مثل «لهيب الغياب»، «من بعاد الحبيب هول أشد»، «الشوق باد» و»الجوى يتوقد»، «لسنا نسلو لحظة»، «صبرنا قد ينفد»، أو من خلال الحروف والأصوات التي عبر بها عن هذا الحال، حيث سيطرة الأصوات المجهورة الشديدة نحو «اللام والدال والميم والباء والقاف والنون والراء والتاء»، هذه الأصوات التي تعبر عن التوتر والقلق على فلذات الكبد في بلاد الغربة، أو من حيث استعمال حرف الروي «الدال»، في القصائد الثلاث، وهو

(1) من ديوان عباس الجراري، ج، 1، ص130.
(2) نفسه، ص 120.

من الأصوات القوية المجهورة التي ساهمت في إبراز الانفعال الذي يحسه الشاعر، وكأنه يريد من خلال ذلك أن يشرك معه المتلقي، حتى يحس بألمه، إضافة إلى زحاف الخبن (وهو حذف الثاني الساكن) الذي أصاب الوزن الخفيف في قصيدة «إلى ابنتي الحبيبة ألوف في ذكرى ميلادها ببلاد الغربة»، هذا الحذف الذي يكثف من استعمال الحركة على حساب السكون في تفعيلات القصيدة، وبالتالي يعبر عن الحركية والانفعال الذي لا يجد الشاعر أمامه إلا الذكريات التي تخفف من وطأة حزنه، ذكريات يشبهها بالشمس، وابنته بالشعاع الذي يضيء حياته التي كانت «ألوف» زهرَها وعطرَها الذي فاق عطر الند والورد، يقول:

إن ذكـــراك يا ألـــوف أضـــاءت ... مثـل شمس الضحى إذا هي تبدو

بل هي الشـمس أنت فيها شعاع ... دائـم والسـنـون تمشـي وتغـدو

زهـــرة أنـت للحيـاة وعطـر ... دونـــه الطيبـات نـــدٌّ وورد[1]

ويقول متذكرا ميلاد ابنه «محمد»: (من الكامل)

في سـادس التشرين الأول جئتنا ... والبشر حولك والزمـان الأرغـد

بـدرا منيـرا فـي سمانـا ونجمهـا ... إلف العلا وهمـا الفخـار الأمجد

ونَمَـوْتَ كالزهـر المعطـر فوحـــه ... حتـى بدت ريم فكان السـؤدد[2]

لكن العزاء الذي يقدمه الشاعر الأب لنفسه هو رحلة الأبناء في طلب العلم وتوقهم لنيل المعالي، فيقول موجها الكلام لـ»ألوف»:

مطلب العـلم أنت فيـه مثال ... وكـذا الحزم والتقى ثم جـد

(1) من ديوان عباس الجراري، ج، 1، ص122.

(2) نفسه، ص120.

إن تكن غربة التعلم طالت ... مرها في القريب حلو وشهد
إذ غدا قربنا سيدنو بفوز ... وغداً إن يشاء ربيَ سعد
فلتوفي - كما وعدت منانا ... إن وعد الحبيب صدق وعهد[1]

ويقول متحدثا إلى «ريم»:

لولا اليقين بما عزمت لنيله ... بالدرس ما كنا هوالك نؤيد
وعلى الدوام أكفُّنا مرفوعةٌ ... لك بالهداية والعلي يسدد
إنا لنامُل عودةً ميمونةً ... بشرى النجاحِ بها تَسُرُّ وتُسعِد[2]

بينما يقول مخاطبا «محمدا»:

أملي وأمّك أن تكون بصحة ... وموفقا في الدرس، وهو الأفيد
وتعود للوطن الحبيب مكللا ... بالغُنم يحفظُكَ الإله الأوحد
ويعود للشمل المفرَّق جمعُه ... وتتمَّ فرحتُنا، فذاك الموعد
وينال كلٌّ منكمُ ما يبتغي ... وتحققون العز وهو مُخَلَّدُ[3]

ففي هذه الأبيات دعوة من قبل الوالد بالنجاح والتوفيق لكل أبنائه في دراستهم ومبتغياتهم، هذه الدعوة التي ستجاب من رب العالمين، فيعود الأبناء إلى الوطن ومعهم شهادات نجاحهم التي تغربوا من أجلها، فيتبدد خوف الشاعر ويحل معه الفرح والسرور، وهذا ما نلمسه في قصيدته الموجهة إلى «ألوف» والمعنونة بـ»ألوفي قد بلغت ذرى

(1) من ديوان عباس الجراري، ج، 1، ص122- 123.
(2) نفسه، ص130.
(3) نفسه، 120-121.

المعالي» التي يبدو من عنوانها استبشار الشاعر وفرحتُه الكبيرةُ التي لا تضاهيها أي فرحة، إنها فرحة النجاح التي استعمل لها الوزن الوافر، وهو من الأوزان الفخمة التي تصلح للمواضيع الجدية الرصينة، وليس هناك ما هو جدي أكثر من تحقيق النتائج العالية والوصول من خلال ذلك إلى المراتب السنية، والملاحظ أن زحاف العصب الموجود في تضاعيف تفعيلات هذا الوزن، ساهم في تكثيف مساحة السكون على حساب مساحة الحركات، مما يعبر عن نوع من الهدوء والاطمئنان الذي يسيطر على التجربة الشعرية عند الجراري، لأنه بعد آلام الفراق التي دامت بعض السنين، وبعد الحزن الذي كابده برفقة زوجته نتيجة فراغ البيت من أبنائه، يحس بالراحة والهدوء والاطمئنان، يقول معبرا عن هذه الفرحة الكبيرة:

«ألوفي» قد بلغت ذرى المعـــالي ونلتـ سـنا المفاخر والغوالي

ونجما صرت في أفـــقي مضيـئا بطلعتـــه منيـــرا كالهـــلال

من الدرر الحسان صنعت عقـــدا يـزيـن الجيـدَ فتـان الجمـال

كنوز المجد حـــــزت وزدت فضـلا عـلى الأبكـار ربـاتـ الحجـال

بعلـــم فـي عـلا قمـم تسـامـى «حسـابا» جـاء كالسـحر الحلال

سعيـت إليـه جـــدا في اغتـراب ولـم تصرفـكـ أهـوال الليالـي[1]

وفي نفس الموضوع يهنئ دائما ابنته ألوف بالنجاح، ولكن على شعر التفعيلة أو الشعر الحر المنفلت من قيود الوزن التقليدية والقافية الوحيدة، معبرا عن نشوته بالنجاح الذي حققته في مسيرتها العلمية وتوجته بشهادة «الدكتوراه» في الرياضيات، ومعبرا أيضا عن فرحته بلقائها القريب بعد غيبة طويلة، يقول من قصيدة بعنوان **«تهنئة وشوق»:**

وغدا

يحلو لقاها

(1) من ديوان عباس الجراري، ج، 1، ص124.

إذ تعود،

وبتاج العلم

يزداد بهاها،

وتضيء الشمس

أنوارا زهية.

ذاك حقا هو عيدي،

هو عيدك

عيد أختيك

أخيك وأمك،

عيد من دوما أحبَّك

فمتى ؟

ردي أَلوفي ؟

عجلي، أبردي

ناري الذكية.

فمتى العود ؟

عودك الميمونُ أحمد؛

إنه خير هدية،

وهو بشرانا الهنية[1].

(1) من ديوان عباس الجراري، ص129-128.

سيطرت «ألوف» على أكثر قصائد «من ديوان مع حبي ورضاي»، ولعل السبب في ذلك يعود إلى كونها أكبر أبناء الدكتور عباس الجراري، وأولهم مغادرة لأرض الوطن لطلب العلم، لذلك كان حبها قويا جارفا، والشوق للقاها كبيرا، هذا الشوق الذي سيتحول إلى حفيدته «نور» ابنة «ألوف» التي وهبها كل حبه وحنانه، فهو متشوق دائما لرؤيتها، يقول في عيد ميلادها الأول على روي الراء المجهور والمكرر ووزن الكامل الكثير التفعيلات التي تستطيع استيعاب معاني الحب والشوق للحفيدة ووصف جمالها وابتسامتها البريئة وخطواتها الأولى في الحياة:

العيـــد أقبـل بالبشيـــر يَنُـور
والسعـد بـاد تزدهي بـه «نـور»
تزهـــو بعام قد مضى فرحا به
تخطـــو الهوينـــا تارة وتـدور
كـــان النـداء لنا يثيـر تبسـمـا
مـن ثغـرها حلوا عليه ســرور
أين النداء الآن عبر هـواتفـــ؟
هل ضمة تشـفي الغليل يثور؟
لكـن بوعـد إن يشـا ربي غـدا
سـنـزورها نطفـي اللهيب يفـور
فالشـوق فاق حدوده مهما بدا
أنَّا على حِـــبِّ الزمـان نجـور[1]

(1) من ديوان عباس الجراري، ج، 1، ص131-132.

إن الشعر الذي قاله الدكتور عباس الجراري في الغزل أو في حب الأبناء والشوق إليهم ينبع من عاطفة صادقة مفعمة بالود والحب العميقين، لذلك لم يعمد إلى تنميق ذلك الشعر وتحبيره، لأن الهدف كان هو التعبير الصادق الحر عن عواطفه، فهو الحبيب والزوج والأب والجد الذي يعرف كيف يحافظ على عائلته ويؤلف بين أعضائها، لأن الحب الذي يمنحه لكل فرد منها لا يزيدهم إلا ائتلافا واجتماعا، هذا الحب والشوق الذي عبر عنه من خلال أساليب شعرية متنوعة، هي أساليب زاوجت بين الشعر العمودي الذي تعود جذوره إلى العصر الجاهلي، والشعر المرسل والحر والمنثور الذي هو من الأساليب الشعرية التي ظهرت كثورة ضد النمط التقليدي المعروف، ومع أن الدكتور عباس الجراري من مؤيدي الشعر العمودي، إلا أنه جرب كل أنواع الشعر، إضافة إلى شعر الزجل الذي افتتن به ورأى أنه أكثر تعبيرا عن خلجات الشاعر خاصة في موضوع الحب والغزل.

3. وفاء وولاء:

وهو قريب من شعر المدح، هذا الغرض الذي لم يخل منه أي عصر من العصور، ولعل المديح السلطاني من بين الموضوعات التي اهتم بها الشعراء بسبب الولاء للسلطة الحاكمة، والدكتور عباس الجراري نال من العناية المولوية والتقدير السلطاني لعلمه وأدبه حتى أنه اقتُرح لمناصب سامية في حياة المغفور له الملك الحسن الثاني، لكنه لم يكن يقبل. يقول نثرا: «.. على إثر ما تتفضلون به علي من عطف دائم، أرجو أن تقبلوا هذه النفثة الشعرية الصادقة، شكرا لجلالتكم على ما تتكرمون به علي من تقدير؛ ومعتذرا عن عدم قبول المناصب السامية التي عرضتموها علي منذ سنة 1975 إلى الآن (وهي سنة 1994)؛ وعارضا نفسي لخدمتكم فيما يلائمني صحيا وفكريا، وما أراه أكثر جدوى لشخصكم الكريم وللعرش العلوي والدولة المغربية»[1].

ففي هذه العبارات نلاحظ تقدير الجراري وولاءَه للأسرة العلوية والدولة المغربية، وصدقَ حبه لعاهلها وللوطن، لأن حب الوطن من الإيمان، حب فطري، حب إيجابي

(1) من ديوان عباس الجراري، ج1، ص135.

صادق، إنه شعور لا يعادله شعور، وتفانٍ كبير في خدمته والدفاع عن قضاياه، ولا يوجد وطن دون وجود مسير له وحاكم يسهر على مصالحه؛ والدولة المغربة لها عاهل يسعى دائما إلى الأفضل من أجل الأمة، لذلك نجده يبحث عمن يضع فيه ثقته ليساهم في صنع القرارات التي من شأنها النهوض بالمجتمع والسير به نحو التقدم والازدهار، والدكتور عباس الجراري واحد من هؤلاء الوطنيين الأحرار الذي سار على درب والده المرحوم عبد الله الجراري مؤسس النادي الجراري، التأسيس الذي تزامن وصدور الظهير البربري سنة 1930، وذلك لتدارس القضايا الوطنية المختلفة إبان الاستعمار، والدعوة للانخراط في حركة الجهاد، من هنا كان الحب المتبادل بين الشاعر والقصر، الشيء الذي جعله يحوك مجموعة من القصائد المرتبطة بمناسبات مختلفة، ناطقة عما في داخله اتجاه عاهل المملكة، مادحا إياه بالجود والكرم والعدل وحسن الاهتمام به وبمؤلفاته، ومعتذرا عن تقصيره وعجزه عن إظهار الشكر، ومُرحِّبا بالخدمة تحت الرعاية السامية لجلالة الملك، فيقول: (من الطويل)

جـرؤت فخبـرت الكتـاب إليكـم ... يقينـا بـأنـي في ضمان حماكـم
فأنتـم لإكـرام يعـز نظيـره ... وأنتم لإنصاف الذي قـد دعاكـم
فجـودكـم هـو الوجود لأسـرة ... على سنن الأجداد ترعى وفاكم
حبوتـم أفكـاري وكتبي بعطفكـم ... تفيضون لي نعماكـم وعـطاكـم
وأجنيتمونـي من عظيـم نوالكـم ... وآويتمونـي فـي ظـلال لواكـم
وهل يقدر التعبير كشف مشاعر ... لنفـس مـوات أُحْيِيَـت بنَـداكُـم
.. وما أنا إلا من رعـايا جنابكـم ... لخدمتـكم أرنـو وأرجـو رضاكـم[1]

وفي مجال إظهار الولاء دائما، القصيدة التي قالها الدكتور عباس الجراري بعد الثناء والتنويه الذي لقيه من قبل المغفور له الحسن الثاني إثر العرض الذي قدمه ضمن سلسلة الدروس الحسنية في 11 رمضان من سنة 1419 الموافق 30 دجنبر 1998، في موضوع

(1) من ديوان عباس الجراري، ج، 1، ص136.

«ثقافة الحوار كما أسسها القرآن الكريم»، وهي قصيدة خاصة بمدح الملك ومدح خصاله وذكر اقتدائه بسنة الرسول الكريم في خدمة الدين الإسلامي، ورعايته للشعر والشعراء، بل هو الشاعر الذي له المبدَعات في هذا المجال، ولا شك أن الجراري سبق وأن اطلع عليها، مظهرا إخلاصه وصدق ولائه للأسرة الحاكمة يقول: (من البسيط)

يا سيدي وهُتاف الحب ناداني ... وقادني حاملا شعري وألحاني
علِّي إذا ما لثمت الكفَّ منتشيا ... أهديت للحسن الثاني رياحيني
فالشعر أنت له راع وتقرضه ... ومبدَعاتك فيه در تيجان

....

في مجلس الدرس بالرحمان صينته ... وبالهدى شدتم صرحا وقرآن
وسنة المصطفى عالي جدودكم ... به اقتديتم على نهج وإحسان
نفسي فداؤك يا مولاي يا ملكي ... يا من نداه مدى الأيام أحياني

....

يكفيني أني بالإخلاص أخدمكم ... مشرَّفا بانتماء العز أغناني
على عهود الوفا ثم الولاء لكم ... والصدق ديدن من يهوى بوجدان[1]

فالأكيد أن العلاقة بين الملك وعميد الأدب المغربي كانت مبنية على الصدق والحب، والذي يزيد من إظهار هذا الحب هي المواساة في أيام الشدة، ولعل المرض أكثر الأمور التي يحتاج فيها المرء إلى من يظهر له حبه ويرعاه، إذ أجريت لأستاذنا عملية جراحية برعاية سامية من جلالة الملك محمد السادس نصره الله بتاريخ 28 غشت 1999، أرفقها بهدية وبطاقة تهنئة بالشفاء؛ فكان لهذه الالتفاتة المولوية أثر كبير على نفسية الشاعر الذي بادر إلى القول بعد خروجه من المصحة معتزا بتشريف الملك الذي أدخل الفرح والسرور على قلبه: (من الكامل)

(1) من ديوان عباس الجراري، ج، 1، ص137-138.

وافت هدية سيدي تزجي الشفـــــاءْ تلقي «رداء» السـعد بشرا والهناءْ

«عوداً» تضوع عطرُه أرجـــــا وفاحْ و»بطاقـةً» ضمـت حروفا من ضياء

قد صاغها قلم المليـــــــك مـــشرفا لخديمه الساعي إلى كسـب الرضاء

زفت إلى العبد المطيـــــع تهانيـــا بـالـبرء مـن ضر وفيضا من دعاء

ما كـــــــان إلا بالإجابـــــة رده والله خير المستعانِ على الجزاء[1]

وغالبا ما كان ينهي الشاعر قصائده السلطانية بالدعاء للملك وللأسرة الشريفة، ومن ذلك:

فالله يكـلأكـم والنصـر رايتكـــم والمجـد رائـدكم دومـا لأوطـان

والله يرعى ولي العهـــــد في شَمَـــمٍ وصِنـوَه بهمـا إقـرار أعيـان[2]

وقوله مبديا الولاء دائما: (من الكامل)

وإني على المعهود طـــــوعُ يميـــنه لسـاني له بـالسر يدعـو وبـالجهر

ليبقيَـه المولَـى القديرُ مؤيَّـــــــدا فداءٌ لـه نفسـي ببـذل وبالبِشْـر[3]

ويقول أيضا في تهنئة بشهر الصيام لجلالة الملك داعيا له بالعز والنصر والسؤدد، ولابنيه بالحفظ من كل سوء وبالرشد: (من الكامل)

شهر أتى أعقاب مـــولد سيـــدي فالتهنئـات لكـم تثنـى تفْـــرد

مـاذا أقـــول مهنئـــــا أو شاكـرا غـير الدعـاء لـكم بمـا قـد يحمـد

عز ونصـر والوفـاء لعـرشكـــــم وولاء شـعـــب للحبيـب يغـــرد

...

(1) من ديوان عباس الجراري، ج، 1، ص 139.

(2) نفسه، ص138.

(3) نفسه، ص141.

فلأنتم ملك القلوب بعطفكم وبما الإله يعينكم ويعضد

ولْيحفظ الحسنَ الرضي وأختـه يحدوهما نهج الإله ويرشد[1]

فعلاقة الدكتور عباس الجراري بالسلطان كانت مبنية على الحب المتبادل، والإخلاص والوفاء والولاء، لذلك كان صادقا في تعابيره التي اختار لها الأوزان الطويلة التي تصلح في مواضيع المديح السلطاني الذي يُظهر فيه الشاعر كل الإخلاص لعاهل البلاد ولأسرته الشريفة، ومن هذه الأوزان الطويل والبسيط والكامل، تلك الأوزان التي تصلح للمواضيع الفخمة كالمدح والتهنئة، وتستوعب الكثير من المعاني والأفكار، وفي المقابل ابتعد عن استعمال الأساليب الشعرية الحديثة، نحو شعر التفعيلة والشعر المرسل والشعر المنثور، التي كان قد استعملها في الغزل وفي القصائد التي وجهها لأبنائه، لأن تعبيره في تلك القصائد كان طبيعيا صادرا عن القلب وعن عاطفة صادقة يبث من خلالها أحاسيسه دون تزويق أو تنميق، حتى لَتقترب من الخواطر أكثر من الشعر، أما في المقام الثاني، فالأمر يتعلق بالسلطان، لذلك كان لابد في الأوزان من اختيار ما يناسب الموضوع المطروق، واختيار أيضا ما يناسب من العبارات بل والكلمات، وكذلك القوافي، حيث استعمل المجهورة منها والشديدة التي تعبر عن الفخر والحماس الذي يحسه وهو يقدم أشعاره لعاهل المملكة، ومن هذه القوافي نجد الدال والراء والنون والميم والهمزة، وكأنه بذلك يريد أن يجهر بالحب الكبير للأسرة العلوية وبالوفاء والولاء اتجاه عاهلها، معترفا بالجميل وبما يغدق عليه الملك من عطف وتكريم وتقدير.

4. شعر الرثاء:

الرثاء من أهم أغراض الشعر العربي قديما وحديثا، ولا يخلو أي ديوان شعري منها، لأن الموت لصيق بالإنسان الذي لابد وأنه فقد عزيزا عليه، سواء كانت أما أو أبا أو قريبا من الأهل والأحباب أو صديقا، فيذرف الدموع والعبرات، ويوظف الكلمات والعبارات لإظهار حزنه، ومن ذلك ما قاله الدكتور عباس الجراري في تأبين الفقيه محمد بن عبد الله

(1) من ديوان عباس الجراري، ج، 1، ص 142-143.

الروداني كوثر أحد أعلام سوس[1]، مظهرا حزنه وألمه بسب هذا الفقد الجلل، مستعملا نفس الوزن والقافية التي كان قد استعملها المتوفّي نفسُه في قصيدة قالها في تأبين والده المرحوم العلامة عبد الله الجراري قائلا:

هـو الحـكم حكم الله ليس يغقُب وما لأمرئ عمـا قـضى الله مهرب

بينما يقول الجراري وكأنه يتمم القصيدة السابقة الذكر:

وهـل يصـبر المكلـوم يفقـد خلـه يغالـب أرزاء القضاء فتغلِـب ؟
غدوتَ بمنأى بعدما كنت جانبي وكنـت بصفو الود للبعد تقـرب

....

إذا مـا الفـاجعـات جليـن يـومـا فما صابني شمسي لغيبك تغـرب
سأحتسـب الصبـر الجميـل تيقنا رجـوعي إلى من لا يغيـب ويذهـب
على أن نأي الموت حثمـا إلى لقـا وإن اللقـا في الكوثر العذب نشرب[2]

فهذه القصيدة كلها حزن وألم لا يجد أمامه الشاعر إلا الصبر الجميل، لأن اليقين في اللقاء في الجنان هو ما يمني به النفس، فيحد من ألمها، وعلى نفس المنوال نجد قصيدته في رثاء أستاذنا المرحوم الدكتور علال الغازي الذي وافته المنية في ديار الغربة يوم الثلاثاء 26 دجنبر 2007 إثر حادثة سير في عمان، هذا الفقد الذي كان فاجعة كبرى لذويه وأصدقائه من أساتذة جامعة محمد الخامس بالرباط، وطلبته ممن درسهم أو أشرف على بحوثهم وأطاريحهم، لذلك نعاه الدكتور عباس الجراري بقصيدة كلها زفرات من الألم والأنين، حزنا على موت الصديق والأخ صاحب الفضائل الكثيرة، فهو الوفي، الخدوم، المخلص، الخلوق، الصادع بالحق، العالم، الناصح، لذلك كانت فاجعة موته رزءا كبيرا مني به الشاعر، فلم

(1) للتوسع، يمكن العودة إلى كتاب "مع المعاصرين أسماء وآثار في الذاكرة والقلب "،ج.1، ص.247-255، وكذلك "من ديوان عباس الجراري"، ص 150-151.

(2) نفسه، ص 152.

يجد أمامه إلا أن يرجعه للقضاء والقدر، لأن الموت شيء حتمي أخذ الكثير من الأحبة والخلان، ومهما عمَّر الإنسان في هذه الدنيا فمصيره إلى التراب ومفارقةِ الأهل والأصحاب والأحباب، وهذا ما عبر عنه الشاعر العباسي أبو العتاهية في قوله:

وما الدَّهرُ إلا جامعٌ ومفرِّقٌ وما الناسُ إلا راحلٌ ومودَّعُ

فإنْ نحنُ عِشنا يجمع اللهُ شملنا وإن نحن مِتنا فالقيامةُ تجمعُ

فكأس الفراق مر، وجرحها عميق، لأنه لا أمل للقاء بمن تحت الثرى مرة أخرى في هذه الدنيا، لذلك تكون الدمعة الحارقة، والنار الملتهبة في الحشى، أو الصبر والسلوان هو العزاء، لكن الشعراء تتحول دموعهم وعبراتهم وصبرهم إلى مراثي، حروفها الأحزان وقافيتها اللوعة والأسى، يقول الشاعر عباس الجراري من قصيدته «نفثة مكلوم» التي يبتدئها بمجموعة من الحكم المستقاة من الحياة ومن ديننا الحنيف: (من الكامل)

اللهَ قلْ، إما تصاب وتوجع
فإليه ما عشنا نعود ونرجع
حم القضاء فلا سبيل لرده
فالكل يلقى في ثراه ويودع
هي سنة في الخلق يحكمها الذي
يعطي الحياة لمن يشاء ويمنع
الموت كم أفنى لنا من جِلَّة
وأحبة نأسى لهم ونروع
راح الحبيب أخي الذي عاشرته
عمرا جميلا في صفاء نرتع

غاب الصديق ومن سعدت بقربه

وبه قويت إذا الخطوب تصدّع[1]

إن نبرة الشاعر في هذه الأبيات حزينة تعبر عن الألم الذي يحسه من فقدان رفيقه وصديقه، نامس منها رقة وعذوبة وصدقا في العاطفة وفي الشعور، ويزيد من إظهار هذا الحزن روي العين الذي هو من الحروف الحلقية مثل الهمزة والهاء والغين والحاء والعين التي تستعمل كثيرا في التعبير عن الآهات والآلام، كما في قوله في هذا المقطع:

أين الوفاء ؟ وهل وفاء بعده ؟

أم أين عهد الصدق لا يتزعزع ؟

أين المكارم ؟ كلها ضاعت فلا

من يبتغي عزا بها أو يطمع

قد كان يحمل للعلوم لواءها

بجهاده في الدرس والبحث «يبدع»

والنقد إن تسأل فداك مجاله

وإذا جحدت فللبيان «المنزع»[2]

وبنفس الحرقة والأسى بكى الشاعر الجراري الفقيه المرحوم محمد حكم أحد أعضاء النادي الجراري، يقول: (من الطويل)

تنوح رباط الفتح تبكي وتندب ويُرزأ أهلونا جميعا وننحَب

ففي كل يوم نكبة إثر فاجع نوائب تثرى موجعات وتسْلُب

(1) من ديوان عباس الجراري، ج، 1، ص166-167.

(2) نفسه، ص168.

مصائب تنتاب الكرام، وتنتـــــــقي أعـزاء قومي، بالأماجـد تذهب

مآس تحث العين دوما على البـــكا وتطفو بما في النفس طورا وترسـب[1]

وقد تخلل هذه القصيدة مجموعة من الأوصاف الحميدة والحسنة التي اتصف بها الفقيد، فهو الأديب العالم ذو المناقب الجليلة والصفات الحسنة يقول:

وكـــان بحـــق للمعالـي منـــارةً وموردٍ عذبٍ للظمي يتصبـــب

أديـب إن تسـأل كلانا مسـاجـــل بشـعر له أنغـــام سحـر تشـبـب

فقيه جليـل لا يبـارى وقد غـــدا بشرح عويصٍ للحواشي يقرب

ومن للقضا بالشرع والعـــدل قائـــم يـوثق أحكامـا له أو يعقـــب[2]

وغالبا ما كان يختم قصائد الرثاء هذه بالدعاء للمرثي وأهله، والتذكير بأن مآل الجميع إلى الممات، يقول في رثاء المرحوم علال الغازي:

ولتهن في نعم الجنـــــان وبهجـة واعـلم بـأنا في القريـب سـنجمع

وليبق أهلُـــــك والأولادُ ينفعهـــم رضاكَ عنهـم فلا ضَـيْم ولا جـزع[3]

ويقول في ختام رثاء المرحوم محمد حكم:

فذاك المصير الحتم ليســـــت تـرده علاجات طـب أو كتـاب يحجِّب

وما مات من أبقى وأنجب صفـــوة بُرورٌ وعلم، والكواكب تنسـب

سلام من المولى وسَقيـــــاً لقبـــره بِفـوْحِ الشَّـذا، نَدٌّ وعِطرٌ مطيب[4]

(1) من ديوان عباس الجراري، ج، 1، ص163.

(2) نقسه، ص164.

(3) نقسه، ص169.

(4) نفسه، ص165.

تلك أهم الأغراض التي تناولها الدكتور عباس الجراري في الجزء الأول من ديوانه، وإن وجدت أغراض أخرى ضمها الجزء الثاني، وهي مجموعة من المساجلات التي كانت تجمعه مع مجموعة من الشعراء المغاربة وغير المغاربة ممن يترددون على النادي الجراري، وكانت حول قضايا مختلفة، منها في التهنئة وفي العتاب وفي المدح وفي الثناء والإطراء بسبب قصيدة شعر أو تأليف كتاب أو غيرها من الموضوعات، تلك الأغراض التي نظمها على الشعر العمودي ذي الشطرين والقافية الموحدة.

وعموما فالتجربة الشعرية عند عميد الأدب المغربي تجربة غنية بالأغراض والموضوعات المتنوعة، استهلك خلالها جل القوالب والأساليب الشعرية المعروفة في الشعر العربي من شعر عمودي إلى شعر حر إلى مرسل إلى منثور إلى زجلي شعبي، كما اختار من الأوزان ما يلائم الموضوعات التي كان يعبر من خلالها عن تجاربه وأحاسيسه وعواطفه، فاستعمل في جل قصائده الأوزان الطويلة والرصينة والجدية التي تستطيع أن تستوعب التجارب الشعورية التي كان يعبر عنها بعمقها، من مثل الطويل والبسيط والكامل والوافر، كما انتقى من الألفاظ والتعابير اللغوية ما يخدم أغراضه ويظهر صدق عاطفته بعيدا عن الغموض والتعقيد، جانحا نحو البساطة والوضوح، خصوصا وأنه يؤمن بأن «اللغة وسيلة وليست غايةً، ولا يمكن أن تكون إلا كذلك، إذ هي مجردُ رموز ومصطلحات يتوسل الإنسان بها في التعبير عن أحاسيسه ومدركاته في الحياة» ويضيف قائلا: «ولعلي هنا أقتبس من رأي الشاعر الكبير أمين نخلة قولة يُعتبر فيها من السباقين إلى الدعوة للوضوح، وإن بدا في شعره مولعا باختيار كلماته وتنقيح أسلوبه؛ هذه القولة هي أن «أدنى الفنِّ ما كانت فيه الجملة تفتش عن معناها، ومتى هزلت المعاني توكأت على غموض الألفاظ»[1]؛ فالبساطة والوضوح ديدن الشاعر عباس الجراري، سواء في شعره أو في كتاباته الأدبية والفكرية المختلفة، دام في صحة وعافية وأفادنا من علمه وأدبه.

***

(1) مع المعاصرين: أسماء وآثار في الذاكرة والقلب،ج1، ص15.

قضية الشعر لدى الأستاذ عباس الجراري
من التصور إلى الإنجاز

ذ. محمد اليملاحي (*)

صدرت للأستاذ عباس الجراري مجموعتان شعريتان بعنوان: «من ديوان عباس الجراري» بإعداد وتقديم الأستاذ محمد احميدة. ويطرح صدور المجموعتين في هذه المرحلة بالذات مجموعة من الأسئلة؛ مثل توقيت نشر المجموعتين، علاقة الأستاذ الجراري بالشعر، علاقة هذا الشعر بما كتبه الجراري - الباحث في نقد الشعر المغربي قديمه وحديثه.

وقد تولى الأستاذ احميدة الإجابة عن بعض الأسئلة في مقدميته للمجموعتين؛ فبين الصلة المبكرة للأستاذ الجراري بقرض الشعر، والمواضيع التي حظيت باهتمامه، غير أن أغلب الأسئلة ظل معلقا بدون جواب، ما يجعل القارئ المهتم يضع بعض الفرضيات التي قد تفتح بعض المسالك لفهم التجربة الشعرية لدى هذا الباحث:

- الفرضية الأولى تتعلق بزمن النشر؛ إذ إن تحلل الأستاذ الجراري من بعض المسؤوليات الرسمية كان من وراء «إطلاق سراح» هذه النصوص ونشرها لتصبح في متناول عامة القراء بعد أن كانت محصورة في نطاق ضيق؛

- الفرضية الثانية تتعلق بالمتن المنشور؛ إذ لا يشكل سوى جزء مما كتبه الشاعر من نصوص، كما يفهم ذلك من عنوان المجموعتين: «من ديوان عباس الجراري»؛ إذ يفيد

(*) أستاذ باحث، المدرسة العليا للأساتذة، جامعة محمد الخامس، الرباط.

حرف الجر هنا، كما هو معلوم، معنى التبعيض الذي يتضح من خلال العنوان الذي يلي التقديم مباشرة: «مقتطفات من دواوين: أشواق، مع حبي ورضاي، إخوانيات»، ولا يدري القارئ من قام بعملية الاقتطاف، هل هو الأستاذ احميدة ؟ أو الأستاذ الجراري أو هما معا ؟ كما لا يدري نسبة المقتطفات إلى الدواوين المذكورة ولا المعايير المعتمدة في اقتطاف نصوص دون غيرها.

- أما الفرضية الثالثة والأخيرة فتتعلق بتعدد مداخل قراءة شعر الأستاذ الجراري تبعا لمقاصد القراء واختلاف زوايا نظرهم إلى الموضوع.

تصور الشعر

وقد ارتأيت النظر إلى شعر الجراري من زاوية تصوره النظري للشعر لأجل معرفة مدى انعكاس ذلك التصور على تجربته الشعرية، ويقتضي الكشف عن ذلك التصور التأليف بين عناصره التي تتوزع على مجموعة من المؤلفات التي خصصها الأستاذ الجراري لدراسة الشعر. صحيح أنها دراسات تطبيقية لكنها لا تخلو، مع ذلك، من بعض الإشارات النظرية العامة التي تتخلل تلك الدراسات.

وقد اخترت لهذا الغرض المؤلفات التالية:

- القصيدة؛

- الأدب المغربي، من خلال ظواهره وقضاياه (الجزء الأول)؛

- فنية التعبير عند ابن زيدون؛

- تطور الشعر العربي الحديث والمعاصر بالمغرب (1830 – 1990)

وبعد التأليف بين بعض العناصر المكونة للتصور المذكور، استخلصت المحاور التالية:

- حقيقة الشعر؛

- وسائله؛

- وظيفته.

أ. حقيقة الشعر

ينطلق الأستاذ الجراري في تصوره للشعر من نزعة رومانسية إذ يرى أن «الشعر باعتباره إبداعا ينطلق من التجربة لا يكون إلا صادرا من الوجدان ومفضيا إليه، سواء أكانت موضوعاته عامة أم خاصة، طالما أنها ترتبط بذات الشاعر وتنصهر في بوتقة انفعال نفسه»[1].

وغني عن البيان أن الوجدان هنا كل ما يجده الشاعر في نفسه من أحاسيس جراء انفعاله ببعض المواضيع والمواقف كيفما كانت طبيعتها. ولهذا فإن «مدى انفعاله وتجاوبه يؤثران إلى حد كبير في تشكل الموضوع في ذهن الشاعر، وكذا في الصيغة التي يخرجه عليها أي في التعبير»[2].

وقد انتبه العقاد إلى هذا مؤكدا أن «المحك الذي لا يخطئ في نقد الشعر هو إرجاعه إلى مصدره: فإن كان لا يرجع إلى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء، وإن كنت تلمح وراء الحواس شعورا حيا ووجدانا تعود إليه المحسوسات كما تعود الأغذية إلى الدم ونفحات الزهر إلى عنصر العطر، فذلك شعر الطبع القوي والحقيقة الجوهرية»[3]، ولهذا يرى الجراري أن النظر إلى التصوير الشعري يقتضي رصد جانبين «الصورة المحسوسة من جهة والبعد الشخصي الوجداني من جهة ثانية، لأنه لا يطلب من

(1) تطور الشعر العربي الحديث والمعاصر في المغرب (1830 - 1990)، ص: 97، منشورات النادي الجراري، الرباط 1997

(2) نفسه، ص: 616

(3) الديوان، عباس محمود العقاد وعبد القادر المازني، ص 21، ط3، دار الشعب، القاهرة، د.ت

الشاعر أن يصور الأشياء كما هي وبنقل حرفي، بل أن يصورها كما بدت له ومن خلال ذاته ونفسه، وحسب انفعاله»[1].

ويتطابق هذا الرأي مع ما سبق للعقاد أن سجله في كتاب «الديوان» حيث اعتبر أن التشبيه - وهو ضرب من التصوير- هو «أن تطبع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع في ذات نفسك، وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان، فإن الناس جميعا يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها، وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس. وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه»[2].

ب. وسائله

يتوسل الشاعر في بناء شعره بمجموعة من الوسائل الفنية المختلفة كالوزن والقافية والتصوير، غير أن اللغة بكافة أنظمتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية تظل أهم الوسائل لدى الشاعر؛ إذ بفضلها يتمكن من بناء عالمه الشعري وأسلوبه في الكتابة الذي يجعله متميزا عن غيره من الشعراء، لكن هذا لا يعني أن إبداع الشاعر «ينسج وحده متفرد معزول لا يستفيد من أي مثال، فإن أحدا لا يستطيع أن يزعم ذلك، وإلا لكان كل مبدع مبتكرا، وهذا ما يستحيل تحقيقه، ولو كان فأين هي مبتكرات الشعراء الكبار الذين نسلكهم في عداد عمالقة الشعر[3].

ويستفاد من هذا أن الأستاذ الجراري يعتبر التجربة الشعرية حصيلة تراكمات شعرية سابقة سواء داخل الثقافة العربية أو خارجها، لأن الشاعر يظل على صلة بموروثه الشعري والثقافي عامة؛ إذ لا وجود لشعر يقوم على الفراغ؛ لأن اللغة التي يوظفها الشاعر

(1) فنية التعبير في شعر ابن زيدون، ص: 59، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء 1977

(2) الديوان، ص: 21، تراجع أيضا ص: 20

(3) الجراري، فنية التعبير في شعر ابن زيدون، ص: 76، وتراجع أيضا ص: 75

قديما كان أو معاصرا ينطوي معجمها وبلاغتها وتركيبها على تجارب سابقة ساهم في بنائها الشعراء القدماء، ومن ثم فإنه من المستحيل أن يتخلص الشاعر من موروثه الشعري مهما ادعى الخروج عنه ونقده وتقويضه، لأن الماضي «في اللغة العربية ما زال يحمل مدلوله لا لأنه باق كلغة فقط، وباق في الحسبان، وفي الرموز والقيم، ولكن لأنه ما زال يفعل في الحاضر من خلال ذلك أيضا، فقد يستحضر سجله، ويوظف فيحور ويصبح صالحا حسب المناسبة وحسب الحاجة»[1].

ج. وظيفته

يقوم الشعر، تبعا للجراري، بوظيفتين تتعلق الأولى بالمبدع والثانية بالمتلقي، كما يتضح ذلك من خلال قوله: «أعني بالتعبير التنفيس عن عاطفة أو تجربة حياتية، وبالفنية صياغة هذا التعبير في شكل مثير للآخرين أي للمتلقين، ودافع لهم إلى تقبله والتجاوب معه، والمشاركة فيه وتناقله وتخليده»[2].

يمكن اعتبار الوظيفة الأولى «علاجية» لأنها تخفف عن الشاعر بعض الأعباء النفسية جراء ضغوط العيش وتكاليفه. أما الوظيفة الثانية حجاجية يتوسل فيها الشاعر بمجموعة من الوسائل اللغوية للتأثير في المتلقي أو جعله يتعاطف معه ليتخفف بدوره، بفضل الشعر والأدب عامة، من أعباء العيش.

وقد انتبه طه حسين للدور «العلاجي» للكتابة والقراءة معا في مقدمته لكتاب الأيام، حيث قال: «وللناس مذاهبهم المختلفة في التخفف من الهموم والتخلص من الأحزان، فمنهم من يتسلى عنها بالقراءة، ومنهم من يتسلى عنها بالرياضة، ومنهم من يتسلى بالاستماع للموسيقى والغناء... ولست أدري لماذا رجعت ذات يوم إلى ذكريات الصبا،

(1) محسن جاسم الموسوي، مسارات القصيدة العربية المعاصرة، ص: 31، ترجمه عن الإنجليزية أحمد بوحسن، مراجعة باهرة شكري حجاب، توبقال، البيضاء 2017

(2) فنية التعبير في شعر ابن زيدون، مرجع سابق، ص: 8

أتحدث بها إلى نفسي لأانسى بهذا الحديث أثقال الشباب، ثم لم أكتف بالتحدث إلى نفسي... وإنما تحدثت إليها حديثا مسموعا، فأمليت هذا الكلام على صاحبي في رحلة من رحلات الصيف ثم ألقيته جانبا أو كدت أنساه، وأنا أتمنى أن يجد فيه الأصدقاء المكفوفون في قراءة هذا الحديث تسلية لهم عن أثقال الحياة كما وجدت في إملائه وأن يجدوا فيه بعض ذلك تشجيعا لهم على أن يستقبلوا الحياة مبتسمين لها كما تبتسم لهم ولغيرهم»[1].

وقد أوردت هذا النص، على طوله، لصلته المباشرة بالموضوع. ولعل أهم ما يفيد قارئ شعر الجراري ليس فنية تعبيره ولا صدقه فحسب، لأنه يتقاسم ذلك مع شعراء آخرين قديما وحديثا، وربما فاقه كثير من الشعراء في هذا المجال، ولكن الميزة التي يكاد ينفرد بها شعر الرجل هي قيمة الحب التي تعد النواة الصلبة التي تصدر عنها كافة القصائد، وتتجلى، كما سنرى ذلك لاحقا، في حب الزوجة، حب الأولاد، حب الأصدقاء، حب الوطن بكافة رموزه الإنسانية والطبيعية. وتنبثق من هذه القيمة قيمة أخرى هي الإخلاص الذي يؤكد صدق القيمة الأولى؛ لأنه لا قيمة للحب ما لم يخلص الإنسان لمن يحب، ولهذا يعد شعر الجراري دعوة غير مباشرة للحب، وتكتسب هذه القيمة أهميتها في هذا الزمن الذي تسود فيه الكراهية والنفاق والخداع.

من تصور الشعر إلى إنجازه

بالرغم من أن الأستاذ الجراري ينظم الشعر منذ سنة 1960 إلى غاية اليوم، فإن إقباله على الكتابة في هذا الفن يندرج، في نظري، في إطار «الهواية» التي يتمكن، من خلالها، من تحقيق هدفين:

- الأول هو خدمة اللغة العربية، سيما وأن العربية لغة وجدانية بالأساس، ولعل هذا ما جعل العقاد يعتبرها لغة شاعرة؛

(1) الأيام، صص: 7 – 10، ط 2، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة 1991.
وقد أشار "تودروف" إلى الدور العلاجي للأدب في كتابه: "الأدب في خطر" صص: 43 – 48، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، توبقال، البيضاء 2007

- الثاني أن الأستاذ الجراري يتخذ من الشعر وسيلة للتعبير عن عواطفه وهواجسه ورغباته بحرية تامة لا تسمح بها الكتابة الأكاديمية التي تلزم الباحث بالخضوع لمجموعة من الأعراف والتقاليد العلمية.

وهكذا يتعامل الجراري مع الشعر من زاويتين: زاوية الدارس المختص الذي يغلب طابع الوصف والتفسير، وزاوية الهاوي الذي يغلب عليه طابع الإنشاء لأجل التعبير عن الذات في مقامات مختلفة، ولعل هذا ما يفسر أمرين:

- الأول ارتباط شعر الجراري ببعض المناسبات الخاصة؛

- الثاني قصر بعض النصوص ما يشير إلى أنها تعكس لحظات عابرة في حياة الشاعر فبادر إلى التعبير عنها شعرا.

وكيفما كان الحال، فإن المتأمل في شعر الجراري يلاحظ أنه يصدر عن تصوره النظري المذكور، ولذلك يهيمن عليه الطابع الوجداني الذي تعكسه عناوين الدواوين الأصلية التي اقتطفت منها نصوص المجموعتين الشعريتين (أشواق، مع حبي ورضاي، إخوانيات)؛ إذ تشترك كلها في «موضوعة» الحب لكنها تتلون بحسب كل موضوع؛ فتأخذ غرض الغزل الذي خص به الشاعر زوجته حميدة دون غيرها، وغرض الفخر والمدح اللذين خص بهما أولاده وأحفاده وغرض المدح الذي خص به الملكين المرحوم الحسن الثاني ومحمد السادس وكذا بعض الإخوانيات والمطارحات التي نظمها في مناسبات معينة.

غرض الغزل

يتوزع هذا الغرض إلى مجموعة من «الموضوعات» التي تعد بمثابة مقومات لشعر الغزل، وهي: الحب، المحبوبة، المحب[1]، وسأنظر إليها من زاويتي المعنى والمبنى.

(1) أفدت في هذا التقسيم مما أورده الأستاذ الجراري في الفصل الأول من الباب الثاني من كتابه "القصيدة" مع تعديل في الترتيب

أولا: من حيث المعنى

أ. الحب

يقوم تصور الحب في غزل الجراري على ثنائية النور والظلمة ومشتقاتهما ومرادفاتهما. وتحظى هذه الثنائية بأهمية خاصة في الثقافة العربية؛ إذ كثيرا ما توظف لتقريب بعض المفاهيم المجردة كالإيمان والكفر وغيرهما.

- الحب نور: تهيمن استعارة النور على تصور الحب في الديوان؛ فهو ضياء منير مشع (ص: 43)، وجذوة تضيئ قلب الشاعر (ص: 44) وهو جلاء وسناء (ص: 47) ونور السعد الذي يحدو حياته (ص: 49) وصبح يبدد الدياجي (ص: 49) وهو شمس أشرقت على الشاعر (ص: 54) وهو كذلك شعاع وسناء (ص: 54)، بل هو مصدر النور (ص: 54)

- الهجر ظلمة: يستحيل النور إلى ظلمة أثناء هجر الحبيبة أو ابتعادها؛ فترخي الظلمة سدولها على قلب الشاعر فيعم السواد كل شيء فيحيا في جحيم وحر ولهيب (ص: 44) يذيب فؤاده (ص: 44) ويغدو العيش بعد الهجر داجنا (ص: 51) ويصبح منظار الشاعر لا يكشف غير القتامة والظلمة (ص: 61)...

ب. المحبوبة

تنصرف المحبوبة في شعر الجراري إلى أنثى بعينها هي زوجته حميدة، وقد كان متيما بحبها منذ سنوات الدراسة كما يفهم ذلك من بعض النصوص الشعرية، ولهذا فإن شعره يحيل عليها دون غيرها من النساء، ولعل هذا ما يفسر إلحاحها على نشر شعره ليكون الناس شهداء على ذلك الحب المعمر الذي تحول لديهما معا إلى طاقة متجددة تمنحهما الحياة وتبعد عنهما تكاليف العيش، سيما وأن أغلب القصائد هدايا عود الشاعر محبوبته عليها كما جاء في الأبيات التالية:

قالت هديتك التي قدمتها ليست بشافية عندي لما أجد
سارت تعاتبني أن جئت مهديها بلا قريض كما تهوى وتنتقد
فالنظم للحب قد يطفي مواجده صدقا تقول، فهو الذخر والمدد
أما سواه وإن يكثر له عدد فهو الفناء وحتما سوف يفتقد[1]

ويعد ارتباط غزل الجراري بحميدة تقليدا عربيا قديما سار عليه مجموعة من الشعراء العرب القدماء فارتبطت أسماؤهم بأسماء محبوباتهم مثل كثير عزة ومجنون ليلى، كما ارتبط شعر العباس بن الأحنف بمحبوبته «فوز» وشعر أبي الربيع سليمان الموحدي بمحبوبته «ألوف»[2] ولهذا من الجائز إضافة اسم حميدة إلى عباس ليصبح عباس حميدة إسوة بالتقليد العربي القديم.

وبالرغم من كل ذلك، فإن صورة المحبوبة في غزل الجراري لا تختلف كثيرا عن نظيراتها في الشعر العربي القديم؛ فهي شكاكة لوامة قاسية متبرمة هاجرة مالكة ظالمة معاتبة، وهي في نفس الآن بدر عال ونجم ساطع وطائر ميمون، لكنها تمتاز، مع ذلك، عن الصورة النمطية للمحبوبة في الشعر العربي بكون الشيخوخة لا تنال منها شيئا، بل تزيدها بهاء وجمالا، ما جعل غزل الجراري يختلف عن غزل الشعراء القدماء والمحدثين؛ إذ من النادر أن يتغزل شاعر بامرأة تجاوزت الستين، كما في قصيدة أهداها إلى حميدة في عيدها الخامس والستين، ومما جاء فيها:

في كل عيد ترتدين بهاء ويزيد حسنك نضرة وسناء
لا تفعل الأيام فيك سوى الذي يبدي جمالك رونقا وضياء[3]

(1) من ديوان عباس الجراري، الجزء الأول، ص، 101.

(2) يراجع كتاب: أبو العباس سليمان الموحدي لعباس الجراري، ص: 188، دار الثقافة، البيضاء 1984، وقد أعجب المؤلف بهذا الاسم فاختاره لإحدى بناته.

(3) من ديوان عباس الجراري، ج، 1، ص، 94.

وقال في بيتين أهداهما لها في ذكرى ميلادها الثانية والسبعين:

أرى حسنها الباهي يزيد تألقا وحبي بها دوما يزيد تعلقا

حميدة مهما العمر مر فإنها هي الشمس في أنق تضيئ تَأَنُّقَا[1]

ج. المحب

لا تختلف صورة المحب في شعر الجراري عن نظائرها في الشعر العربي وخاصة القديم؛ إذ هناك تطابق شبه كامل بينها، ولعل أهم موضوعة تصور صورة المحب في غزل الجراري وفي الشعر العربي عامة هي موضوعة «المعاناة» بشقيها النفسي والجسدي، ولهذا يهيمن معجم الحب والألم على غزل الجراري.

ويمكن الاستدلال على صحة ذلك من خلال قراءة شعر الغزل العربي، وخاصة الغذري منه. وقد طالعت بالصدفة ديوان العباس بن الأحنف فوجدت تشابها كبيرا بين الشاعرين على مستوى معنى ومبنى شعريهما؛ إذ يتوسلان معا بلغة واضحة للتعبير عن كثير من المعاني المشتركة بينهما، هذا بالإضافة إلى أن كلا منهما خص غزله بامرأة واحدة كما سبقت الإشارة إلى ذلك، كما يشتركان في صدق عواطفهما، وتشاء الصدف أن يشتركا في الاسم أيضا: العباس - عباس !

وقد اخترت عينة صغيرة جدا من المعاني المشتركة بينهما؛ لأن الموازنة بين معاني الشاعرين تتطلب بحثا خاصا.

(1) من ديوان عباس الجراري، ج، 1، ص، 109، وقد طلبت من بعض المترشحين للالتحاق بالمدرسة العليا للأساتذة بالرباط تحليل أبيات النصين وتحديد غرضهما الشعري فأجمعوا على إدراجهما ضمن غرضي المدح أو الفخر، ولما بينت أن الأمر يتعلق بغرض الغزل استغربوا لذلك، لأن الجمال يرتبط، تبعا لما درسوه، بالشباب !

نماذج من شعر العباس بن الأحنف[1]

كساني الهوى أثوابـــــه إذ علقتـــها فرحت إلى العشاق في خلعة الحب[2]

لقد راضني حبيك حتى أذلنـــــي وقد كنت قبل الحب ذا منعة صعبا[3]

وما غاب عني وجههـــا مذ رأيتهـــا ولا مال بي عنها إلى غيرها قلبي[4]

ما أنكأ البيـــــن لقـــرح القلـوبْ شـيَّب رأسي قبـل حين المشـيب[5]

أنحل جســـــمـي وبرى أعظمـــي لـذع حرارات فـراق الحبيب

وصالكـم صـــرم وحبـــكم قـــلى وعطفكـم صد وسـلمكم حرب[6]

وزعمت أني لا أحبـــــك صادقـــا والـله يعلـــم ما تجن ثيابي[7]

إن لم يكن حُبيـــك حُباً صـادقـــا فرأيتـني أعمـــى عـلى الأبواب

نماذج من شعر عباس الجراري[8]

أنت الحميـــــــدة بـلا إبـــــلاس دوام وصلك غـدا لباسـي[9]

---

(1) ديوان العباس بن الأحنف، شرح وتحقيق: عاتكة الخزرجي، مطبعة فضالة – المحمدية 1977

(2) نفسه، ص: 26

(3) نفسه، ص: 32

(4) نفسه، ص: 32

(5) نفسه، ص: 18

(6) نفسه، ص: 19

(7) نفسه، ص: 34

(8) من ديوان عباس الجراري، ج 1، إعداد وتقديم محمد احميدة، منشورات النادي الجراري، الرباط 2017

(9) ديوان عباس الجراري ج، 1، ص: 98 قريب من هذا المعنى قول امرئ القيس في المعلقة:

وإن تك قد ساءتك مني خليقة فسلي ثيابي من ثيابك تنسـل

كما عبر القرآن عن هذا المعنى ببلاغة عالية في قوله تعالى: «هن لباس لكم وأنتم لباس لهن» البقرة 187

وأنا العبيد كما عهدتنـــــي مسلـــما أمـري إليـك محبة ووفـــاء [1]

وهل أطيق فراقـــا وهـــي تملكـني وفـي الحشـا من لظى حبي لها نـار [2]

إنـــي خصصتها بالهـــوى ومحضتـــه صرفا لهـا وحديـث الحـب أخبـار

ولتأمـرن بما تشاء أمـــــا كفـــى جســـم عليـل هَـدَّه الإضـــرار [3]

ومـشيبـة في مفرقـــي تـــــدلي بمـا فـرض الزمـان وسـاقت الأكدار

سـواء بقرب يـا حميـــدة أكتـــوي أو التـاع إذ أني لحـينِ بعيـد [4]

ففي القرب لا أشفي من الحب لوعـتي وفـي البعد إشعال اللهيـب مديد

قالـت وفي نظراتها شـــــك وريبة والعين تذرف والدموع سـكيبة [5]

هل ما يزال لديك ما عهدي بـــــه مـن حبنا صفوا؟ ألازلـت الحبيبة؟

كفي الملام وكفكفي غالـــي الدمـــو ع فأنـت وحـدك لي القرينة والقريبة

ويتضح من خلال المقارنة بين العينتين أن المعنى «الخام» واحد في كل منهما، لكن الاختلاف يكمن في صياغته وإدخال أسلوب الصنعة عليه.

قد يتبادر إلى ذهن القارئ أن الأمر يتعلق بتأثر الجراري بشعر ابن الأحنف، كما قد يدرج هذا ضمن ما يسمى بالتناص، ولكنه يعود في نظري إلى انتماء الشاعرين والشعراء العرب قديمهم وحديثهم إلى ما سماه الأستاذ طه عبد الرحمان بالمجال التداولي إذ «لكل أمة مجالها التداولي الخاص بها؛ ونقصد به جملة من المبادئ اللغوي والعقدية والمعرفية التي

(1)من ديوان عباس الجراري، ج، 1، ص: 94

(2) نفسه، ص: 59

(3) نفسه، ص: 60

(4) نفسه، ص: 79.

(5) نفسه، ص: 75.

يتبعها كافة أفرادها، سواء أوعوا بذلك أم لم يعوا، مستثمرين لها في إنشاء أقوالهم وإتيان أفعالهم»[1].

ويهمني في هذا التعريف عبارة إنشاء الأقوال؛ إذ تشير صيغة الجمع إلى كافة الأقوال المنتمية إلى ثقافة معينة بغض النظر عن جنسها: فلسفية، شعرية، نقدية... لأنها تغرف، بنسب متفاوتة، من معين تداولي واحد.

ومن المرجح أن هذا المجال التداولي يطبع ثقافة الأمم وآدابها بطابعه الخاص فتتميز عن بعضها البعض، لكن تشترك، مع ذلك، في بعض المبادئ العامة لأنها في النهاية ثقافة إنسانية واحدة.

لهذا السبب تشترك معاني شعر الغزل عند الجراري مع غيره من شعراء الغزل العرب؛ لأن تصورهم للحب والمحبوبة والمحب واحد، وتضطلع الاستعارة والبلاغة عامة بدور حاسم في ربط الصلة بين الشعراء واستمرارها عبر العصور، ولهذا لم تمت استعارة النار للحب، بل ظلت مشتعلة في قلوب العشاق منذ القديم إلى اليوم. والطريف حقا أن المتلقي يتعاطف مع أولئك العشاق ويأسى لحالهم مع أنه يعلم حق العلم أن لا أثر للنار هنا.

وعلى ضوء هذا قرأ الجراري غزل شعراء الملحون، فلاحظ أنهم «وصفوا حالهم محبين ضعفاء، يعانون من عشق هذا الجمال أنواعا من الجوى والشجن والشوق، وألوانا من اللوم والهجر والنفور، ويسعون إلى الوصال بالرجاء والاستعطاف تارة، وبالعتاب والوعظ أخرى»[2]، وكأني بالجراري هنا يسقط حالته على أولئك الشعراء؛ لأن تحرير أطروحته بالقاهرة كان متزامنا مع تواريخ كتابة القصائد الخمس الأولى التي تمثل مرحلة القاهرة، وهي مرحلة كانت تتميز، بالنسبة للشاعر، بالقلق واليأس كما تفصح عن ذلك القصائد المذكورة.

(1) فقه الفلسفة، ج 2، ص: 98، المركز الثقافي العربي، بيروت – البيضاء 1999.

(2) القصيدة، ص: 198، مطبعة الأمنية، الرباط، د.ت

وأفترض أن مرحلة القاهرة تضم عددا آخر من القصائد، لكنها لم تثبت بالديوان لسبب ما؛ ذلك أن آخر قصائد المرحلة كتبت بتاريخ 7/3/ 1962 في حين أن القصيدة التي تليها مباشرة كتبت بالرباط بتاريخ 25/12/ 1984 ولا يمكن للجراري - الشاعر أن يظل صامتا طيلة اثنتين وعشرين سنة !

كما لاحظ الجراري أيضا أن الشعر كان بالنسبة لشعراء الملحون «فرصتهم للتعبير عما يعتمل في نفوسهم من أدواء ليس مصدرها الحب، وإنما مصدرها ظروف خارجية لا نعرف عنها شيئا»[1]. وإذا كان الجراري الباحث قد أرجع أدواء شعراء الملحون إلى ظروف خارجية لا يعرف عنها شيئا، فمن المرجح أن أدواءه هو تعود خلال المرحلة المذكورة إلى مرض القلب[2] والأحساس الحاد بالغربة كما عبر عن ذلك في قوله:

فليس دوائـي فـي حبوب وحقنة ولكـن دوائي رحمـة ومشـاعر

فهـلا رحمت القلب مـن دائه الذي إذا غاب عن جسمي ففي الذهن حاضر[3]

لكن ما يثير الانتباه حقا هو جنوح الجراري - الباحث إلى الإنشاء في معرض تفسيره لتوسل شعراء الملحون بالشعر للتعبير عن أحوالهم، مع أن المقام يستدعي لغة واصفة بعيدة عن الانفعال، غير أنه «في العملية الاستدلالية تتدخل عوامل خاصة من قبيل المكونات الشخصية للمستدل؛ ولا يمكن تصور وجود استدلال مستقيل عن كل شحنة انفعالية؛ بل إن الانفعال يرافق الاستدلال بدرجة ما ويؤثر فيه... ولهذا فإن العبارات التي تحيل على الوقائع وتلك التي تترجم أحوال المستدل الذاتية تتداخل وتتفاعل بدرجة ما. وربما يمكن أن يساهم الحجاج الذي يطغى عليه الجانب الشخصي في إبراز قوة الاستدلال الذي يتحدث عن الوقائع بأسلوب عقلي نسبيا»[4]

(1) القصيدة، ص: 199

(2) ينظر الهامش 3 من ص: 43 من الجزء الأول

(3) الديوان، ج، 1، ص: 52

(4) بناصر البعزاتي، الاستدلال: مستويات في القوة والوثاقة، ص: 26، بحث ورد ضمن ندوة: آليات الاستدلال في العلم، تنسيق عبد السلام بن ميس، منشورات كلية الآداب بالرباط 2000

ثانيا: من حيث المبنى

يحيل المبنى هنا على مستويين؛ الأول يخص المفردات (المعجم) والثاني يخص التراكيب. ويلاحظ بالنسبة للمستوى الأول هيمنة الألفاظ الدالة على الأحوال النفسية للشاعر من فرح وحزن وسرور، وتعبر هذه الألفاظ عن المعاناة النفسية للشاعر كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

أما مستوى التراكيب فيمكن النظر إليه من زاويتي الخبر والإنشاء:

أ. الخبر

يهيمن أسلوب التوكيد على غزل الجراري، ويوظف لهذا الغرض أدوات التوكيد وخاصة «إن» ونون التوكيد الثقيلة وكذا التوكيد اللفظي، إلى جانب التراكيب التي تؤدي معنى التوكيد كالقصر والقسم.

وتفسر هيمنة هذا الأسلوب بكون محبوبة الشاعر لا تثق بصدق عواطفه، ولذلك يحشد كافة الوسائل اللغوية، وهو بها عليم خبير، لاجتثاث الشك من ذهنها. ولا حاجة لتقديم شواهد على ذلك فهي واضحة في متناول القارئ.

ب. الإنشاء

ويظهر على الخصوص في الاستفهام والأمر والنهي والنداء. وغالبا ما يخرج الاستفهام عن غرضه الأساسي إلى الاستنكار كما في قصيدة «أهذا هو الحب»[1]، كما أن الأمر يخرج بدوره عن غرضه الأساسي إلى الاستعطاف والرجاء، كما يوظف النهي لإبعاد الظنون عن المحبوبة. أما النداء فيستأنس به الشاعر، بل ويتلذذ بنطق اسم المحبوبة، وعادة ما يوظف الشاعر النداء دون أداة لإحساسه بالقرب من حبيبته ولو كانت بعيدة، وعادة ما يناديها بالاسم (حميدة) أو بالكتابة عنها بكلمة حب، حبي.

(1) من ديوان عباس الجراري، ج، 1، ص: 43 - 44.

من حب الزوجة إلى حب الأبناء والوطن والأصدقاء

أ. حب الأبناء

حظي الأبناء بحب الشاعر فخصهم بمجموعة من القصائد للافتخار بهم وخاصة خلال دراستهم خارج الوطن تشجيعا لهم، فيما يبدو، ولبذل الجهد في التحصيل العلمي.

ويعتبر حب الأولاد امتدادا لحب والدتهم «حميدة» ولهذا أشار لهم في بعض قصائده الغزلية؛ إذ ختم قصيدة «انتظار عفو» ببيتين أشار فيهما إلى بنيه قائلا:[1]

والعبء عبء الدهر هم كله ... إلا البنين فهم له استبشار
فلتنعمن بحبنا وبأسرة ... بسماتها فلذاتنا الأزهار

كما ختم مقطوعة «في ذكرى القران» ببيت في نفس المعنى:

وليحفظ الدرر الأغلى ويبقيهم ... نجوم عز بفضل منه يوليه[2]

ولعل هذا ما يفسر حضور بعض المعاني الغزلية في الشعر الذي خصصه لأولاده؛ فإذا كان الشاعر يتغنى بجمال «حميدة» فهو يطرب أيضا لجمال أولاده كما في قوله في ابنته «علا»:

علاي من الدنيا وما طلعت به ... وما زان كل العالمين هي الأبهى
ومن كل شمس قد تبدى جمالها ... ومن كل نجم في السماء هي الأعلى
ومن كل ما رأت العيون وما انجلى ... وما هو خاف قد يراد هي الأغلى
فمن حسنها قد فرق الحسن في الورى ... وفي موكب الإشراق دوما هي الأسنى[3]

وخشية التباس الأمر على القارئ وضع تحت اسم «علا» في العنوان كلمة ابنتي.

(1) من ديوان عباس الجراري، ج، 1، ص: 60.

(2) ص: 95

(3) ص: 117

كما انتقلت معاناة الشاعر جراء البعد عن حميدة إلى بعده عن الأولاد فتصبح معاناته مزدوجة، لكن المعاني تظل واحدة هنا وهناك، كما في قوله مخاطبا ابنه «محمد»:

هـا حل عيدك - فلـذتي - أنى لنا في العيد أن نحظى وأنت الأبعد[1]

ب. حب الوطن

يتجلى حب الوطن في المجموعة الأولى في مظهرين أولهما الحنين إلى الوطن وزوجته حميدة خلال غياب الشاعر عن المغرب في بعض المهام الدبلوماسية، وثانيهما الإعراب عن الحب الكبير للملكين المرحوم الحسن الثاني الذي خصه بقصيدتين في مناسبتين مختلفتين وكذا محمد السادس الذي خصه بثلاث قصائد في بعض المناسبات.

وتندرج تلك القصائد في غرض المدح؛ ولهذا يستحضر الشاعر معاني القصيدة المادحة في الشعر العربي القديم، مركزا في ذلك على مجموعة من القيم كالكرم والجود والإنصاف والشجاعة والعلم وغيرها من القيم المرتبطة بالممدوح، في حين تحضر، بالنسبة للمادح، قيم الحب والإخلاص والطاعة والوفاء والدعاء للممدوح بالنصر والتأييد.

ج. حب الأصدقاء

يولي الأستاذ الجراري عناية خاصة للصداقة؛ ولذلك يحرص على دوامها في إطار النادي الجراري على الخصوص.

ويعد شعر الإخوانيات أحد مظاهر الصداقة في شعر الجراري، ويرتبط هو أيضا ببعض المناسبات التي جمعت الشاعر ببعض أصدقائه. ويمتاز ذلك الشعر، كسائر شعر الجراري، بالوضوح والبساطة، كما يمتاز أيضا بقدرته على تطويع للتعبير عن اليومي؛ ولذلك لا يخلو من فكاهة ودعابة.

(1) من ديوان عباس الجراري، ج، 1، ص: 120، وتراجع الصفحتان 122 و130

خلاصات عامة

يستخلص من القراءة السابقة ما يلي:

- أن الكتابة الشعرية لدى الأستاذ الجراري كتابة هاوية لفن الشعر اتخذها وسيلة للتعبير عن ذاته وعن حبه الكبير لزوجته وأولاده وأصدقائه ووطنه، ولهذا يمكن اعتبار شعره سيرة لعواطفه التي ظلت متوهجة من أول قصيدة إلى آخرها؛

- أن شعر الجراري يصدر عن تصوره النظري للشعر، وربما كان هذا التصور نفسه نابعا من النزوع النفسي للشاعر الذي ينحو منحى عاطفيا وجدانيا؛

- أن اختيار الجراري للقالب الشعري القديم يكشف عن اقتناعه الراسخ بقيمة وأهمية القصيدة العمودية وإمكانياتها التعبيرية. ويعكس هذا الاختيار التوجه الفكري للشاعر وينسجم، بالتالي، مع رأيه في مسائل فكرية واجتماعية...

- أن وضوح شعر الجراري يعكس رغبته في التواصل والتأثير في المتلقي المباشر لشعره: زوجته خاصة وأولاده وأصدقاؤه عامة، كما يعكس أيضا اقتناعه بأن الوضوح شرط أساسي في الكتابة الشعرية، كما يعد وضوح شعره امتدادا لوضوح كتابته النثرية بمختلف أجناسها؛

- يكشف شعر الجراري عن بعد آخر في شخصيته ظل مختفيا على من يعرف الجراري الباحث، فإذا شعره يكشف عن شخص آخر وديع ضعيف رقيق... بعيد عن الصرامة والجدية والتشدد التي وقرت في آذان المستمعين للجراري في الأقسام والمدرجات ولقراء مؤلفاته حيث يسود «خطاب المنهج» أما هنا فيسود خطاب العاطفة والوجدان.

***

المكان في شعر عباس الجراري

د. سي محمد أملح(*)

على سبيل التقديم

إن المتتبع لإنتاج الدكتور عباس الجراري، عميد الأدب المغربي، يسجل أنه إنتاج متنوع وعطاء متواصل ومتجدد في موضوعات توزعت بين الأدب العربي والأدب المغربي وتراثه بشقيه المدرسي والشعبي، ثم الدراسات الإسلامية وقضايا الفكر والثقافة.

وقد كان هذا المنجز العلمي والفكري محط أنظار الدارسين، وشكّل مجالاً للبحث في ملامح هذه الشخصية العلمية ورصد اهتماماتها ومنهجها ومدى إسهامها في الدرس العلمي والأدبي والفكريّ الإسلامي(1)؛ غير أن جانباً مهماً من إنتاج هذه الشخصية بقي متواريًا عن

(*) أستاذ باحث في الأدب المغربي، تطوان.

(1) انظر على سبيل المثال مجموعة من الأبحاث الفردية حول أعماله، نحو: "عباس الجراري سيرة وأعمال" لنجاة المريني، مطبعة النجاح الجديدة، ط 2، 1999م؛ و"موسوعية البحث العلمي عند أعلام المغرب في القرن العشرين د. عباس الجراري نموذجاً"، لجمال بنسليمان، منشورات النادي الجراري رقم 29، 2004م؛ و"الخطاب الديني عند الدكتور عباس الجراري: المرجع والبنية"، لإلهام المتمسك، منشورات النادي الجراري رقم 42، 2008م؛ و"جهود الأستاذ عباس الجراري في تحقيق النصوص"، للسعيد بنفرحي، دار السلام للطباعة والنشر، الرباط 2013م. وانظر، على سبيل المثال أيضاً، مجموعة من الأبحاث الجماعية حول أعماله، نحو: "زهرة الآس في فضائل العباس"، دار المناهل، ط 1، 1997م؛ و"أعمال ندوة شعر الملحون: واقع وآفاق" بكلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق، ط 1، 2011م؛و"جهود الأستاذ الدكتور عباس الجراري في إثراء التنمية الثقافية المستديمة"، منشورات المركز الأكاديمي للثقافة والدراسات المغاربية والشرق أوسطية والخليجية، 2017م. وانظر في المرجع الأخير سيرة للدكتور عباس الجراري، تتضمن مسرداً حول ما كتب عن أعماله بقلم د. عبد الله بنصر العلوي، ص 11. وانظر سيرة مفصلة أخرى ضمن كتاب "من تاريخ الأندية الأدبية في المغرب: النادي الجراري بالرباط لمؤسسه العلامة عبد الله الجراري"، للدكتور محمد احميدة، منشورات النادي الجراري رقم 28، ط 1، ص 280.

المثقفين المتتبعين لها، وظل محجوباً لا يعرفه إلا المقربون منها، المنتمون إلى دائرة الأهل والأصدقاء خصوصاً في النادي الجراري؛ إنه شخصية عباس الجراري الشاعرة.

يعلم الكثير من الدارسين والمثقفين المهتمين بإنتاج الدكتور عباس الجراري مطالعة ودراسة ونقداً أنه نشر في ستينيات القرن الماضي قصيدة تفعيلية بمجلة «دعوة الحق» تحت عنوان «أَصَحِيحٌ مَاتَ حُبِّي؟»[1]، إلا أن الشاعر لم يواصل نشر إنتاجه الشعري؛ وهو ما أوهم قُراءَه أن تلك القصيدة ربما كانت يتيمة أو فلتة من الشاعر لم ينظم بعدها شيء، بل إن الأمر امتد إلى بعض المقربين ممن واكبوا إنتاجه في شموليته، وهو الدكتور محمد احميدة الذي أفصح عن ذلك بنوع الدهشة قائلاً: «لم أعلم باستمرارية شاعرية الأستاذ عباس الجراري في قرض الشعر إلا في السنوات الأخيرة، من خلال ما كان يقرؤه بين الحين والآخر - في مجلسه الأدبي - من مساجلات دارت بينه وبين أعضاء النادي الجراري، أو بعض الشعراء الضيوف من أصدقائه مغاربة وغير مغاربة»[2].

والواقع أن الشاعر عباسا الجراري نظم قبل تلك القصيدة المنشورة وبعدها أشعاراً كثيرة؛ لكنه لم يحفل بجمعها لانشغاله الجاد بالدرس الجامعي والجهود التي بذلها في سبيل إرساء قواعد الأدب المغربي بأصنافه المختلفة، ليعود، كما أشار الدكتور مصطفى الجوهري، «إليه من جديد ضمن حلقات النادي الجراري متخلياً هذه المرة عن قصيدة الشعر الحر، إلى القصيدة العمودية المحافظة»[3].

وإذا كانت بعض أشعار عباس الجراري قد حظيت بالدراسة والنقد في إطار محدود تحكمت فيه قلة المادة الشعرية المتوفرة، على نحو ما قام به كل من الأساتذة محمد

(1) مجلة دعوة الحق، العدد 3، السنة 6، ديسمبر 1962م, ص 54.

(2) شعراء النادي الجراري: الشاعر والنص، لمحمد احميدة، منشورات النادي الجراري رقم 66، الطبعة الأولى 2015م، ص 115.

(3) انظر "النادي الجراري بين التأسيس والامتداد، مجلس الدكتور عباس الجراري نموذجاً"، لمصطفى الجوهري، ضمن كتاب "زهرة الآس في فضائل العباس"، دار المناهل، الطبعة الأولى، 1997م، 1/ 197.

احميدة[1] وعبد الرحمان عبد الوافي[2] وجمال بنسليمان[3]، فإن صدور ديوانه الشعري مؤخراً في جزأين[4]، أو بالأحرى مختارات من أشعاره، قد فتح أمام الدارسين واجهة جديدة للتعرف على شخصية عباس الجراري الشاعرة، والاقتراب من هذا الجانب الإبداعي الذي ربما سمعوا عنه أو عاينوه في مناسبات نادرة.

***

إن القارئ لما تضمنه الديوان من أشعار، ارتأى الشاعر نشرها من بين ما نظم على امتداد أكثر من نصف قرن، ليقف على شاعرية كبيرة لدى هذه الشخصية. كما يتبين القارئ المقدرة الفريدة التي يمتلكها الأستاذ عباس الجراري في القول الشعري على النمطين العمودي[5] والتفعيلي[6]، بل حتى على النمط الزجلي أيضاً[7].

(1) انظر تقديمه لشعر عباس الجراري ضمن كتاب "شعراء النادي الجراري: الشاعر والنص"، مرجع سابق، ص 113. وانظر مقالته "عباس الجراري شاعراً"، ضمن كتاب "جهود الأستاذ عباس الجراري في إثراء التنمية الثقافية المستديمة"، مرجع سابق، ص 429.

(2) انظر مقالته "شعراء من الرباط"، ضمن كتاب "الرباط مدينة الثقافة والفنون"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 87، الطبعة الأولى 2014م، ص 161.

(3) انظر مبحث "الجراري باحثاً" ضمن كتابه "موسوعية البحث العلمي عند أعلام المغرب في القرن العشرين د. عباس الجراري نموذجاً"، مرجع سابق، ص 275.

(4) صدرا بعنوان "من ديوان عباس الجراري"، إعداد وتقديم الدكتور محمد احميدة، منشورات النادي الجراري رقم 73 ورقم 77، السنة 2017م.

(5) أغلب أشعار الديوان، بجزأيه، على النمط العمودي. ويذهب الدكتور مصطفى الجوهري - وهو أحد خواص الشاعر عباس الجراري وأحد أقدم أعضاء ناديه الأدبي- إلى كون التزام الشاعر الجراري بالقصيدة العمودية في أغلب أشعاره إنما «تحكمت فيها أجواء الشعر والشعراء الدين ينتمون إلى المنتدى»، أي النادي الجراري. انظر "النادي الجراري بين التأسيس والامتداد، مجلس الدكتور عباس الجراري نموذجاً"، لمصطفى الجوهري، مرجع سابق، 1/ 197.

(6) انظر، مثلا، قصائد "أصحيح مات حبي؟" 1/ 53، و"عيدان" 1/ 61، و"تهنئة وشوق" 1/ 126، و"وفاتني ركبُ الحبيب" 1/ 159.

(7) انظر قصيدة "انْتِ حبي وحْياتي"، الديوان 1/ 108.

ومثلما تنوعت أشكال هذا القول، تنوعت أيضاً المواضيع التي حفزته على ذلك القول؛ فمنها أشعاره الرومانسية في زوجته الكريمة الأستاذة حميدة، والتي سطرها تحت عنوان «أشواق»؛ ومنها أشعاره في أنجاله البررة، التي جعل لها عنواناً «مع حبي ورضاي»؛ ومنها أشعار أخرى من «الإخوانيات» تضمنت بعض قصائد المديح السلطاني[1] والإخواني وبعض التهاني والرثائيات، ثم المساجلات التي أفردها بالجزء الثاني من ديوانه[2].

إن هذا التنوع في القول الشعري من جانبي الشكل والمضمون، إضافة إلى ما تزخر به هذه الأشعار من مكونات بنائية وسمات تشكيلية وجمالية، يتيح للدارس قراءته من جوانب مختلفة، وتناوله من زوايا متعددة. ولعل مكون المكان يعد واحداً من تلك المكونات التي برزت في هذا الشعر بروزاً لافتاً، وحضر فيه بدلالات مختلفة، سنحاول الكشف عنها في هذه المقالة.

***

المكان في شعر عباس الجراري وحافزية الإبداع.

لعله من نافلة القول أن يكون الاهتمام بالمكان الفني، سواء في مجال السرديات أو مجال الشعر، قد اتسعت دائرته بعد ظهور كتاب «جماليات المكان» للفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار (1884 - 1962م). ولعل أول تعريف للمكان الفني وصل إلى أيدي نقادنا هو ذاك الذي حدده هذا الفيلسوف حين قال: «إن المكان الذي ينجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكانا لا مبالياً، ذا أبعاد هندسية وحسب؛ فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط، بل بكل ما للخيال من تحيز»[3].

(1) هي قصائد قالها في صاحبي الجلالة الملك الحسن الثاني رحمه الله والملك محمد السادس نصره الله. وقد نُشر بعضها في ديوان "المحمديات: قصائد في مدح الجلالة الملك محمد السادس نصره الله"، ص 86 و160.

(2) سبق أن نشرت بعض هذه الأشعار المختلفة في كتاب "شعراء النادي الجراري: الشاعر والنص"، مرجع سابق، ص 118.

(3) جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الخامسة، ص 31.

لقد ميّز باشلار، من خلال هذا التعريف، بين المكان الجغرافي المحدد المساحات، وبين المكان الخيالي المطلق الذي يستطيع من خلاله المبدع - الشاعر مثلاً - الوصول إلى آفاق بعيدة معبراً عنه بدلالات متعددة بحسب الموقف الذي يوجد فيه.

وبناء على هذا المفهوم، فإن المتأمل في أشعار عباس الجراري سيجد أنها حفلت بموضوعة «المكان»؛ بل أخذت حيزاً مهماً فيها، إلى درجة أنها تحكمت في إنتاج هذا النص الشعري؛ فكانت السلطةَ التي حَفَزَت الشاعر على النظم، والمحركَ الذي حرك دواخله للبوح بما يشعر به. فلا غرابة أن وجدنا المكان لا يكتفي بأن يستحوذ على بعض أبيات القصيدة، بل يرتقي ليصبح عنواناً للقصيدة ككل. ويكفي أن نقرأ، مثلاً، عناوين سلسلة القصائد والنتف الشعرية التي كتبها الشاعر الجراري أيام مرافقته لجلالة الملك محمد السادس في رحلة إلى بعض الدول الإفريقية باعتباره أحد مستشاريه، هذه العناوين هي: «من وحي الكابون»[1]، و«في بوركينافاصو»[2]، و»في دكار عاصمة السينغال»[3]، و«من الدكار رحيلنا»[4]، و»في نواكشوط بموريتانيا»[5]؛ فقد كان لهذه الأمكنة التي زارها الشاعر رفقة جلالته تأثير كبير على نفسية الشاعر دفعته إلى ترجمة أحاسيسه اتجاهها.

يحضر المكان في شعر عباس الجراري بأشكال مختلفة وبمقاييس متنوعة؛ فهو يتسع ليشمل بعضاً من المدن المغربية نحو فاس ومكناس وورزازت وتارودانت، وقد يزيد اتساعاً ليرتبط بعدد من الدول العربية والإفريقية وحتى كندا وأمريكا. وبخلاف ذلك،

(1) من ديوان عباس الجراري، 81/1.

(2) نفسه، 85/1.

(3) نفسه، 87/1.

(4) نفسه، 91/1.

(5) نفسه، 92/1.

فإنه يضيق أحياناً حتى لا يبرح حدود الرباط، بل «زهرة الآس»[1] يحي الرياض. وأحيانًا أخرى، قد يضيق أكثر من ذلك لينحصر في غرفة بفندق. ويرتبط بمقياس الاتساع والضيق هذا مقياسٌ آخر يتمثل في القرب والبعد، وما لهما من تأثير كبير على الشاعر في تغيير أحوال نفسيته وتقلب مشاعره بين الغربة والألفة، وما ينشأ عنهما من الوحشة والحزن أو الأنس والفرح.

فكيف جاء المكان، إذن، في شعر الجراري معبراً عن الغربة وآهاتها؟ وكيف كان باعثاً على الألفة والتآلف؟

***

المكان والغربة.

يرتبط أكثر شعر عباس الجراري بالغربة المكانية، بحكم سفرياته التي تجعله في أماكن بعيدة عن وطنه وبيته وأسرته، سواء داخل المغرب أو خارجه. فإذا كان خروج الإنسان من دار إلى أخرى يثير في النفس الشجن والحنين، فما بالنا بالشاعر الجراري إذ ينتقل من مدينته إلى أخرى أو من وطنه إلى بلاد أخرى؟ ألا يثير ذلك في النفس الغربة والتيه؟ ويبعث فيها لواعج الشوق والحنين والأمل؟

لقد عبّر الشاعر، في غير ما موضع من أشعاره وبألفاظ متعددة، عن إحساسه بالغربة المكانية؛ بل كانت له سلسلة من القصائد المشتركة في مناسبتها تجسد هذا الشعور. فألفاظ وعبارات من قبيل: «الغريب، غربتي، البعد، ديار البعد، أعاني شقاء النأي، نأيكم، الحنين...»، تصب كلها في حقل واحد يجمع بين البعد والاغتراب، ويخلق تكرارها إيقاعاً خاصاً في سمفونية الغربة لدى الشاعر. والواقع أن غربة الشاعر وبعده عن أهله

(1) "زهرة الآس" هو اسم فيلا الدكتور عباس الجراري الكائنة بحي الرياض. وهو اسم مقر النادي الجراري - أدامه الله - الذي يعقد جلساته عصر كل جمعة. وقد مر بمرحلتين: مرحلة التأسيس على يد العلامة عبد الله الجراري (من 1930 إلى 1983م)، ومرحلة الامتداد على يد نجله الكريم الشاعر الدكتور عباس الجراري ابتداء من سنة 1983م وإلى الآن. انظر حوله كتاب "من تاريخ الأندية الأدبية في المغرب: النادي الجراري بالرباط لمؤسسه العلامة عبد الله الجراري"، مرجع سابق.

وفراقه عنهم مرتبط بوظيفه من جهة، وعلاقاته العلمية من جهة أخرى. فكم اعترف الجراري بعدم رغبته في السفر والاغتراب؛ اعتراف جعله يعاتب نفسه أحياناً مثلما نقرأه في مطلع قصيدته «اعتراف»[1]:

أُعَـاتِبُ نَفْسِي إِذْ عَصِيتُـ لَهَا أَمْرَا بِقَوْلِهَا لاَ تَرْحَلْ وَكَانَتْـ هِيَ الأَدْرَى

كاجعله أحياناً أخرى يعتذر على كون هذا الاغتراب عن أهله إنما أملته عليه الظروف كرهاً لا طوعاً. ومن ذلك ما قاله مخاطباً حرمه في قصيدته «صباح الخير من ورزازات»[2]:

فَهَلْ تَقْبَلِينَ العُـذْرَ إِنْ غِبْتُ مُكْرَهاً فَمَـالِي إِلَـى مَـا تَبْتَغِينَ قَصِيدُ

ونظيره أيضاً قوله متأسفاً[3]:

لَكِـنَّنِي فِـي دِيَارِ البُعْدِ وَا أَسَفِي لَـوْ أَسْـتَطِيعُ كَمَـا أَبْـغِي وَأَقْتَـدِرُ

إلى جانب البعد عن الدار والأهل، شكلت أحياناً ظروف المكان التي أحاطت بالشاعر في غربته عاملاً آخر في إيقاظ لهيبها في ذاته وعدم اطمئنان نفسيته. وما دام الشعر، حسب الشاعر الجراري نفسه، «تعبيراً عن ذات صاحبه ووجدانه، وكشف ما يختلج في نفسه»[4]، فإن تلك الظروف جعلته يفزع إلى هذا النمط من القول الشعري، فيبثه شكواه، ويخبر من خلاله معاناة البعد وحنين العودة. فظروف إقامة الشاعر في فندق العاصمة الكابونية «ليبروفيل» إثر سفره إليها في وفد رسمي دفعته إلى البوح في قصيدته «اعتراف» قائلاً[5]:

(1) من ديوان عباس الجراري، 1/ 84.

(2) نفسه، 1/ 79.

(3) نفسه، 1/ 90.

(4) في تقديمه لقصيدته "أصحيح مات حبي؟"، مجلة دعوة الحق، العدد 3، السنة 6، ديسمبر 1962م، ص 54.

(5) من ديوان عباس الجراري، 1 /84.

فَشِـدَّةُ حَـرٍّ مَـعْ رُطُوبَـةِ جَوِّهَـا يُضَافُ لَهَا النَّامُوسُ يَمْنَعُ أَنْ تَقْرَا
وَيَمْنَعُ عَنْ عَيْنِي المَنَـامَ بِغَمْضَةٍ كَذَاكَ خُرُوجاً لِلتَّفَسُّحِ بِـالأَحْرَى
وَهَـا نَحْـنُ أُخْبِرْنَا بِـأَنَّ انْتِقَالَنَا إِلَى بُوْرْكِينَا فَوْراً يُخَفِّفُ ذَا الأَمْرَا

ويتكرر المشهد نفسه إثر انتقال الشاعر إلى بوركينافاصو؛ فبعدما كان يتطلع، في نهاية مقطوعته السابقة، إلى تحسن أوضاع مقامه، نجده يواجه الظروف السالفة نفسها، حيث زاد المكان في تعميق غربته، فنراه يشكو من جديد أجواء إقامته، فيقول[1]:

هَـا قَدْ حَلَلْنَـا بِبُوْرْكِينَا بَعْـدَ الكَبُونْ وَبِسُـوفِتِيلَ مُقَامُنَـا لَـوْ تَعْلَمُونْ
غُـرَفٌ كَشِـبْهِ زَنَـازِنٍ أَرْكَانُهَا سُـكْنَى البَعُوضِ مُقَاوِماً كُلَّ الدُّهُونْ
حَـرٌّ شَـدِيدٌ وَالرُّطُوبَـةُ مِثْـلُهُ وَعَنِ البَعُوضِ فَلاَ تَسَـلْ وَسَلِ العُيُونْ
يَقْظَى طَـوَالَ اللَّيْلِ لَيْسَ لِغَمْضِهَا أَبَداً سَـبِيلٌ يُرْتَجَى يَـا لَلْجُنُـونْ

ولا يخفى ما في لفظ «الزنازن» من تصوير واضح لإحساس الشاعر بغربة شبيهة بغربة المنفي عن أرضه ووطنه. هذا الإحساس ترجمه الشاعر من قبل بلفظة أخرى قريبة من الأولى وهي «الأسرى» في قصيدته «اعتراف» إذ يقول[2]:

فَمَـا كَانَ ظَنِّي أَنْ يَطُـولَ مُقَامُنَا بِسَبْعِ لَيَالٍ فِي «الكَبُونِ» كَمَا الأَسْرَى

كما لا يخفى في توظيف الشاعر لضمير الجماعة في لفظة «مقامنا» والجمع في لفظة «الأسرى» إنما يدل على أن الغربة لم تكن فردية، بل هي غربة جماعية امتدت إلى باقي أعضاء الوفد، الذي عانى مثلما عاناه الشاعر من ظروف المكان.

(1) من ديوان عباس الجراري، 1/ 85.
(2) نفسه، 1 /84

ومما لا شك فيه أن عامل الزمان كان له تأثير في تأجيج هذه الغربة المكانية كما البيت الأخير، حيث لعب دوراً في التضييق على نفسية الشاعر. كما نقرأ هذا العامل الزماني في بيت آخر من بائية كاملية أنشأها الشاعر الجراري وهو بدكار عاصمة السنغال عندما استطول الرحلة التي بلغت إلى يومها العاشر[1]:

مِنْ قَبْلُ فِي الكَابُـونِ وَالفَاصُو غَدَتْ أَيَّـامُ عَشْـرٌ بِـالضَّنَـا تَتَصَبَّـبُ

وعلاوة على ذلك، فالشاعر قد قدم لهذه القطعة الشعرية بكلمة تفصح عن اشتداد لهيب البعد قائلاً: «وقد جربت في هذه الرحلة الإفريقية الطويلة معاناة البعد والاقتراب»[2].

غير أن اليأس من الظروف التي أحاطت الشاعر الجراري بالغربة في فندق بوركينافاصو بعد فندق الكابون، بددته طيب أخلاق البوركينابيين وبساتهم الصادقة. وهو ما عبر عنه الشاعر بقوله[3]:

شَـعْبٌ كَـرِيمٌ طَيِّبٌ بَسَـمَاتُهُ تُنْسِي الغَرِيـبَ بِصِدْقِهَا كُلَّ الشُّـجُونْ
تُنْسِي مَتَـاعِبَ مَا لَقِينَا فَجْـأَةً عِنْدَ الحُلُولِ بِفُنْدُقٍ أَضْحَـتْ تَهُونْ

ونظيره قوله عن أهل الكابون[4]:

سُـودُ الوُجُوهِ وَطِيبَةٌ فِي المَعْشَرِ وَالقَلْبُ أَبْيَضُ عَكْسَ ذَاكَ المَظْهَرِ
وَالبَسْـمَةُ الغَرَّاءُ تَكْشِفُ حُسْنَهُمْ وَالـدُّرُّ فِي فَمِهِـمْ كَعِقْـدِ الجَوْهَـرِ

إن حضور المكان مرافقاً للغربة في شعر عباس الجراري ليذكرنا بما حفظه لنا التراث الشعري العربي والمغربي من النصوص الإبداعية التي حملت مضامين الغربة

(1) من ديوان عباس الجراري، 87/1.
(2) نفسه، 87/1.
(3) نفسه، 1/ 85.
(4) نفسه، 82/1.

والحنين إلى الأوطان. ولعل المثقف المغربي الذي يتأمل في تلك الغربة الكابونية عند الشاعر الجراري ليستحضر بسرعة البديهة تلك الغربة الكبيرة التي ألمت بذات الشاعر الزعيم علال الفاسي حينما نفي إلى هذا البلد سنة 1937م، فترجمها في جملة من أشعاره التي حفل بها ديوانه، ونمثل لها بهذه الأبيات التي تقطر حزناً وآهات من البعد والاغتراب[1]:

لِلّهِ مِـنْ وَجْـدِي وَمِنْ تَبْرِيحِـي ... وَصَبَابَةٍ هَاجَتْ عَلَيَّ جُرُوحِي
طَالَ اغْتِرَابِي عَنْ رُبُوعِ أَحِبَّتِي ... وَلَكَمْ يَزِيدُ الشَّـوْقُ طُـولَ نُزُوحِي
فَارَقْتُهُـمْ وَتَرَكْتُ رُوحِي عِنْـدَهُمْ ... مَا عَيْشُ جِـسْمٍ فَـاقِـدٍ لِلـرُّوحِ

كما أن انتقال عباس الجراري من الكابون إلى بوركينافاصو في رحلته وهو يأمل في تخفيف معاناة ظروفه، وتحسن أوضاع مقامه، ليقترب إلى حد كبير مما قاله الزعيم علال الفاسي إثر انتقاله في منفاه من مويلا إلى براسافيل[2]:

مَـاذَا أُحَـاوِلُ فِي بَرَاسَـافِيـلِ ... مِـنْ بَـعْـدِ مَـا لُـقِّيـتُ شَرَّ مَقِيلِ
زَعَمُـوا انْـتِـقَـالِي لِـلـتَّرَوُّحِ وَالهَـنَـا ... مِـنْ بَعْدِ مُكْثٍ مُتْعِبٍ وَطَـوِيـلِ
فَـإِذَا بِهِـمْ قَـدْ أَنْزَلُـونِي مَـنْزِلاً ... أَخْـنَـتْ عَلَيْهِ عَـوَامِـلُ التَّعْطِيلِ
يَشْقَى بِحَـرِّ الشَّمْسِ طُـولَ نَهَـارِهِ ... وَبِـهِ الـغُـرُوبُ أَشَـدُّ فِي التَّنْكِيلِ
فَـإِذَا أَتَى الـلَّـيْـلُ الـبَهِـيمُ فَـإِنَّـهُ ... مَـأْوَى الخَشَاشِ بِنَابِهَا المَصْقُولِ
أَخْـشَى مِـنَ النَّامُوسِ فِي هَجَمَاتِهِ ... وَأَطِيـرُ مِـنْ تَلْقِيحِـهِ المَحْمُـولِ

وإلى هذا النموذج المغربي، نماذج كثيرة أخرى جسدها شعراء المهجر أمثال خليل مطران وجبران خليل جبران ومحمود سامي البارودي، حيث أعاد الشاعر الجراري بعضاً

(1) ديوان علال الفاسي، تحقيق عبد الرحمان بن العربي الحريشي، البوكيلي للطباعة والنشر والتوزيع، القنيطرة، الطبعة 2، 1998م، 2/ 31. وانظر في الموضوع "الشعر الوطني عند علال الفاسي"، لفتيحة بلعباس، مطبعة الأمنية، الرباط، 2011م، ص 108.

(2) ديوان علال الفاسي، 2/ 92.

من صور الغربة التي بثوها في أشعارهم. فقوله من قصيدته «قالوا المقام» التي نظمها بدكار[1]:

قَالُـوا المُقَـامُ هُنَـا يَطِيـبْ ... أَوَ مَـا تَـرَى، لِمَ لاَ تُجِيـبْ؟
الجَـوُّ مُعْتَـدِلٌ كَـذَا ... لَـكَ الأَكْلُ لَيْـسَ بِهِ مَعِيبْ
وَالنَّـوْمُ فِي غُـرَفٍ وَتِيـ ... ـرٌ فَرْشُهَـا لاَ مَـا يُرِيـبْ
فَـأَجَبْتُهُـمْ أَنِّـي هُنَـا ... أَبْقَـى وَأَشْـعُرُ كَالغَرِيـبْ

إنما ينظر إلى قول خليل مطران في قصيدته المشهورة «المساء»[2]:

إِنِّي أَقَمْـتُ عَـلَى التَّعِـلَّةِ بِـالمُنَى ... فِي غُرْبَـةٍ قَالُوا تَكُـونُ دَوَائِـي
إِنْ يَشْفِ هَذَا الجِسْمَ طِيبُ هَوَاهَا ... أَيُلَطِّفُ النِّيـرَانَ طِيبُ هَـوَاءِ

يحضر في شعر عباس الجراري نوع آخر من الغربة المكانية، ولَّد عند الشاعر أحاسيس القلق والوحشة والشوق والحنين أيضاً. وقد تمثلت هذه الغربة في ابتعاد أبنائه عنه بقصد متابعة الدراسات الجامعية العليا بأمريكا وكندا. هذا الإحساس نقرؤه بداية في بعض العناوين التي حملتها قصائد القسم المتعلق «بحبي ورضاي» نحو: «إلى ولدي الحبيب محمد في ذكرى ميلاده بديار الغربة» و»إلى ابنتي ألوف في ذكرى ميلادها ببلاد الغربة».

لقد جعلت هذه الغربة الشاعر وزوجته يحترقان بنار البعد، ويتجرعان مرارة الفراق طوال مدة دراسة أبنائهما. وكم للشاعر من أبيات يفصح فيها عن هول بعاد ابنته «أَلوف»، وطول غيابها. فلنستمع إليه حين يتساءل في حزن[3]:

هَـلْ سُـلُوٌّ وَفِي جُفُـونِي سُهْدُ ... وَلَهِيبُ الغِيَابِ فِي القَلْبِ وَقْدُ
خَمْسَةٌ قَدْ مَضَتْ وَفِي كُلِّ عَامٍ ... مِرْ بِعَادِ الحَبِيبِ هَوْلٌ أَشَدُّ

(1) من ديوان عباس الجراري، 1 /89.

(2) ديوان الخليل "نظم خليل مطران"، مطبعة دار الهلال، الطبعة الثانية، مصر، 1949م، 1/ 145.

(3) من ديوان عباس الجراري، 1 /122.

إلى أن يقول:

حُلْمُنَا أَنْتِ فِي هَنَاءٍ وَقُرْبٍ ... هَلْ لِهَذَا الغِيَابِ وَقْفٌ وَحَدُّ؟
إِنْ تَكُنْ غُرْبَةُ التَّعَلُّمِ طَالَتْ ... مُرُّهَا فِي القَرِيبِ حُلْوٌ وَشَهْدُ

ولنتأمل أبياتاً من الدالية الكاملية التي جادت بها قريحة الشاعر نحو ابنته «ريم» التي كانت تتابع دراستها العليا في جامعة بوسطن[1]:

إِنِّي وَأُمُّلِكِ لَسْنَا نَسْلُو لَحْظَةً ... كَيْفَ السُّلُوُّ وَصَبْرُنَا قَدْ يَنْفَدُ
طَالَ البِعَادُ وَلِلصَّبَابَةِ صَوْلَةٌ ... مَهْمَا نَأَيْتِ فَإِنَّهَا تَتَمَدَّدُ
عَامَانِ فِي بُوسْطُونَ كَيْفَ نُطِيقُ مَا ... فِي النَّفْسِ يُبْقِي ذَا المُقَامُ الأَبْعَدُ

كما عمّق سفر زوجته حميدة في رحلة إلى كندا وأمريكا، وابتعادها عنه لزيارة أبنائهما إحساسَ الشاعر بالوحدة والوحشة؛ هذه الرحلة البعيدة في المكان، والممتدة في الزمان إلى نحو شهرين كان لها أثر كبير على نفسية الشاعر؛ أثر نقرؤه في سلسلة قصائد أنشأها الشاعر في هذه المدة. لنتأمل البيتين الأول والأخير من مقطوعته الشعرية «أسائل حيها»[2]:

أُسَائِلُ حَيَّهَا لاَ مَنْ يُجِيبُ ... وَأَرْقُبُ نَجْمَهَا لَكِنْ يَغِيبُ
تَبَدَّلَ كُلُّ مَا فِي الكَوْنِ حَتَّى ... بَدَا لِي لاَ قَرِيبُ وَلاَ حَبِيبُ

لقد جعل اغتراب الزوجة والأبناء الشاعرَ في حالة حزن وضيق، حتى أضحت الدار موحشة لا يأنس بها؛ ما جعله يدخل في مناجاة معها متذكراً ليالي الوصال والأنس. يقول[3]:

(1) من ديوان عباس الجراري، 1/ 130.
(2) نفسه، 1/ 64.
(3) نفسه، 1/ 64.

أُنَاجِي الـدَّارَ أُذْكِرُهَا اللَّيَالِي قَضَيْنَاهَـا وَلَيْـسَ بِهَـا رَقِيبُ
لِقَـاءٌ دَائِمٌ وَالحُـبُّ صَـافٍ وَتَنْعَـمُ فِي الهَوَى مِنَّا القُلُوبُ
نُسَاقَى كَأْسَ عِشْقٍ مُسْتَلَذٍّ وَيَطْوِينَـا العِنَاقُ فَنَسْـتَطِيبُ
لَيَالِي كُلُّهَا أُنْسٌ وَشَـوْقٌ وَدِفْءٌ وَالجَـوَى جَـمْرٌ لَهِيبُ

***

المكان والألفة

تحضر في شعر الجراري أماكن مختلفة تشكل بالنسبة إليه مرتعاً للألفة والأنس؛ فإذا كان بعده المكاني عن وطنه أو بعد أبنائه يخلقان في نفسه شعوراً بالغربة والاغتراب، فإن الوطن هو حضن الشاعر وحبيبه؛ بل إن الرباط هو مرتع الألفة والأنس لديه. لذلك تكرر وروده في أشعاره التي أنشدها في الغربة؛ تلك الأشعار التي جاءت في شكل بنائي شبه ثابت يجمع بين شكوى الغربة المكانية وحنين العودة إلى مكان الألفة. فمن فندق المريديان بدكار يهتف الشاعر الجراري في أسلوب حواري قائلاً[1]:

قَالُـوا المُقَـامُ هُنَـا يَطِيـبْ أَوَ مَـا تَـرَى لِمَ لاَ تُجِيـبْ؟
فَأَجَبْتُهُـمْ أَنِّـي هُنَـا أَبْقَـى وَأَشْـعُرُ كَالغَرِيـبْ
فَالفِكْـرُ مِـنِّي بِـالرِّبَـا طِ مُعَلَّقٌ بِهَوَى النَّسِيبْ

ومن دكار أيضاً قبل يوم من رحيله منها إلى موريتانيا، يجدد الشاعر تعلقه بالرباط وشوقه إلى مكان ألفته، فيقول[2]:

إِذْ فِي غَدٍ بِـالصُّبْحِ نَحْـوَ المُورِتَا نِ تَوَجُّـهٌ مَـا لَمْ يَتِـمَّ تَفَنُّـدُ
فَهُنَالِـكَ بَعْدَ مَبِيتِ لَيْـلٍ وَاحِدٍ يَبْـدُو الـرِّبَاطُ بِهِ القُلَيْبُ مُقَيَّدُ

(1) من ديوان عباس الجراري، 1 /89.

(2) نفسه، 1/ 91.

إن تعلق الشاعر بالرباط هو تعلق طبيعي وفطري، مادام الشاعر قد ارتبط به منذ بداية وجوده في الحياة، ونشأت له به علاقات ووشائج مع أهله وأصدقائه وخلانه؛ فهو محط الذكريات والأحلام، وماء الحياة بالنسبة إليها، فيه يتنفس، وفيه يحيى، ولكم شغف به في أبحاثه ودراساته[1]؛ بيد أن التعلق الحقيقي للشاعر بالرباط من خلال ما بثه في أشعاره، إنما هو تعلق ببيته وداره، حيث أهله وزوجه، وحيث العلاقات بينهم تفيض بالمحبة والمودة والرحمة. فطالما تغنى الشاعر في أشعاره بألفة بيته إلى جانب زوجه، كيف لا وقد نص الله عز وجل على ذلك في محكم آيه قائلاً: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾[2]، وقد فسر الإمام النسفي «السَّكَن» في الآية بكونه راجعاً إلى الإلف والسكون[3]. وذهب الإمام الخازن إلى تفسيرها بقوله:«أي لتميلوا للأزواج وتألفوهن»[4].

والقارئ لديوان عباس الجراري، خصوصاً في قسم «أشواق» منه، سيقف على نماذج شعرية كثيرة دالة على رابطة «البيت = الألفة = الزوجة». ويكفي أن نعرض لها بهذين البيتين من المقطوعة الشعرية «وفي نواكشوط بموريتانيا»[5]:

تَرَى أَنَّهُ فِي البُعْدِ طَالَ غِيَابُهُ ... فَتَرْثِي لَهُ بِالشِّعْرِ وَالعَيْنُ تَدْمَعُ

تُرَجِّي لَهُ عَوْداً إِلَى وَكْرِهِ ... بِحَيِّ رِيَاضٍ مَعْ حَمِيدَةَ يَجْمَعُ

والمتأمل في تعبير الشاعر بالوكر عوض البيت، يستشف بسهولة تشبيه الشاعر نفسه

(1) انظر، مثلا، جملة من تلك الأبحاث في كتاب الشاعر "أضواء على الرباط: المدينة والجهة"، الجزء الأول، منشورات النادي الجراري رقم 21، يناير 2002م.

(2) سورة الروم، الآية 21.

(3) تفسير النسفي "مدارك التنزيل وحقائق التأويل"، حققه وخرج أحاديثه يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، 1998م، 2 /695.

(4) تفسير الخازن "لباب التأويل في معاني التنزيل"، تصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2004م، 3 /390.

(5) من ديوان عباس الجراري، 1/ 92.

بالطير الذي مهما طال ابتعاده، فإنه يحن إلى مسكنه؛ وفي «حي الرياض» الوارد في البيت، الذي هو حي سكنى الشاعر، يصدق قول أبي تمام[1]:

كَمْ مَـنْزِلٍ فِـي الأَرْضِ يَأْلَفُـهُ الفَتَى وَحَـنِينُـهُ أَبَـداً لأَوَّلِ مَنْـزِلِ

وكما مثلت رابطة «البيت / الزوجة» ألفة الشاعر، مثلتها أيضاً رابطة «البيت / الأبناء»، حيث تغنى الشاعر بألفتهم كثيراً؛ بل كم ناشد أن يجمع البيت شملهم، خصوصاً عندما طال اغترابهم بأمريكا وكندا لاستكمال دراستهم. من ذلك هذان البيتان اللذان يبارك فيهما لنجله محمد ذكرى ميلاده وهو بديار الغربة، آملا عودته الميمونة قائلاً[2]:

وَتَعُـودَ لِلْوَطَـنِ الحَبِيبِ مُكَلَّلاً بِـالغُـنْمِ يَحْفَظُـكَ الإِلَهُ الأَوْحَـدُ
وَيَعُـودَ لِلشَّـمْلِ المُفَـرَّقِ جَـمْعُهُ وَتَـتِمَّ فَرْحَتُنَـا فَـذَاكَ المَـوْعِـدُ

ولعل تسمية الشاعر لإحدى بناته باسم مشتق من الألفة، وهو «أَلوف»، تنطوي على معان كثيرة لما نحن بصدد الحديث عنه؛ بل إن تغنيه باشتقاقات هذا الاسم دليل على كون ألفته الحقيقية هي ألفة العائلة في اجتماعها وتآلفها. فعلى النمط التفعيلي يبارك الشاعر لابنته ألوف ذكرى ميلادها في ديار الغربة أيضاً قائلا[3]:

إِنَّهُ عِيدُ أَلُوفِي،
أُلْفَتِي... إِلْفِي... وَمَأْلُوفِي.

من جانب آخر، إذا كانت سكنى الشاعر، كما رأينا، تحتضن الشاعر وتبعث في نفسه إحساس الألفة الدائم رفقة حرمه وأبنائه، فإنها تضم في زاوية منها أيضاً «زهرة الآس» أو ما يعرف بالنادي الجراري، الذي تأسس على يد والد الشاعر العلامة عبد الله

(1) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، سلسلة ذخائر العرب 5، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة، 4/253.

(2) من ديوان عباس الجراري، 1/121.

(3) نفسه، 1/127.

الجراري -رحمه الله - منذ سنة 1930م، وتولى الشاعر إقامة جلساته منذ سنة 1983م[1].
إن هذا النادي الأدبي، بحق، هو المكان الثاني الذي يألفه الشاعر؛ فهو يضم إلى جانب ثلة من أصدقائه وخلانه نخبةً من العلماء والأدباء والشعراء، يتقاسمون فيه المعارف والعلوم، ويتطارحون فيه قضايا الفكر والآداب، ويتناشدون فيه القصائد والمقطعات، كل ذلك في جو أخوي، بل شبه عائلي. لذلك، لا عجب أن نجد هذا «المكان/الألفة» يتردد على لسان الشاعر في مواضع من أشعاره، مفتخراً به أحياناً، ومرحباً بأعضائه الجدد تارة أخرى. من ذلك قوله مخاطباً صديقه الفقيه السيد محمد حكم الذي تغيَّب عن إحدى جلسات النادي الجمعية مفضلاً حضور وليمة أقيمت بمناسبة عودة الحجاج[2]:

تِلْـكَ المَجَالِسُ لاَ أَبَا لَـكَ إِنَّها ... فَخْـرُ الرِّبَـاطِ وَمُنْتَدَى وَمَآبُ

ونظيره قوله مرحباً ومفتخراً باستضافة أعضاء «منتدى الأدب لمبدعي الجنوب» من بلاد رودانة[3]:

حَلُّـوا بِزَهْـرَةِ آسٍ هُمْ تَوَائِمُهَـا ... وُهُمْ بِرُودَانَـةٍ فِي مُعْتَلَى الرُّتَبِ
أَهْلاً بِلُقْيَاهُمُ نَـادِي الجِـرَارِي بِهِمْ ... يَزْهُـو افْتِخَاراً عَلَى الأَقْـرَانِ وَالنُّخَبِ

وما دامت الألفة تنشأ في هذا النادي الجراري بحضور أعضائه، فكم تكون فرحة الشاعر بانضمام إلف جديد إليه؛ فهاهو يرحب بانضمام الشاعر السلوي أحمد السوسي التناني هاتفاً بأعلى صوته[4]:

فَمَـرْحَى بِهِ نَـادِي الـرِّبَـاطِ يَجُرُّهُ ... لِيُصْبِـحَ مَنْسُـوباً إِلَيْـهِ جِرَارِيَـا

(1) انظر حول هذا النادي كتاب "من تاريخ الأندية الأدبية في المغرب: النادي الجراري بالرباط لمؤسسه العلامة عبد الله الجراري"، لمحمد احميدة، مرجع سابق.وانظر مقال "النادي الجراري بين التأسيس والامتداد، مجلس الدكتور عباس الجراري نموذجاً"، لمصطفى الجوهري، مرجع سابق، 1/181.

(2) من ديوان عباس الجراري، 1/148.

(3) نفسه، 1/171.

(4) نفسه، 2/140.

وكم يكون حزن الشاعر الجراري إذا حكم الإله بفقد أحد جلسائه من أعضاء النادي. ولعل في هذا البيت دليل واضح على كون هذا النادي الأدبي هو مجلس الألفة والتآلف، حيث يبكي فيه الشاعر فقدَ أحد أعز جلسائه وأقدمهم الفقيه الشاعر محمد بن عبد الله كوثر الروداني[1]. يقول[2]:

فُجِعْنَا لِفَقْدِ الإِلْفِ فَقْدُكَ لاَ يُرَى ... سِوَاكَ هُوَ الإِلْفُ الأَلِيفُ المُحَبَّبُ
وَأَوْحَشَ نَادِي رُفْقَةِ العُمْرِ غُمَّةً ... وَأَوْحَشَتِ الدُّنْيَا فَهَاهِيَ تَنْدُبُ

على سبيل الختم

على العموم؛ فهذه إحدى واجهات قراءة شعر العميد عباس الجراري، ورؤية لدلالات المكان في عمله الإبداعي. فقد سعينا، من خلال هذا المقال، إلى إبراز خصوصيات هذا المكان، والكشف عن تفاعله مع ذات الشاعر. بصيغة أخرى، عكست مجموعة من أشعار عباس الجراري مظاهر التواصل بين المكان والشعر، باعتبار الأول حافزاً على الإبداع الشعري، وباعتبار الثاني مجالاً لتمثل أبعاد ذلك المكان. وقد أبرزت هذه الواجهة القرائية كون الشاعر عباس الجراري أقرب إلى التيار الرومانسي في الشعر العربي، على الرغم من خوضه في مواضيع شعرية مختلفة وبأشكال متعددة؛ الأمر الذي أبان عن شاعرية قوية وإحساس مرهف، جعله يعد - دون مجاملة - أحد النماذج الشعرية المتميزة في الأدب المغربي؛ غير أن تعميق الدراسة في هذا الشعر، لكشف تميزه شكلاً ومضموناً وإصدار الأحكام النقدية حوله، يستدعي - كما ذهب إليه الدكتور محمد احميدة- أن تؤسس حوله أطروحة بعنوان «عباس الجراري شاعراً»[3]، لكن الأمر لن يكتمل ما لم يفصح الشاعر عباس الجراري عن مجمل تجربته الشعرية.

(1) كان لهذا الفقيه فضل كبير على الشاعر عندما شجعه على نشر مقالاته الأولى في المجلة التي كان يشرف عليها "هنا كل شيء". انظر الديوان 1/150 - 151. وانظر تقديم الشاعر عباس الجراري لكتاب "ذكرى الفقيه الروداني سيدي محمد بن عبد الله كوثر الإدريسي البومالني الروداني الرباطي"، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى 2017م.

(2) من ديوان عباس الجراري، 1/152.

(3) "شعراء النادي الجراري: الشاعر والنص"، لمحمد احميدة، مرجع سابق، ص 114.

إِمْهَارُ الْآسِ مِنْ فَوَاضِلِ الْعَبَّاسِ

للشاعر الدكتور: أنس أمين

أَ لَيْـلٌ نَهَـاراً وَ النَّهَـارُ غَـدَا لَيْـلاَ ... يُعَاتِبُنِي خِلِّي: كَفَّى حُبَّهَا لَيْلَى

فَحَسْبُكَ مِنْ سُـقْمِ الصَّبَابَةِ مُفْأَدٌ ... وَ جِسْمُكَ مِنْ إِظْعَانِ لَيْلَى قَدِ اعْتَلاَّ

لَيُعْتَادُ مَجْنُونُ الْهَـوَى طَـارَ عَقْلُهُ ... وَ أَشْفِقْ بِمَجْنُونِ الْهَوَى يَكْتَسِي عَقْلاَ

تَسَـلَّى بِـأَغْيَـادٍ وَ خُـودٍ خَرَائِـدٍ ... فَحُبُّ سُعَادٍ وَ الرَّبَـابِ لَكَمْ سَلَّى

حَنَانَيْـكَ بِي قَدْ قُلْتُ، لَوْ كُنْتَ وَامِقاً ... لِجِسْـمِكَ مَا تَلْفِي بِسُـقْمٍ لَهُ ظِلاَّ

فَشَتَّانَ مَنْ بِـالنَّارِ يُدْفِئُ مُهْجَةً ... وَ شَـتَّانَ مَنْ بِـالنَّارِ مِـنْ لَهْبِهَا يَصْلَى

فَقَالَ أَبَيْتَ اللَّعْـنَ لَيْـلَى بِصَرْمِهَا ... قَلَتْكَ، فَدَعْ تَذْكَارَ مَنْ عَهْدُهَا وَلَّى

سَأَرْكَبُ هَوْلَ الْقَفْرِ، قُلْتُ لِعَاذِلِي ... فَرَحْلاً، لَعَنْ لَيْلَى فَيَافِيهُ تُفْلَى

فَأَسْرَعْتُ فِي الرَّمْضَاءِ نُوقِي وَ مَا اشْتَكَتْ ... مَنَاسِمُهَا السُّـلْكَى دَماً تَبْصُمُ الرَّمْلاَ

أَنَخْـتُ بِنُوقِي فِي الـدِّيَارِ وَ لَيْتَنِي ... هَلَكْتُ، وَ لَمْ أُبْصِرْ طُلُولاً رَثَتْ أَهْلاَ

فَلَمْ أَلْفِ إِلاَّ الصَّمْتَ أَفْرَخَهُ الصَّدَى ... بِرَجْـعِ نَعَى لِلْخِـلِّ أَلاَّ يَجِـدْ خِلاَّ

فَإِنْ كُنْتُ عَنْ لَيْلَى أَطُوفُ أَوَابِداً ... وَ أَنْزِلُ قَفْراً مُسْـبِعاً بِـالرَّدَى هَلاَّ

وَ أَحْفَـظُ ذِكْرَاهَـا فَـذَاكَ لِأَنَّهَـا ... لَتَنْزِلُ قَلْبِي حَيْثُ عَبَّاسُ إِذْ يَغْلَى

قُنَيْطِـرَةً فِيهَـا أَنَخْـتُ مَطِيَّتِي ... بِتَكْرِيمِـهِ فَيْحَاؤُهَـا تَزْدَهِي حَفْلاَ

حَطَطْتُ عِصِيِّي بِالْقُنَيْطِـرَةِ الَّتِي ... بِـأَبْنَائِهَـا تَشْـدُو بِسِـيرَتِهِ الْفُضْلَى

إِلَيْكَ وَقَالَكَ اللهُ أَرْقَلْتُ نَاقَتِي ... بِمَحْفَلِ تَكْرِيمٍ غَدَوْتَ لَهُ أَهْلاَ

وَ قَدَّمْتُ إِطْرَائِي نَسِيباً لِأَنَّهُ ... بِهَامِ قَرِيضٍ مَا أَحَلَّ فَمَا أَحْلَى

بِجَامِعَةٍ لِابْنِ طُفَيْلٍ أَسَاتِذٌ ... وِدَادُكُمْ قَدْ أَوْثَقُوا حَبْلَهُ فَثْلاَ

فَأَنْتَ وَ أَيْمُ اللهِ فِتِّيرُ مَغْرِبٍ ... فَمَهْمَا نَقُلْ يَضْحَى عَلَى كُثْرِهِ قُلاَّ

فَشِعْراً وَ نَقْداً بَلْهَ بَحْثاً وَ خُطْبَةً ... جِرَارِيُّ عَبَّاسٌ لَيُزْرِي الْأُلَى قَبْلاَ

هُوَ الْمَغْرِبُ الْأَقْصَى تَقَصَّى بُحُوثَهُ ... فَأَلْفَاهَا مِضْوَاعاً بِآرَائِهِ الْجُزْلَى

وَ جَامِعَةٍ رَوَّيْتَ بِالْأَدْبِ شَتْلَهَا ... بِعِلْمِكَ لَمْ تَشْكُ الْعَفَاءَ وَ لاَ مَحْلاَ

وَ سَمَّدْتَ بِالْعِرْفَانِ أَدْوَاحَ صَرْحِهَا ... بِوَثْبِكَ أَضْحَى كُلُّ مُمْتَنِعٍ سَهْلاَ

وَ وَضَّأْتَ بِالْخِبْرِ الْمَعَارِفَ سَادِناً ... بِمِحْرَابِ فِكْرٍ أَرْدَفَتْ فَرْضَهَا نَفْلاَ

غَدَوْتَ لِأَدْبٍ مَغْرِبِيٍّ عَمِيدَهُ ... لِمَا صُغْتَهُ فِكْراً بِأَسْفَارِكَ الْجُلَّى

وَ رَخَّصْتَ عِقْيَاناً بِرَقْشِ نَفَائِسٍ ... مِنَ الْكُتُبِ الطُّولَى الَّتِي تَكْتَسِي طَوْلاَ

حَمَلْتَ وَ مَا اسْتَثْقَلْتَ لِلْعِلْمِ حَمْلَهُ ... أَمَانَتُهُ تَاللهِ قَدْ عَظُمَتْ حِمْلاَ

وَ حَسْبُ الدَّوَايَا إِذْ تُعَطِّشُ فَاهَهَا ... وَ مِنْ حِبْرِهَا تَرْوِي يَرَاعَتَكَ النَّهْلَى

فَمَا كُلُّ مَنْ أَبْرَى الْيَرَاعَ بِكَاتِبٍ ... وَ لاَ فَارِساً كُلُّ الَّذِي جَرَّدَ النَّصْلاَ

وَ أَبْلَيْتَ جَهْداً فِي الْبُحُوثِ لَمُشْرِفاً ... وَمَا يُطْلَبُ الْإِشْرَافُ إِلاَّ لِمَنْ أَبْلَى

فَأَنْبَتَّ زُغْبَ الْبَاحِثِينَ قَوَادِماً ... بِتَوْجِيهِكُمْ أَبْحَاثُهُمْ قَدْ أَتَتْ أُكْلاَ

هُمُ الطُّلَّبُ الْحَزْرَاتُ، أَنْتَ تُرَادُهُمْ ... بِغَيْرِ تُرَادٍ سُبْحَةٌ كُتِبَتْ تَكْلَى

فَبُورِكَ مَا يُمْنَاكَ خَطَّتْ وَ حَبَّرَتْ ... فَدَهْرَ دِهَارٍ مَا يُهَرَّأُ أَوْ يَبْلَى

فَإِنْ ضَمَّدَ الْأَحْبَارُ نَزْفَ يَرَاعِهِمْ ... لَهُ قَلَمٌ نَزَّافُ إِذْ يَنْهَمِي سَيْلاَ

إِذَا أَدْبُـهُ مَا انْفَكَّ يَهْوَى الْحِجَا، فَهَلْ ... أَتَاكَ حَدِيثُ الشِّـعْرِ لِلطَّـيْرِ قَدْ أَمْلَى

أَدِيبـاً لَقَـدْ شِمْنَـاهُ قَبْـلُ مُؤَلِّفـاً ... وَ مَـنْ يَكُ ذَا، أَبْدِعْ بِهِ شَـاعِراً فَحَلاَ

تُرَاهَـا بِمَـاءِ الشِّـعْرِ تَسْـبَحُ رُهَّفـاً ... بِدِيوانِ أَشْـوَاقٍ قَصَائِدُكَ النَّجْلَى

بِمَدْرَسَـةِ الْأَطْيَـارِ دِيوَانُـكُمْ غَـدَا ... لَهَـا سِـفْرَ تَغْرِيـدٍ تُقِـيمُ بِـهِ الْمَيْـلاَ

زَفَفْتَ لِأَعْجَـازِ الْقَصِيدِ صُـدُورَهُ ... زِفَـافَ كَعُوبٍ فِي هَوَادِجِهَـا تُعْلَى

لَقَـدْ غَـاصَ فِي دِيوَانِكُمْ بَاحِثُونَ إِذْ ... هُوَ الدُّرُّ بَعْدَ الْغَوْصِ بِاللُّمْعِ يُسْتَجْلَى

فَمِنْ قُرَحٍ قَدْ صُغْتَ فُسْـتَانَ لَفْظَةٍ ... تَجُـرُّ وَصِيفَاتُ الْمَعَـانِي لَهُ الذَّيْلاَ

وَ عَتَّقْتَ فِي دِنِّ الْقَوَافِي ذِوَاقَةً ... هُـوَ الدِّنُّ مَهْمَا عَتَّقَ الرَّاحَ تُسْـتَحْلَى

أَرِيشَـةُ رَسَّـامٍ لَـكُمْ أَمْ يَرَاعَـةٌ ... فَمِنْ وَشْيِهَا حُورُ الْخَيَالِ غَدَتْ جَذْلَى

وَ نَظْمُـكَ هَذَا أَمْ لُجَيْنُ سَـبَائِكٍ ... فَإِنْ لَمْ تُحَلِّيهَا الْقَوَافِي غَدَتْ عُطْلاَ

فَدُونَكَهَـا عَبَّـاسُ بِـالشِّـعْرِ بَضَّةً ... وَخُذْهَا مَهاً، مِنْ غُنْجِهَا تَرْقُصُ الرَّقْلاَ

وَ مَـا كَانَ مُهْدِيهَـا لَـكُمْ مُتَزَلِّفـاً ... وَلَكِنَّـهُ شُـكْرُ الْأَسَـاتِذِ قَـدْ جَـلَّا

وَ عُـذْراً إِذَا مَـا لَمْـلَمَ الشِّـعْرُ لاَمَـهُ ... فَلَـوْ صُغْتُ دِيوَاناً لَكُمْ مَـا وَفَى قَوْلاَ

وَ أَبْشِرْ فَقَدْ أَهْدَى الْحِجَازُ بَشَـائِراً ... فَلَيْلَى نَسِـيبِي قَدْ غَدَوْتُ لَهَا بَعْلاَ

وَ يَا رَبِّ مِنْ جُودٍ فَبَارِكْ وَسَـلِّمَنْ ... عَـلَى خَيْرِ مَنْ زَكَّى وَصَامَ وَ مَنْ صَلّى

وَ يَـا رَبِّ شَـفِّعْ فِيَّ يَوْمَ تَغَابُنٍ ... بِإِسْرَائِهِ فِي الْقُدْسِ مَنْ أَمَّ الرُّسْلاَ

وَ بَلِّـغْ أَ يَـا رَبِّي صَلاَتِي مُحَمَّداً ... عَلَيْهِ سَـلاَمُ اللهِ مَا مُصْحَفٌ يُتْلَى

* * *

ملحق

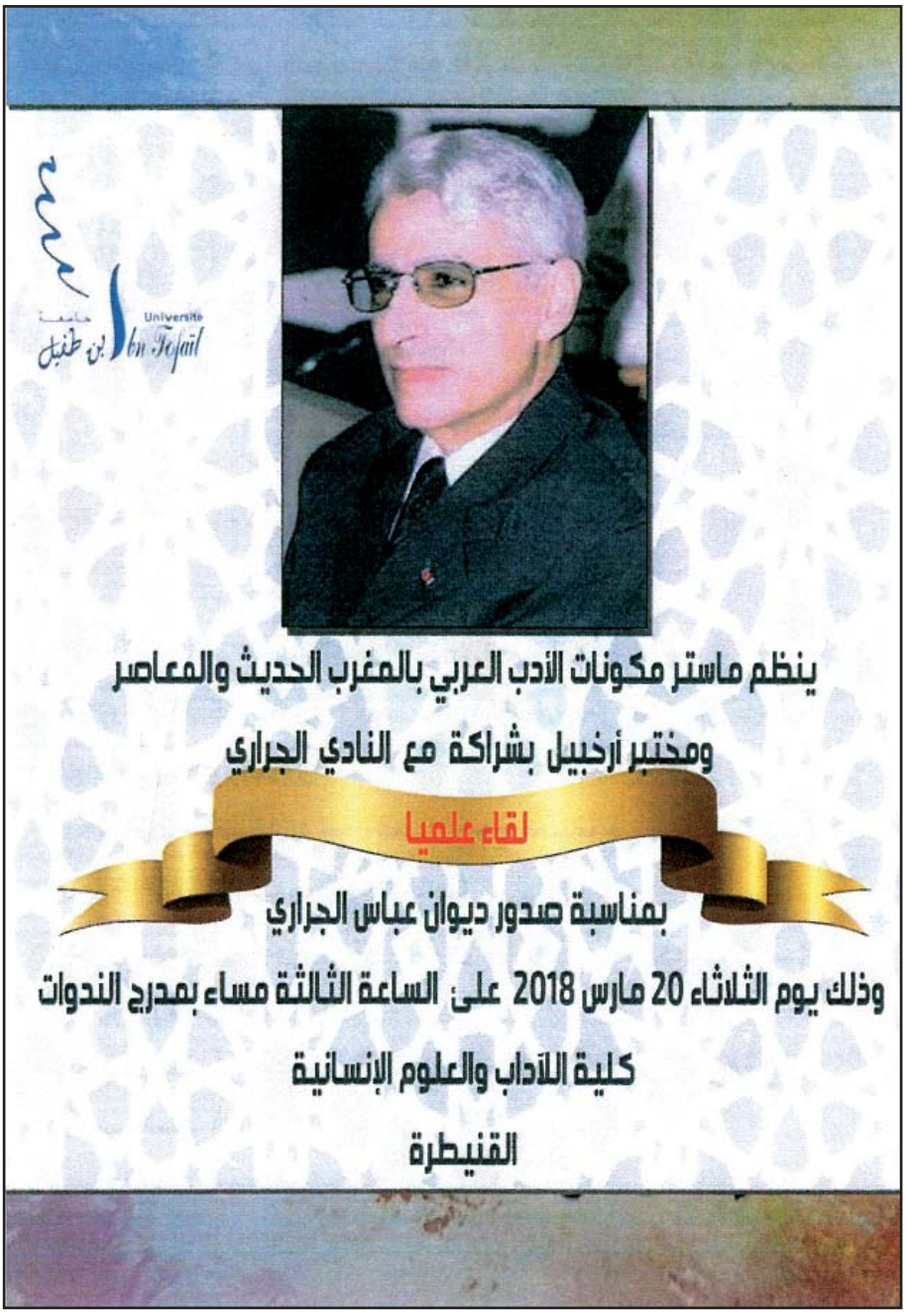

الملصق الخاص باللقاء العلمي المخصص لشعر الجراري الصادر تحت عنوان
«من ديوان عباس الجراري»

برنامج اللقاء الثقافي بمناسبة صدور «من ديوان عباس الجراري»

المنعقد بتاريخ 20 مارس 2018

الجلسة الافتتاحية (15:00 - 16:00).

رئيسة الجلسة: الدكتورة ربيعة بنويس

- كلمة السيد رئيس جامعة ابن طفيل الدكتور عز الدين الميداوي.
- كلمة السيد عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية الدكتور محمد زرو.
- كلمة السيد رئيس اللغة العربية وآدابها الدكتور محمد شباضة.
- كلمة السيد رئيس مختبر «أرخبيل» الدكتور عبد العزيز المطاد.
- كلمة اللجنة المنظمة يلقيها الدكتور عبد الله بن عتو.

الجلسة العلمية (16:00 - 17:30)

رئيسة الجلسة: الدكتورة نورة لغزاري.

- الدكتور محمد الدكتور البوري: مدخل نقدي لقراءة أشعار من ديوان عباس الجراري (النادي الجراري).
- الدكتورة بديعة لفضايلي: صبوة العشق ووهج الصبابة في غزل العباس بالحليلة المهابة. (كلية الآداب والعلوم الإنسانية).
- الدكتور مصطفى الطوبي: مفهوم الشعر عند عباس الجراري من خلال إنجازه الشعري. (النادي الجراري).
- الدكتورة ربيعة بنويس: التجربة الشعرية عند الدكتور عباس الجراري (كلية الآداب والعلوم الإنسانية).

- قصيدة للشاعر أنس أمين

الختام:

- كلمة الدكتور عباس الجراري، بمعية الدكتور محمد احميدة.

اللجنة المنظمة:

- دة. ربيعة بنويس
- د. عبد العزيز المطاد
- د. عبد الله بن عتو
- دة. نـورة لغزاري
- الطالب الباحث: وليد علا.

***

الشاعر عباس الجراري أمام المدخل الرئيس لكلية الآداب بالقنيطرة، مع مجموعة من الأساتذة وهم من اليمين إلى اليسار: ذ. عبد العزيز بن عبد الجليل من النادي الجراري، د. محمد شباضة رئيس شعبة اللغة العربية وآدابها، د. محمد البوري من النادي الجراري، د. محمد زرُّو عميد كلية الآداب، د. عباس الجراري، دة. نورة لغزاري، دة. ربيعة بنويس، دة بديعة لفضايلي من هيئة التدريس بشعبة اللغة العربية وآدابها، د. جمال الكركوري نائب العميد في شؤون البحث العلمي، دة. نفيسة الذهبي من هيئة التدريس في نفس الكلية (شعبة التاريخ).

الجلسة الافتتاحية برئاسة الدكتورة ربيعة بنويس منسقة ماستر «الأدب العربي بالمغرب الحديث والمعاصر» وعن يسارها الدكتور محمد زرُّو عميد كلية الآداب بجامعة ابن طفيل، وبجانبه الدكتور محمد شباضة رئيس شعبة اللغة العربية وآدابها، وعن يسار رئيسة الجلسة، الدكتور عبد العزيز المطاد منسق مختبر «أرخبيل» وبجانبه الدكتور عبد الله بن عتو عضو ماستر «الأدب العربي بالمغرب الحديث والمعاصر».

الجلسة العلمية برئاسة د.نورة لغزاري (وسط الصورة) وعن يمينها د. محمد البوري، دة. بديعة لفضايلي، الشاعر أنس أمين، وعن يسارها د. مصطفى الطوبي، ودة. ربيعة بنويس.

لقطة من داخل مدرج الندوات بكلية الآداب بالقنيطرة، ويُرى في الصورة الشاعر عباس الجراري، وعن يمينه حرمه الأستاذة حميدة الصايغ الجراري في حديث مع الدكتورة نجاة المريني، وعن يسار عميد الأدب المغربي الدكتور أنس أمين.

الشاعر عباس الجراري يلقي كلمته في ختام هذا اللقاء العلمي. وفي الصورة، الدكتورة نورة لغزاري رئيسة الجلسة العلمية، وعضوة هيئة التدريس في شعبة اللغة العربية وآدابها، بكلية الآداب، جامعة ابن طفيل وإلى جانبها الأستاذ محمد احميدة.

الأستاذ محمد احميدة يلقي كلمة في ختام الجلسة العلمية التي نظمت لتقديم قراءات في أشعار عباس الجراري الصادرة تحت عنوان: «من ديوان عباس الجراري» في جزأين.

الشاعر عباس الجراري وهو يلقي كلمته في نهاية اللقاء العلمي الذي نظم بكلية الآداب بالقنيطرة، لتقديم قراءات في شعره، الصادر ضمن مصنفه «من ديوان عباس الجراري» يوم الثلاثاء 20 مارس 2018.

الشاعر عباس الجراري يتسلم في نهاية الجلسة العلمية درع جامعة ابن طفيل من يد الدكتور محمد زَرُّو عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية القنيطرة.

الفهرس

تـــقـــديـــم

د. محمد احميدة 7

عباس الجراري شاعراً

د. محمد احميدة 13

ويـسـألـونـك عـن الـمـسـاجـلـة

د. محمد احميدة 45

مدخل نقدي لقراءة أشعار (من ديوان عباس الجراري)

د. محمد البوري 73

صبوة العشق ووهج الصبابة في غزل العباس بالحبيبة المهابة

دة. بديعة لفضايلي 89

مفهوم الشعر عند عباس الجراري من خلال إنجازه الشعري

د. مصطفى الطوبي 103

التجربة الشعرية عند الدكتور عباس الجراري

دة. ربيعة بنويس 125

قضية الشعر لدى الأستاذ عباس الجراري من التصور إلى الإنجاز

ذ. محمد اليملاحي 161

المكان في شعر عباس الجراري

د. سي محمد أملح 179

إِمْهَارُ الْآسِ مِنْ فَوَاضِلِ الْعَبَّاسِ

للشاعر: أنس أمين 197

ملحق 201

❊ ❊ ❊